

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الأنعام

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٧

الطبعة الرابعة



٢ ش الباب الأخضر المشهد الحسيني.

القاهرة ت ٩٣٦٠٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الفقرة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة الأنعام ، حاولت فيه أن أكشف عما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات محكمة ، ووصايا جليلة ، وحجج باهرة تقذف حقها على باطل الملحدين فتدفعه فإذا هو زاهق ، وتقيم الأدلة الساطعة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله محمد — صلى الله عليه وسلم — وعلى صحة البعث والحساب ، والثواب والعقاب .

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ في تفسير هذه السورة الكريمة ، أن أقدم بين يديها تعريفاً لها ، أتحدث فيه عن زمان ومكان نزولها ، وعن طبيعة الفترة التي نزلت فيها ، وعن سبب تسميتها بهذا الاسم ، وعن مناسبتها لما قبلها وعن المقاصد والأهداف التي اشتملت عليها ، وعن فضائل هذه السورة الكريمة ومزاياها . . .

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

تمهيد بين يدي السورة

١ - متى نزلت سورة الأنعام ؟

سورة الأنعام عدد آياتها خمس وستون ومائة آية وهي أول سورة مكية من طوال المفصل بالنسبة لترتيب المصحف ، وتعتبر بالنسبة لهذا الترتيب السورة السادسة ، فقد سبقتها سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، وهي سور مدنية باستثناء سورة الفاتحة .

أما ترتيبها في النزول فقد قال العلماء : إنها السورة السادسة والخمسون ، وإن نزولها كان بعد نزول سورة « الحجر » .

ويغلب على الظن أن نزول سورة الأنعام كان في السنة الرابعة من البعثة النبوية الشريفة . وذلك لأن سورة الحجر التي نزلت قبيلها فيها آية تأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يحجر بدعوته وهي قوله - تعالى - « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، (١) .

ومن المعروف تاريخياً أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مكث يدعو الناس سرا إلى عبادة الله زهاء ثلاث سنين ، ثم بدأت مرحلة الجهر بالدعوة في السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمره الله بأن يصدع بما يؤمر به ، أي : يحجر بما يكلف بتبليغه للناس ، ما أخذ من صدع بالحجة إذا جهر بها .

قال ابن إسحاق عند حديثه عن مرحلة الجهر بالدعوة الإسلامية : « ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به ، ثم إن الله - تعالى - أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يباذي الناس بأمره وأن يدعو إليه وكان بين

ما أخفى رسول الله - ﷺ - أمره واستتر به إلى أن أمره الله - تعالى - بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما باغنى - من مبعثه ، ثم قال الله - تعالى - له : فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين (١) .

٢ - طبيعة الفترة التي نزلت فيها سورة الأنعام :

فلما إن سورة الأنعام نزلت - غالباً في السنة الرابعة من البعثة النبوية ، وهذه الفترة من تاريخ الدعوة الإسلامية كانت فترة تضال فكري عنيف بين الإسلام والشرك ، ففيها بدأ النبي - ﷺ - يجر بدعوته وبصراح قريشا برسائله ، ويدعوم بأعلى صوته إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبين لهم بجرأة ووضوح بطلان عقائدهم ، وسخافة تفكيرهم واعوجاجهم عن الطريق المستقيم .

وأخذ المشركون يدافعون عن معتقداتهم بكل وسيلة بعد أن رأوا الدعوة الإسلامية يزداد نورها يوماً بعد يوم ، ورأوا أتباع النبي - ﷺ - يزدون ولا ينقصون ، ويجهرون بتعاليم دينهم بعد أن كانوا يخفونها ويتحملون في سبيل نشرها الكثير من ألوان التعذيب والترهيب .

وقد صور بعض العلماء طبيعة هذه الفترة التي كانت تجتازها الدعوة الإسلامية عند نزول سورة الأنعام فقال :

« وهذه الفترة من فترات الدعوة الإسلامية كانت فترة عنيفة أشد العنف مملوءة بالمقاومة من الجانبين كأعظم ما تكون المقاومة ، فالمشركون مأخوذون بهذا النجاح الذي صارت إليه الدعوة حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء ، وأن تتحدى في صوت عال ، ونداء جهير ، بعدما كان المؤمنون بها يلجأون إلى الشباب والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم ، والرسول - ﷺ -

السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ص ٢٧٤ طبعة المكتبة التجارية .

ماض فيما أمره به ربه من الصدع بدعوة الحق ، يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من كتابه ، وفيه إنذار لهم وتفنيد لمعتقداتهم ، وتسفيه لأرائهم ، وإنكار لألهمهم ، وتكليم بأوثانهم وتقاليدهم البالية ..

يؤمنند واجهت دعوة الحق أهدها مسفرة واضحة متحدية ، ووقف هؤلاء الأهدها مشدوهين مضطربين يشعرون في أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم ، ويتقربون يوما قريبا لا تنصارها وانهمامهم ، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستعصية بما درجوا عليه من العقائد الباطلة ، بادعائهم كذب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل ، وأن الله لو شاء لإبلاغ عباده شيئا لأنزل إليهم ملائكة ، وإنكارهم البعث والدار الآخرة ، واستهانوا في الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم ونسوا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - عاش فيهم حمرا طويلا لم يقل فيه يوما قولة كاذبة ، ولم يخن فيه يوما أمانة أو تمن عليها ، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين .

لم ينفكوا شيئا من ذلك ولم ينفكوا فيه ، ولكنهم فكروا فقط في أن الدعوة الجديدة التي استعظت بعد استخفاء ، وتحدث بعدما ظنوه بها من الاستخفاء ، يجب أن تموت في مهدها ويجب أن تنكم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والجموع .

ورحب الدعوة الإسلامية بهذا النحال ، ونحملت أعباءه وأثقاله ، وكان ذلك أول النصر ، لأن النور لا يظهر إلا بعد الاحتكاك ..

وأخذت سور القرآن في هذه المرحلة تتلاحق ، وأخذت آياتها تتعاون وتتآزر ، وكانت أغراضها متشابهة إلى حد بعيد ، وكان أولها وأحفلها بما نزلت له من أغراض بعد أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بإعلان الدعوة والصدع بها ، هو سورة الأنعام ، فقد جمعت كل العقائد الصحيحة ،

وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين ، وتفنيد شبه الملحدين ، وإبطال العقائد الفاسدة ، وتركب مبادئ الأخلاق الفاضلة (١) .

وبذلك يتبين لنا أن ما اشتملت عليه سورة الأنعام من مقاصد وأهداف وأحكام ومعتقدات يوافق كل الموافقة طبيعة المرحلة التي كانت تحتازها الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت .

٣ - أين نزلت سورة الأنعام :

يرى جمهور العلماء أن سورة الأنعام كلها مكية ، ويرى فريق منهم أنها كلها نزلت بمكة ما عدا الآيات ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

ولعل الذي حمل أصحاب هذا الرأي على القول بأن هذه الآيات التسع مدنية ورود بعض الروايات بذلك ، وأنها آيات نزلت في بيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام من التكاليف العملية ، وهي لهذا كانت أنسب بالمدينة .

والذي تعلمن إليه النفس وعليه المحققون من المفسرين أن سورة الأنعام قد نزلت كلها بمكة جملة واحدة ، ويشهد لما ذهبنا إليه ما يأتي :

(١) كثرة الآثار التي صرحت بنزولها بمكة دفعة واحدة ، ومن هذه الآثار ما ورد عن ابن عباس أنه قال : لقد نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة وحوها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح ،

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد (٢) .

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص ١٦ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدني - رحمه الله - (٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٢

(ب) المحققون من المفسرين عندما بدءوا في تفسير سورة الأنعام صرحوا بأنها جميعها مكية ، وأنها قد نزلت جملة واحدة ، وتجاهلوا قول القائل إن فيها آيات مدنية .

فهذا - مثلاً - الإمام ابن كثير ساق في مطلع تفسيره لهذه السورة الروايات التي تثبت أنها مكية ، ولم يذكر رواية واحدة تثبت أن فيها آية أو آيات قد نزلت بالمدينة .

وابن كثير - كما نعرف - من الحفاظ النقاد الذين يعرفون كيف يتخيرون الروايات ، وكيف يميزون بين صحيحها وضعيفها .

(ج) الروايات التي اعتمد عليها القائلون بأن تلك الآيات التسع مدنية روايات فيها مقال ، ولم يعتمدوها المحققون من العلماء ، فقد نقل السيوطي عن ابن الحصار قوله :

« استثنى من سورة الأنعام تسع آيات - مدنية - ولا يصح به نقل ، خصوصاً وأنه قد ورد أنها نزلت جملة (١) .

(د) الذي يقرأ سورة الأنعام بتدبر يجد فيها سمات القرآن المبكى واضحة جليلة ، فهي تتحدث باستنفاضة عن وحدانية الله ، وعن مظاهر قدرته ، وعن صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - في دعوته ، وعن الأدلة الدامغة التي تؤيد صحة البعث والثواب والعقاب يوم القيامة ، إلى غير ذلك من المقاصد التي كثر الحديث عنها في القرآن المبكى .

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المبكية ذات شأن كبير في تركيز الدعوة الإسلامية ، تقرر حقانيتها ، وتنفذ شبه المعارضين لها ، واقتضت

(١) الإنفان في علوم القرآن للسيوطي ، ج ١ ص ٢٨ طبعة مكتبة المشهد الحسيني سنة ١٣٨٧ هـ .

لذلك الحكمة الإلهية أن تنزل - مع طولها وتنوع آياتها - جملة واحدة ، وأن تكون ذات امتياز خاص لا يعرف أسواها كما قرره جمهور العلماء .

ومن ذلك يتبين أنه لا مجال للقول بأن بعضها من قبيل المدنى ، ولا بأن آية كذا نزلت في حادثة كذا ، فكأنها جملة واحدة نزلت بمكة لغاية واحدة ، هو تركيز الدعوة بتقرير أصولها والدفاع عنها (١) .

هذه بعض الأدلة التي نجعلنا نرجح أن سورة الأنعام كلها مكية ، وأنها نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - جملة واحدة .

٤ - لماذا سميت سورة الأنعام ؟

الأنعام لغة تطلق على ذوات الخف والحافر من الحيوان ، وهي - الإبل والبقر والغنم - وقد سميت سورة الأنعام بهذا الإسم ، لأنها فصلت الحديث عن هذه الأنواع بطريقة متعددة الجوانب ، متنوعة الأهداف .

وقد تكرر لفظ الأنعام في تلك السورة ست مرات في أربع آيات .

أما الآية الأولى فقد حكى القرآن فيها ما كانوا يفعلونه من قسمتهم الحرث إلى قسمين : قسم جعلوه لله يتقربون به إليه عن طريق إكرام الضيف ومساعدة المحتاج .

وقسم جعلوه لأهلهم فذبحوه على الأنصاب ، وأنفقوا منها على سدتها وخدمها ، ثم هم بعد ذلك العمل الباطل لا يعدلون في القسمه ، يحجرون أحيانا على القسم الذي جعلوه لله ، بينما يتحرزون عن الجور على القسم الذي جعلوه لشركائهم .

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ١٠٤ .
طبعة دار القلم .

قال تعالى : « وجعلوا لله ما ذرا من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » (١) .

وأما الآية الثانية فقد ورد فيها لفظ « الأنعام » ثلاث مرات ، وقد كشف القرآن فيها عن بعض أعمال المشركين المنكرة ، وهى أنهم جعلوا الأنعام ثلاثة أقسام :

فحما لا يأكل منه عند ذبحه إلا سدة الأوثان والرجال دون النساء .
وقسما يحرم ركوبه كالبحيرة والسائبة والхамى ، وقسما لا يذكرون اسم الله عليه عند الذبح وإنما يذكرون أسماء آلهتهم .

قال تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون » (٢) .

وفى الآية الثالثة تحدث القرآن عن لون من ألوان ظلمهم وجهلهم ، فقد كانوا يجعلون بعض ما فى بطون أعمامهم إذا نزل حياً كان خاصاً بالرجال دون النساء ، وإذا نزل ميتاً فالرجال والنساء فيه شركاء .

قال تعالى : « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يسكن مبة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إله حكيم طيب » (٣) .

أ. الآية الرابعة ، فقد بين القرآن فيها جانباً من نعم الله على عباده ،
:إذ جعل لهم من الأنعام أنواعاً تدبح لينتفعوا بلحمها وشحمها وجلودها
وأنواعاً تحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغية إلا بشق الأنفس .

قال تعالى : « ومن الأنعام حمولة وفرشاً ، كلوا مما رزقكم الله
ولا تبغوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، (١) .

وهناك آيات أخرى سوى هذه الآيات السابقة تناول الحديث فيها أحكاماً
أخرى تتعلق بالأنعام ، وسنفصل القول فيها عند تفصيلنا لها - بعون الله
- تعالى - .

• - مناسبتها لما قبلها :

وقد جرت عادة بعض المفسرين أن يعقدوا مناسبة بين السورة وبين
سابقها ، وأهل أكثرهم توسعاً في ذلك الإمام الألومى فقد قال : « ووجه
مناسبتها لآخر المائدة أنها افتتحت بالحمد والمائدة اختتمت بفصل القضاء
وهما متلازمان ، كما قال - سبحانه - « وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله
رب العالمين ..

وقال الجلال السيوطى في وجه المناسبة : « أنه - تعالى - لما ذكر في آخر
المائدة « لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، على سبيل الإجمال ، افتتح
- جل شأنه - هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله ، فبدأ - سبحانه - بذكر خلق
السموات والأرض ، وضم - تعالى - إليه أنه جعل للظلمات والنور ، وه
بعض ما تضمنه ما فيهن ، ثم ذكر أنه خلق للنوع الإنسانى وقضى له أجلاً
وجعل له أجلاً آخر للبعث ، وأنه - جل جلاله - مفتى القرون قرناً بعد قرن
ثم قال - تعالى - « قل إن ما فى السموات والأرض إلخ ، . فأنبت له ملك جميع
المطرقات نظرى المكان . ثم قال « وله ما سكن فى الليل والنهار ، فأنبت أنه

(١) الآية ٣ ، ١ .

ملك جميع المظروفات اطرف الزمان ، ثم ذكر - سبحانه - خالق سائر الحيوان من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة والموت ، ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الإنشاء والخلق لما فيهن من التنيرين والنجوم وخلق الإصباح وخلق الحب والنوى ، وإنزال الماء وإخراج النبات والثمار بأنواعها وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات إلى غير ذلك مما فيه تفصيل ما فيهن ، (١) .

هذا ، وقد عقد فضيلة الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله - مقارنة إضافية بين سورة الأنعام وبين ما سبقها من سور مدنية فقال ما ملخصه :

وأما السور الأربع المدنية التالية لسورة الفاتحة - والصابقة لسورة الأنعام - وهي سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، فهي بحكم مدنياتها تشترك كلها في هدف واحد وهو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة ، وإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام ، وإلى الأساس الذي يرجعون إليه ويحكمونه في التعامل معهم في حالتى السلم والحرب ، وقلمنا تعرض هذه السور المدنية إلى شيء من شئون الشرك ومناقشة المشركين .

وهذه السور مع إشتراكها في أصل الهدف العام ، تختلف قلة وكثرة فيما تقتناوله من التشريع الداخلى الخاص بالمسلمين ، والتشريع الخارجى الذى يرتبط بهم مع من يخالفهم فى الدين .

إن سورة البقرة قد نزلت فى أوائل الهجرة ، قد صار للمسلمين بالهجرة كيان خاص وجوار خاص ، وبذلك كان أمامها هدفان :

الأول : نظم يأخذه بها المسلمون أنفسهم فى عباداتهم ومعاملاتهم : شخصية ومدنية وجنائية .

والهدف الآخر : إرشاد إلى طرق المناقشة فيما كان مجاوروهم يشيرونه حول الدين والدعوة من شبه وتشكيكات ، وقد تجلّى هذان الهدفان بصورة واضحة في سورة البقرة ، برز أحد الهدفين في نصفها الأول ، وبرز الهدف الثاني في نصفها الأخير ، وقرأ في الأول على وجه عام من قوله — تعالى —
 « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ، (الآية ٤٠) إلى قوله — تعالى — : « ذلك بأن الله فزل الكتاب بالحق . وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ، (الآية ١٧٧) .

واقرأ في الهدف الثاني قوله — تعالى — : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، (الآية ١٧٧) إلى نهاية الآية ٢٧٣ : « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتاباً فإرمان مقبوضة ، .

وقد عرضت في هذا السبع الطويل بعد أن أجملت أوصاف الصادقين في إيمانهم المنتقين في أعمالهم لجملة من الأحكام التي تسوس الأمة فيما بينها . عرضت الفصاح ، والوصية ، والصيام ، والقتال ، وبعض أحكام الحج . . . إلخ .

ثم تجيء سورة آل عمران ، فتصرف عناية خاصة إلى مناقشة النصارى في قضية الألوهية ، وإلى كشف بعض صور التزييف التي كان يصطنعها أهل الكتاب إخفاء لحق الإسلام ودعوته .

ثم ترشد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم ، وبقية شر الوقوع في مخالب الأعداء وترسم لهم في ذلك الطرق الحكيمة التي تجعل منهم قوة المكفاح في تأييد الحق وهزيمة الباطل . . .

وعلى أساس من مشاركة سورة النساء لزميلاتها المدنيات في أصل الهدف تناولت الأمرين : Made searchable using ScribeTools.com الكتاب في موضوع

الالوهية والرسالة ، غير أن عنايتها بجانب التنظيم كانت أشد من عنايتها بجانب المناقشة

ثم تجيء سورة المائدة فتأخذ سبيل أخواتها أيضاً ، فتشرع للمسلمين في خاصة أنفسهم ، وفي معاملة من يخاطبون من أهل الكتاب ، مع الإرشاد إلى طرق حاجتهم والتنبيه على أخطائهم وتحريرهم للحكم عن مواضعه . وتذكيرهم بسيئاتهم مع أنبيائهم . وقد استغرق ذلك معظم السورة أما سورة الأنعام فإنها لم تعرض لهدف من الأهداف الأصلية التي تميزت بها السور الأربع المدنية قبلها .

فهي أولاً : لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية بلحاظ المسلمين ، كالصوم والحج في العبادات ، والعقوبات في الجنايات ، والمدائنة والربا في الأموال ، وأحكام الأسرة في الأحوال الشخصية . وهي ثانياً : لم تذكر في قليل ولا كثير شيئاً يتعلق بالقتال ومحاربة الخارجين عن دعوة الإسلام .

وهي ثالثاً : لم تتحدث في شيء ما عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك لم تتحدث عن طوائف المنافقين ولا عن أخلاقهم السيئة ومسالكتهم المظلمة .

وهي رابعاً : لا نجد فيها مع ذلك كله نداء واحداً للمؤمنين باعتبارهم جماعة تنتظمها وحدة الإيمان ، لا نجد فيها شيئاً من هذا كله كأوجدها جميعاً في السور الأربع السابقة ، وإنما نجد الحديث فيها بدور بشدة وقوة حول العناصر الأولى للدعوة ، ونجد سلاحها في ذلك ، الحجج المتكررة ، والآيات المصرفة ، والتنويع السجيب في طرق الإلزام والإقناع : تذكر توحيد الله في الخلق وفي الإيجاد ، وفي العبادة والتشريع ، وتذكر موقف المكذابين وتقص عليهم ما حاق بأمثلهم السابقين ، وتذكر شبههم في الرسالة ، وتذكر يوم البعث والحزاء

واعلمنا بعد هذا التمس الفرق الجلى الواضح بين منهج سورة الأنعام .
ومنهج السور الأربع المدنية قبلها . . . (١) .

٦ - عرض هام لسورة الأنعام :

عندما نفتح كتاب الله لتتدبر ما اشتملت عليه سورة الأنعام من مقاصد
حكيمه ، وتوجيهات نافعة ، نراها في مطلعها قد ابتدأت بحمد الله والثناء عليه
وبيان استحقاقه لذلك ، لأنه - سبحانه - هو الخالق للسموات والأرض
وما بينهما ، وهو العليم الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

قال تعالى : الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل
للظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . - هو الذى
خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم
تمترون . وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم
وبعلم ما تكسبون . .

ثم تحدثت السورة الكريمة عن طبائع المعاندين ، وأذرتهم بسوء المصير
إذا ما استمروا فى عتوهم وجحودهم ، وسأقت لهم - ليعتبرا ، ما حل
بالمكذبين الذين سبقوهم والذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، فعليهم
أن يفتنوا إلى رشدهم حتى لا يصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم .

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ المؤثر ،
فيقول تعالى : . وما نأبيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها

(١) تفهيم القرآن الكريم ص ٢٦٢ وما بعدها . لفضية الفيح محمود

معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهملنا من قبلهم من قون مكناهم في الأرض ، مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكتناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين . .

ثم تأخذ السورة بعد ذلك في تسليمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — فترسم صورة عجيبة لمكابرة المشركين وأنهم قد غدوا لاطماس ، بصيرتهم واستيلاء الجحود على قلوبهم لا يجدى معهم توجيهه أو دليل ، حتى أنهم لو نزل عليهم كتاب من السماء فلمسوه بأيديهم ، وقرأوه بأعينهم ، وعرفوا منه صدق نبوتك يا محمد ، اقالوا بعد كل ذلك : إن هذا إلا سحر مبين . .

قال تعالى : . ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد أوتى به رسلاً من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . .

فإذا ما وصلنا إلى الربع الثاني من سورة الأنعام ، ألفيتها تسوق حشوداً من البراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته بطريقة تحمل الترغيب قارة والترهيب أخرى ، وبأسلوب يسكب في القلوب السكينة والطمأنينة ، ويقنع الحقول السليمة بأن المستحق للعبادة والخضوع إنما هو الله وحده .

« قل لمن ما في السموات والأرض ، قل لله ، كتب على نفسه
الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم
خسهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم .
قل أغير الله أنخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطمع ولا يُطعم
قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين .
قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه
يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسك الله بضرب
فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسك بخير فهو على كل شيء
قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل أي
شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلى هذا
القرآن لأنذركم به ومن بلغ أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة
أخرى . قل لا أشهد . قل إنما هو إله واحد وإلنئى برى . عما تشركون . »

ثم ذكرت السورة بعد ذلك حال المكذبين بيوم القيامة . فوضحت أنهم
في هذا اليوم الهائل الشديد ينكرون أنهم كانوا مشركين ولكن هذا الإنكار
لن ينفعهم شيئا لأن الذى يخاطبهم هو العليم الخبير .

« وبوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم
الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله
وبنا ما كنا مشركين . أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم
ما كانوا يفترون . »

ثم تسمى الآيات في الحديث عن مشاهد يوم القيامة ، فتصور حسرتهم وتندمهم عندما يقفون على النار التي كانوا يكذبون بها في الدنيا ، وعندما يقفون أمام ربهم الذي كانوا يشركون معه آلهة أخرى فتقول :

• ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين • بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون • وقالوا لئن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين • ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون • .

ثم بعد هذا التصوير المؤثر لأحوال المشركين يوم القيامة ، يترجمهم القرآن مؤقتاً ليوجه خطابه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - مسلياً له ، ومثبتاً لقلبه ، وداعياً إياه إلى الصبر على تحمل الرسالة بدون كلل أو ملل ، وإلى التمسك بمن سبقوه من أولي العزم من الرسل .

قال تعالى : • قد علم إنه ليعزرك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون • ولقد كفت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين . وإن كان كبير عليك لإعراضهم ، فإن استطعت أن تبغى نفقاً في الأرض أو سائماً في السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين • .

أما الربع الثالث من السورة الكريمة فقد افتتح ببيان أن الذين يستجيبون لدعوة الحق إنما هم الذين يسمعون ويتعظون وهم الأحياء حقا ، أما من ماتت قلوبهم فصارت لا تفتتح للحق ، ولا تقبل الهداية فإن مصيرهم إلى الله ، فهو - سبحانه وتعالى - سيجازيهم بسبب جحودهم وعنادهم ومطالبتهم لنبيهم بالمطالب المتعنتة التي لا فائدة من ورائها .

قال تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يعصم الله ، ثم إليه يرجعون » وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه . قل : إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون . .

ثم تدعوهم السورة بعد ذلك بأسلوب تلقيني إنذارى إلى التفكير والتدبر في مظاهر قدرة الله وتبين لهم بطريقة منطقية مقنعة أن الله وحده هو القادر على سلب أسماعهم وأبصارهم ، وهو القادر على إنزال العذاب بهم أو رفعه عنهم . استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعاني بأسلوبه الفريد فيقول :

« قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إلياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسئون ما تشركون » .

ثم يقول : « قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به . أنظر كيف نهرف الآيات ثم هم يصدفون . قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون » .

ثم وضحت السورة أن وظيفة الرسل إنما هي التبشير للمتقين والإنذار للمكذابين وأن النسي — صلى الله عليه وسلم — لم يقل لهم إنى أملك خزائن الأرض ، أو إنى أعلم الغيب ، أو إنى ملك من الملائكة . وإنما قال لهم : إنى بشر مثلكم أتبع ما يوحى إلى من ربي ، والناس مختلفون بعد ذلك فى تلقى نور الوحي ، وجزاؤهم على حسب حالهم وعملهم ، فلا يستوى المحسن والمسيء . كما لا يستوى الأعمى والبصير :

قال تعالى : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

ثم تمضى السورة فى سرد توجيهااتها وحكمها فتسوق البشارة للمؤمنين الذين اقتربوا بعض السيئات ثم قابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، كما تسوق الإنذار الحاسم للشركين الذين لم يتبعوا الطريق القويم فنقول :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » . وكذلك تفصل الآيات ولستبين سبيل المجرمين .

ثم يمضى السياق مع المكذابين المستعجلين بالعذاب فيطلعهم ويطلع غيرهم فى الربع الرابع من السورة على صورة شاملة لعلم الله الواسع ، وقدرته الثافذة ، وحكمته الحكيمة ، ويطوف بهم فى مجاهل الغيب الذى لا يعلمه إلا هو ، وفى عالم البر والبحر الذى لا يخرج منه شيء عن إرادته ، وفى ظلمات الأرض المخبوءة التى لا يحيط بها إلا علمه ، ثم يريهم كيف أنهم محكومون

بإراته . وأن حركاتهم وسكناتهم مردها إليه ، وأنهم في ساعة الشدة والكرب لا يلوذون إلا بحماه .

تدبر كتاب الله وهو يحكى كل ذلك بطريقته المقننة للعقل والعاطفة فيقول :

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقتضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون . قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون . »

وبعد هذا البيان الذى تعددت مظاهر عظاته وعبره ، وتنوعت ألوان هداياته وإرشاداته اتجه القرآن بالخطاب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ليقول له مسلياً ومثلاً

« لست عليكم بوكيل . لكل نبي مستقر وسوف تعلمون » .
ثم يأمره ويأمر كل من يتأق له الخطاب بالإعراض عن الجاهلين الذين
يخوضون في آيات الله بغير علم فيقول :

« وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا
في حديث غيره ، وإما ينسفك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع
القوم الظالمين » وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولاكن ذكرى
لعلهم يتقون » .

ثم تبدأ السورة في الربيع الخامس منها جولة جديدة لتثبيت العقيدة السليمة
فذلك طريق القصة ، وتتخذ من إبراهيم أبى الأنبياء نموذجاً لاستقامة الفطرة ،
وسلامة التفكير وحسن الإدراك وبقظة العقل ، فقد رأى إبراهيم — عليه
السلام — بفطرته النقية أن الأصنام لا يعقل أن تكون آلهة . وخاطب
أباه وقومه بذلك ، واعتبرهم بهذا الإشراف في ضلال مبين ، ثم انجبه إلى التعرف
على الإله الحق فتخيله فى كوكب ، واسكنه حين أفل وزال قال : « لا أحب
الآفلين ، لأن الإله الحق لا يغيب ولا يزول . ثم ظن الألوهية فى ذلك القمر
الذى ينسكب نوره فى الوجود فيضى الليل اليميم ، واسكنه رأى القمر
- أيضاً - بأفل ويغيب فأعرض عن اتخاذها إلهاً والتمس من الإله الحق أن
يهديه إلى الصراط المستقيم .

فلما أصبح الصباح ورأى الشمس وقد أشرقت وهم ضوؤها الآفاق قال :
« هذا ربى ، لأنها أكبر مصادر الضوء ، فلما غابت الشمس أدرك بفطرته
السليمة أن الإله لا يغيب ولا يكون شيئاً محسوساً ، فقرر البراءة من الشرك ،

سوانجه إلى الخالق الحق الذي قدل آثاره على وجوده وعلى مخالفته لظرفاته
فقال : إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خيفاً وما أظن
بالمشركين . ثم أخذ بعد ذلك يجادل قومه وبرشدهم إلى الصراط المستقيم .
ويقيم لهم الأدلة على بطلان معتقداتهم .

تأمل معي - أيها القاريء الكريم - تلك الآيات الكريمة التي تحكي
كل هذه المعاني بأسلوبها البديع فتقول :

« وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، إني لأراك
وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات
والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً
قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً
قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدينني ربي لأكونن من الخاسرين
الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت
قال يا قوم إني برئ مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات
والأرض خيفاً وما أنا من المشركين . »

ثم مضت السورة الكريمة في الحديث عن رسل الله الذين آتاهم الله
الحجة على أقوامهم ، وختمت الحديث عنهم بالثناء عليهم ووجوب
الاعتقاد بهم في هديهم وسلوكهم .

أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن ينكفروا
بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين

هدى الله فيهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى
للعالمين . .

وبعد هذا الفصص المذكور ، والتوجيه المنبه ، والتدليل الواضح على
وحدانية الله وقدرته سافت لنا السورة في الربع السادس منها حشوداً متنوعة
من مظاهر قدرة الله ومن نعمه التي لا تحصى على عباده . إنها هنا توقفنا أمام
هذا الكون الرائع البديع لتقول لنا : انظروا ماذا في السموات والأرض ،
ثم اتجهوا بالعبادة والخضوع إلى الله رب العالمين ، فهو الذي خلق الحب فمكان
منه النبات ، وخلق النوى فمكان منه الشجر ، وهو الذي يخرج الحي من الميت
ويخرج الميت من الحي ، وهو الذي يأتيكم بالضياء بعد الليل المظلم لكي تبتغوا
من فضله ، ويأتيكم بالليل بعد النهار لكي تسكنوا فيه بعد طول الكدح
والعناء ، وهو الذي يسير الشمس والنجم بتقدير دقيق وحساب لا يتخلف ،
وهو الذي زين السماء بالنجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، وهو الذي
أوجدكم جميعاً من نفس واحدة لها مستقر في أصلاب الرجال ومستودع في
أرحام النساء . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شيء . .
لأن الماء قوام الحياة .

استمع إلى القرآن وهو يحكى كل هذه النعم الدالة على قدرة الله
وفضله فيقول :

• إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ، ومخرج
الميت من الحي ، ذلكم الله فائق توفيقكم . فائق الإصباح وجعل
الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم .
وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر
قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشاكم من نفس

واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون • وهو الذى
أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً
فخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من
أعناب والزيتون والرمان مهتبياً وغير متشابه ، أنظروا إلى ثمره إذا أثمر
وبنعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، .

وبعد أن ساق القرآن كل هذه النعم التى أسبغها الله على الناس ، والتى
من شأنها أن تجعلهم يخلصونه بالعبادة والاستعانة ، بعد كل ذلك صرح
بأنه - مع كل هذه النعم - أضحى الكثيرون من خلقه يشركون معه آلهة
أخرى ، ويزعمون أن له بدين وبنات ..

ولقد رد القرآن على هؤلاء الجاحدين بالحجة البالغة التى تدفع باطلهم
وتخرس السفتهم ، وتنزه الخالق - عز وجل - عما قالوه واقترروه بغير
علم فقال :

• وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير
علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون • بديع السموات والأرض أنى
يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء
عليم . ذاكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه
وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار
وهو اللطيف الخبير ، .

ثم تتابع فى الربع السادس منها حديثها عن المسكابين الذين لم يكتفوا
بالقرآن معجزة للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، بل طلبوا منه - على سبيل -

التعنت - معجرات أخرى حسية ، فتحكى السورة أقوالهم وترد عليهم بما يفضح أكاذيبهم ، لأنهم لعنادهم وجحودهم لو أن الله - تعالى - أجاب لهم مطالبهم ما كانوا ليؤمنوا ، إذ هم لا تنقصهم الآيات الدالة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما الذي ينقصهم هو القلب المنفتح للحق ، والنفس المتقبلة للهداية .

قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونفرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كفوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله وليكن أكثرهم يجهلون . »

ثم تستطرد السورة الكريمة فتحكى بعض ردائل المشركين في ما كلمهم وذبايحهم ، وتنتهى المؤمنين عن الأكل من الفواحش التى لم يذكر اسم الله عليها إلا في حالة الاضطرار ، ثم تغرس فيهم خلق الحياء من الله فتأمرهم أن يتركوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم تبين لهم أن المشركين سيثيرون الشكوك والشبهات حول عقيدتهم فعليهم أن يهملوا مجادلاتهم وأن يتركوهم في طغيانهم يعمهون :

قال تعالى : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، وإن كثيراً لبضارن بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالهتدين . وذروا ظاهر الإثم

هو باطنه ، إن الذين يكسبون الإلثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولاتأكلوا
مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه أفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم
ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون .

ثم تضرب السورة الأمثال للكفر والإيمان ، فتشبه الكفر بالموت وتشبه
الإيمان بالحياة ، فكما أنه لا يتساوى الميت مع الحي ، فكذلك لا يتساوى
الضال الذي هو كالميت مع المؤمن الذي يحيا حياة طيبة وله نور يمشى به في
الناس ، ثم تبين أنه من دأب الجاحدين والخابذين محاربة الحق ، وأنه ليس
بغريب أن يحارب زعماء قريش الدعوة الإسلامية لأنهم يحسدون صاحبها
على ما آتاه الله من فضله ، ويطلبون أن تكون النبوة فيهم مع أن النبوة هبة
من الله يهبها لمن يشاء من عباده ، وأنهم بسبب هذا الحقد سيصيبهم عذاب
شديد من الله — عز وجل — .

قال تعالى : هـ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به
في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين
للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قوة أكبر
مجرميها ليذكروا فيها ، وما يذكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون
وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نفؤي مثل ما أوتي رسل
الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار
عند الله وعذاب شديد بما كانوا يذكرون . فمن برد الله أن يهديه
يشرح صدره للإسلام ومن برد أن يضله يجعل صدره ضيقاً
حرجاً كأنما يصد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجم على الذين

لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم
يفكرون . .

فإذا ما وصلنا إلى الربع الثامن من سورة الأنعام ، رأيناها تعرض مشهداً
من مشاهد يوم القيامة ، تعرض مشهد الحشر للجن والإنس وهم يتناقشون
ويتلاومون ويتحسرون ، ولكن ذلك ان يفيدهم لأنهم قد وسوس بعضهم
إلى بعض ذخارف من الآباطيل والآكاذيب . تعرض مشهدهم عندما يقفون
أمام ربهم فيسألهم : ألم تكلم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم
لقاء يومكم هذا ، ؟ وهنا لا يعلمون ، إلا الشهادة على أنفسهم بأن الرسل
الأكرام قد بشرهم وأنذروهم ، ولكن الشيطان هو الذي استحوذ عليهم
فجعلهم يستحبون العمى على الهدى .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور هذا المشهد بأسلوبه
الرائع فيقول :

« ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من
الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض
وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها
إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم . وكذلك نولي بعض الظالمين
بعضاً بما كانوا يكسبون . يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم
يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا
على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا
كافرين . .

ومع أن السورة الكريمة قد تعرضت - فيما سبق منها - بصورة موجزة تلاماً باطيل التي كان يتبعها المشركون في ذبائحهم وما آكلهم ومشاربهم ، إلا أنها هنا - في أواخر الربع الثامن وفي معظم الربع التاسع - قد أفاضت القول في استعراض رذائل المشركين التي تتعلق بنذورهم ومطاعمهم وذبائحهم وما أحلوه وما حرموه ، وذلك لأن السورة الكريمة تريد أن تنقي العقيدة الإسلامية من كل ما كان سائداً في الجاهلية من معتقدها باطلة ، وأفعال قبيحة ، وتقاليد وثنية موروثة ، وعادات جاهلية مرذولة ، فتحدثت عن أوهامهم التي منها أنهم جعلوا لله مما خلق نصيباً وجعلوا الآلهتهم نصيباً آخر لمهم بعد ذلك لا يعدلون في قسمتهم مع بطلانها ، بل قارة يأخذون من نصيب الله الذي هو لأفقراء فيجعلونه أسدنة أصنامهم وخدامها . ومنها أن بعضهم كانوا يقتلون أولادهم سفها بغير علم لأن الشياطين زينت لهم ذلك . ومنها أنهم شرعوا لأنفسهم أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان . .

ولقد حكى القرآن بعض هذه الرذائل التي كانت متفشية فيهم ، ووبخهم عليها ونهى المؤمنين عن سلوك مساكنهم فقال :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، .

ثم قال : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله أفراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ، .

ثم انتقلت السورة - إلى الحديث عن

الطييات التي أحلها الله لعباده في ما كرمهم ومشرهم ، فذكرت ألوانا من النعم
التي خلقها الله وأنشأها لعباده ، فقد أنشأ - سبحانه - الجنات المعروشات
أي المرفوعات على إما يحملها كالأعقاب وما يشبهها ، وأنشأ الجنات غير
المعروشات كالمر فقال وغيره ، كما أنشأ الزروع والأشجار المختلفة الأنواع
والثمار . . . وذلك كله لكي يقبل الناس على عبادة خالقهم ، ويشكروه
على نعمه التي لا تحصى .

قال تعالى : وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات
والنخل والزروع مختلفاً أكله واللّيتون والرمان منشأها وغير منشأه ،
كلوا من ثمره إذا أمروا أنوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب
المسرفين . .

ثم أخذت السورة تناقش المشركين فيما أحلوه وحرموه من الأنعام
بأسلوب منطقي رصين ، يقيم عليهم الحجة ، ويكشف عن سخافة تفكيرهم
وتفاهة عقولهم ، واتباعهم خطوات الشيطان في تحريم بعضها وتحليل البعض
الآخر ، فهذه الأنعام ثمانية أزواج ، من الضأن اثنان ، ومن المعز اثنان ،
ومن الإبل اثنان ، ومن البقر اثنان ، فلماذا حرم المشركون على أنفسهم
بعضها دون بعض ؟ إن كان التحريم للأنثى فعليهم أن يحرموا جميع الإناث ،
وإن كان النوعين فعليهم أن يحرموها ، إذ أفتحريمهم لبعض الذكور دون
بعض يدل على ضلال في التفكير ، وجهالة في الأحكام ، واقتراء على الله
بغير علم .

استمع إلى القرآن وهو يحكي أوهاهم ثم يرد عليها بما يدعها فيقول :

ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل آلله كرين

حرم أم الاثنين أما اشتملت عليه أرحام الاثنين ، فبشوني بعلم

إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين قل الذكركين
حرم أم الاثنين أما اشتملت عليه أرحام الاثنين أم كنتم شهداء
إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس . غير علم ،
إن الله لا يهدي القوم الظالمين ،

ثم صرحت السورة الكريمة أن ما حرمه الله على اليهود من المطاعم كان
بسبب بغيتهم ، وقساوة قلوبهم ، وأنهم وأمثالهم - الذين يتصلون من تبعة
الضلال ويحيلونها على مشيئة الله - كاذبون فيما يزعمون ، وأنهم يعرفون بما
لا يعرفون ، وإلا فآين دليلهم على هذا التصل ؟ وأين حجبتهم على أن الله
قد حرم هذا وأحل هذا ؟

لقد حكى القرآن مزاعمهم ثم فندها بالبرادين الدامغة ، والحجة
البالغة فقال :

« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم
حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط
بعظم ، ذلك جزيناكم ببغيتهم ولنا لصادقون . فإن كذبوك فقل
ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول
الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ،
كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم
من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون .
قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين
يشهدون أن الله

أفهماء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم برهم
يعدلون . .

فإذا ما انتهينا إلى الربع العاشر - والآخر - من سورة الأنعام رأيناها
تخاطب أولئك الذين أحلوا لأنفسهم ما حرمه الله وحرّموا عليها ما لم يأذن به
فتقول لهم ولغيرهم : تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ، ثم تسوق عشر
وصايا رسمت للإنسان طريق علاقته بربه ، ووضعت الأساس المسكين الذي
يبني عليه صرح الأسرة الفاضلة التي منها تتكون الأمة القوية الناجحة في
الحياة ، وأوصدت منافذ الشرور والآثام التي تصيب المسلم في نفسه أو ماله
أو عرضه ثم ذكرت أهم المبادئ التي تسمو بالمحافظة عليها الحياة الاجتماعية
الكريمة ، وختمت هذه الوصايا ببيان أنها هي الصراط المستقيم الذي يجب
على كل إنسان أن يتبع هداه حتى لا يزل أو يضل .

استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه الوصايا الحكيمة فيقول :

« قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً
وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم
وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا
الأنفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .
ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا
بالكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قاتلتم
فاعدلو ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم
تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فانبهوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم
عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . »

وبعد أن ساقَت السورة الكريمة هذه الوصايا الحكيمة اتجهت في ختامها إلى دعوة الناس للعمل بكتاب الله الذي أنزله ليكون هداية ورحمة لهم ، وأُنذرت الذين يعرضون عن هديه الحكيم بسوء العذاب ، وحثت كل قائل على المبادرة إلى الإيمان بالله من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الإيمان ، ولا تنفع فيه الأعمال ، لأنه يوم جزاء وحساب ، وأمرت في ختامها كل مسلم بأن يخلص عمله لله ، وأن يحمده على هدايته إياه إلى طريق الحق والرشاد ، وبينت منزلة الإنسان في هذا الوجود وحضته على أن يكون بمثوله وعمله أهلاً للمثله والمنزلة السامية حتى ينال رضا الله .

وقد ساقَت السورة في ختامها كل هذه المعاني بأسلوب ساحر يخطب إلى الألباب ، ويرقق القلوب ، ويصفى النفوس ، ويشيع في وجدان المؤمنين الأانس والبهيمة والخوف والرجاء .

قال تعالى : . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون . قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ، .

هذه هي أهم المقاصد التي اشتملت عليها سورة الأنعام ، ومنها نستخلص أن الأغراض الرئيسية التي استهدفتها السورة الكريمة تتركز فيما يلي :

١ - إقامة الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، وأنه سبحانه - هو المستحق لعبادة والخضوع ، وأن شريعت وحدانيته التي يجب أن تكون مرجعنا في كل ما يتعلق بعبادتنا ومعاملاتنا وسائر شئوننا .

٢ - إقامة الأدلة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم - في دعوته ، مع بيان وظيفته وتسليته عما يلاقيه من أعدائه .

٣ - إقامة الأدلة على أن يوم القيامة حق ، وعلى أن الناس سيحاسبون فيه على أعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٤ - تفنيد الشبهات التي أثارها المشركون حول هذه الأمور الثلاثة السابقة بأسلوب يقنع العقول ، ويهدى القلوب ، ويرضى العواطف ، ويحمل العقلاء على المسارعة إلى الدخول في هذا الدين عن طواعية واختيار .

٥ - من فضائل سورة الأنعام ومزاياها :

تكررت للروايات في بيان فضائل سورة الأنعام وأنها قد نزلت مشيئة بالملأ العظيم من الملائكة ، كما تكلم العلماء عن المميزات التي تميزت بها هذه السورة في عرضها للحقائق التي اشتملت عليها .

وفي ذلك يقول الإمام الرازي : هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة ، أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، والثاني : أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة ، والسبب في ذلك أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبتدعين والملحدين ، (١) .

ويقول الإمام القرطبي : (هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة ،

لأنها في معنى واحد من الحججة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين (١) (٠٠) .

ويقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمد شلتوت :

ويجدر بنا أن نلفت النظر إلى أن سورة الانعام قد عرضت ما عرضت في أسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بتملك الكثرة في غيرها من السورة :

أما الأسلوب الأول فهو أسلوب التقرير ، فهي تورد الأدلة المتعلقة بتوحيد الله وتفرد به الملك والتصرف ، والقدرة والقهر ، في صورة الشأن المسلم الذي لا يقبل الإنكار أو الجدل ، وتضع لذلك ضمائر الغائب عن الحس ، الحاضر في القلب ، وتجري عليه أفعاله وآثار قدرته ونعمته البارزة للعيان ، والتي لا يمارى قلب سليم في أنه مصدرها ومفيضها وصاحب الشأن فيها :
(هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ثم أنتم تموتون) .

(وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون)

(وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) .

(وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرت جنتم بالنهار) .

(وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . . . الخ)

هذا هو أحد الأسلوبين .

أما الأسلوب الثانى فهو أسلوب تلقين الحججة ، والامر بقذفها في وجه الخصم حتى تأخذ عليه سممه ، وتملك عليه قلبه ، وتحيط به من جميع جوانبه فلا يستطيع التفات منها ، ولا يجد بدا من الاستسلام لها .

ففي حجج النوحيد والقدرة يقول : (قل لمن مافى السموات والارض ؟ قل لله ، كتب على نفسه للرحمة) .

(قل أغير الله أنخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) .

(قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) .

(قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء) .

وفي حجج الوحى وبيان مهمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأن الرسالة لاتنأى البشرية وفي إيمان الرسول بدعوة واهتماده فيها على الله ، وعدم اكفرائه بهم ، أر انتظار الأجر منهم يقول .

(قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم) .

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ...) .

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

وفي وعيدهم على التكذيب يقول : (قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ...) .

هذان الأسلوبان : (هر كذا) و (قل كذا) قد تناوبا معظم ماتضمنته هذه السورة من الحجج وقضايا التبليغ ، وهما وإن جاءا فى غيرها من سور القرآن إلا أنهما وخاصة الأسلوب الثانى وهو أسلوب (قل كذا) لم يوجد فى غيرها بهذه الكثرة التى نراها فى هذه السورة ، وهما بعد ذلك : أسلوبان من أساليب الحجج القوية التى تدل على قوة المعارضين وإسرافهم فى المعارضة ، وأنهم بحالة تستوجب تلك الشدة التى تستخرج الحق من نفوسهم . .

ويدل الأسلوبان من جهة أخرى على أنهما صدرأ فى موقف واحد ، وفى مقصد واحد ، الخصم واحد يبلغ من الشدة والغتو مبلغاً استدعى من الله .

القاهر تزويد المهاجم بعدة قوية تنضافر أساحتها في حملة شديدة بقذف بها في معسكر الأعداء فتزلزل عمدته ، وتمد من بنيانه فيخضع للتسليم بالحق الذي يدعى إليه . .

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ، ذات شأن كبير في تركيز الدعوة الإسلامية ، تقرر حقائقها ، وتفنن شبه المعارضين لها ، واقتضت لذلك الحكمة الإلهية أن تنزل — مع طولها وتذرع آياتها — جملة واحدة وأن تكون ذات امتياز خاص لا يعرف لسواها كما قرره جمهور العلماء (١).

وبعد : فهذا تمهيد بين يدي تفسير سورة الأنعام ، تعرضنا خلاله لبيان مكان نزولها ، ولبيان الفترة الزمنية التي نزلت فيها ، والطبيعة هذه الفترة ، ولسبب تسميتها بهذا الاسم ، وللمناسبتها للسور التي قبلها ، والأهداف الأجمالية التي اشتملت عليها ، ولجانب من فضائلها ومزاياها . . .

ولعلنا بذلك — أيها القارئ الكريم — نكون قد قدمنا لك فكرة مجملة عن هذه السورة الكريمة تعينك على تفهم أسرارها ، ومقاصدها ، وتوجيهاتها ، عند تفسيرنا لآياتها بشئ من التفصيل والتحليل . والله نسأل أن يوفقنا جميعاً لما يحب ، ويرضاه وأن يحجبنا فتنة القول والعمل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ
اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ
مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

افتتحت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين ، وهي أن
المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل هو رب العالمين .
والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها .
وأل في الحمد ، للاستغراق ، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد والكافة .
ألوان الثناء هو الله تعالى ، وإنما كان الحمد مقصورا في الحقيقة على الله ، لأن
كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق
لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء لحسانهم ، فهو في الحقيقة
حمد لله ، لأنه — سبحانه — هو الذي وفقهم لذلك ، وأطاعهم له .
وقد بين بعض المفسرين الحكمة في ابتداء السورة الكريمة بقوله تعالى :
« الحمد لله » ، كما بين الفرق بين المدح والحمد والشكر فقال : « أعلم أن المدح أعم
من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح
يحصل للعاقل وغير العاقل ، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع
فضائله فكذلك قد يمدح المؤلف الحسن شكله ، وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا

للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإناعام والإحسان ثبت أن المدح أهم من الحمد ، وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإناعام سواء كان ذلك الإناعام أصلاً إليك أو إلى غيرك وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إناعام وصل إليك فثبت بما ذكرنا أن المدح أهم من الحمد وهو أعم من الشكر . إذا عرفت هذا فنعقول : إنما لم يقل المدح لله لأننا بيننا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره . أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، فكان قوله الحمد لله تصريحاً بأن المؤثر في وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشيئة وإنما لم يقل الشكر لله ، لأننا بيننا أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إناعام صدر منه ووصل إليك ، وهذا يشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة ، فحينئذ يكون المطلوب الأصلي له وحصول النعمة إليه وهذه درجة حقيرة فأما إذا قال الحمد لله فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقاً للحمد لا لخصوص أنه - تعالى أوصل النعمة إليه ، فيكون الإخلاص أكمل ، واستغراق القلب في مشاهدة نور الحق أتم ، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت ، (١) .

هذا وفي القرآن الكريم خمس سور مكية اشتركت في الافتتاح بتقرير أن الحمد لله وحده ، ولكن كان لكل سورة منهج خاص في بيان أسباب ذلك الحمد .

أما السورة الأولى فهي سورة الفاتحة التي تقول في مطلعها : الحمد لله رب العالمين . .

أى : أن الحمد لله وحده ، الذى ربى هذا العالم تربية خلقية أساسها الإيجاد والتصوير ، ورباه تربية عقلية أساسها منح قوى التفكير والإدراك ، كما أنه رباه تربية تشريعية قوامها الأحكام التى أوحى بها إلى رسله فربط استحقاق

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣ للشيخ الرانى المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٢ هـ

محمد لله برهنته للعالمين ، والربوبية المطلقة تنظم التربية الخلقية جسمية عقلية ، عن طريق الإيجاد والتصوير ، كما تنظم التربية التشريعية التي أساسها الأحكام التي أوحاها الله إلى أنبيائه ورسله .

وتجىء بعد سورة الفاتحة في الترتيب المصحفي سورة الأنعام فأثبتت أيضاً مستحقاق الحمد لله وحده ، لأنه « خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور » ، فهي تتم بالحديث عن نوع خاص من التربية ، وهو التربية الخلقية التي أساسها الخلق والإيجاد والتسوية والتصوير الحقيقي .

ثم تجىء بعدهما سورة الكهف ، فتثبت أن الحمد لله ، لأنه « أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً » ، فتراها تتم بإبراز التربية التشريعية التي نب الروح ، وتهدى الفكر .

والسورة الرابعة التي افتتحت بإثبات أن « الحمد لله » هي سورة سبأ ، لأنه سبحانه - « له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير » ، ثم تراها بعد ذلك زاخرة بالحديث عن أنواع التربية المطلقة التي تتجلى في أرساء مظاهر علم الله الشامل ، وملكوته المطلق ، وتدبيره المحكم لآفته النافذة التي تجعله أهلاً لكل حمد وثناء .

أما السورة الخامسة فهي سورة فاطر ، فقد أثبتت في مطلعها أن الحمد لله - « فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً ، أولى أجنته مثنى ثلاث ورباع » ، يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ، والذي يقرأ سورة الكريمة بتدبيرها تهتم بإبراز إثبات أن الحمد لله وحده عن يقين الجمع بين التربيين الخلقية والتشريعية فهي تذكر خالق السموات والأرض والجبال وتصريف الليل والنهار والشمس والقمر . . كما تذكر إله الناس في الانتفاع بوحى الله ، ويهدي أنبيائه ورسله .

وهكذا نجد أن السور الخمس قد اشتركت في أنها افتتحت بحمده ، الحمد لله .

وفي قصر الحمد والثناء عليه وحده . إلا أن كل واحدة منها قد سلكت .
منها خاصة في تقرير هذه الحقيقة ، وفي إقامة الأدلة على صدقها .

وقد أحسن القرطبي عندما قال : « فإن قيل : قد افتتح غيرها - أي سورة
الأنعام - بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغنى عن سائرهم ؟ فيقال : لأن
لكل واحدة منه معنى في موضعه ، لا يؤدي عن غيره من أجل عقده بالنعيم
المختلفة وأيضاً فلما فيه من الحجج في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون ، (١)
ثم بين القرآن بعد ذلك الأسباب التي نحمل العقلاء على أن يجعلوا
حدهم كله لله - تعالى - فقال :

« الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، »

والمعنى : الحمد كله لله الذي أنشأ بقدرته هذه العوالم العاوية والسفلية .
وأوجد ما فيها من مخلوقات ناطقة وصامتة ، وظاهرة وخافية وأحدث ما يتعاقب
عليها من تحولات وتقلبات ونور وظلمات . فالجثة السكرية قد اشتملت على
صفتين من صفات الله - تعالى - تتبدان وجوب استحقاق الحمد الكامل لله
- عز وجل - وهما خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور .

وعبر - سبحانه - في جانب السموات والأرض بخلق ، وفي جانب
الظلمات والنور بجعل ، لأن الخلق معناه هنا الإنشاء والإيجاد الابتدائي من
العدم ، أما الجعل فيتضمن معنى تكوين شيء من شيء أو من أشياء فالظلمات
تتولد من اختفاء الشمس عن الأرض ، والنور يتكون من بزوع الشمس
على الأرض ، وهذه التقلبات الكونية هي بتقدير الله العزيز العليم .
قال صاحب الكشف : « والفرق بين الخلق والجعل ، أن الخلق فيه معنى .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٨٤ طبعة دار الكاتب العربي سنة ١٩٦٧ م .

التقدير ، وفي الجمل معنى التضمين ، كإشياء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئاً ، أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك « وجعل منها زوجها » وجعل « الظلمات والنور » ، لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، النور من النار ، (١) .

وقال الفخر الرازي : « وإنما حسن لفظ الجمل هنا ، لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كل واحد منهما كأنما تولد من الآخر » ، (٢) .

وقال أبو السعود : « والجمل هنا هو الإنشاء والإبداع كالخلق ، خلا أن ذلك - أي الخلق - مختص بالإنشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما في الآية السكرية والتشريعي أيضاً كما في قوله - تعالى - (ما جعل الله من بحيرة . .) (٣) » .

وقد وردت نصوص تصرح بأن الأرض سبع طبقات كالسموات . إلا أنها في كثير من المواضع القرآنية تفرد - أي الأرض - وتجمع السماء كما هنا ، أعظم السماء . وإحاطتها بالأرض ، ولأنه لم يعرف أن الله - تعالى - قد عصى فيها ، ولأن طبقاتها متميزة ينفصل بعضها عن بعض ، بخلاف طبقات الأرض فإنها متصلة .

والمراد بالظلمات هنا الظلمات الحسية ، كما أن المراد بالنور النور الحسي لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولأنهما إذا جملا مقرونين بذكر السموات والأرض فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان السكيفيتان المحسوستان ، ولأن القرآن يستشهد

(١) الكشف ج ٢ ص ٣ للزمخشري . طبعة دار الكاظم العربي بيروت .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٥ .

(٣) تفسير أبو السعود ج ٢ ص ٧٧ طبعة صبيح ، بيروت .

عليهم بمقتضى ما يعلمونه من تفرد الخلق وهم يعلمون تفرد سبجانه .
بخلق هذه الأشياء .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالظلمات ، ظلمات الشرك والكفر
والنفاق ، وأن المراد بالنور ، نور الإيمان والإسلام واليقين ، وعلى هذا
الرأى يكون المراد بهما معنويا لا حسيا .

قال صاحب المنار : قال الواحدى : والأولى حمل اللفظين عليهما ،
واستشكلة الرازى لأنه مبنى على القول بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز ،
والمختار عندنا جوازه ، وجواز استعمال المشترك فى معنياه أو معانيه إذا
احتمل المقام ذلك بلا التباس كما هنا ، والتعبير بالجمع دون الخلق يلائم
هذا فإن الجمع يشمل الخلق والأمر — أى الشرع — كما تقدم ، فيفسر
بجمع كل نور بما يليق به (١) .

وعبر القرآن فى جانب الظلمات بصيغة الجمع ، وفى جانب النور بالإفراد
لأن النور واحد ومن نتائج الكشف والظهور ، وتعدد أسبابه لا يغير
حقيقته . أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك
ظلمة السجون ، وهناك ظلمة القبور ، وهناك ظلمة الغمام ، وهى تغير حقائقها
بتغير أسبابها . ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوى وهى أن ظلمة الإدراك تتعدد
حقائقها ، فهناك ظلمة الانحراف ، وظلمة الأهواء ، والشهوات وطمس
القلوب .

(١) تفسير المنار ج ٧ ص ٢٩٥ للشيخ رشيد رضا . طبعة دار المنار

سنة ١٣٦٧ هجرية .

والنور واحد (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فالنور فى هذا واحد (١) .

ثم بين - سبحانه - الموقف الجحودى الذى وقفه المشركون من قضية الألوهية فقال (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

العدل : المراد به هنا التسوية ، فقال : عدل الشئ بأشئ . إذا سواه به والمعنى : أن الله - تعالى - هو الذى خلق السموات والأرض ، وهو الذى جعل الظلمات والنور ، فهو لذلك من حقه على خلقه أن يعبدوه وحده وأن يخصوه بالحمد والثناء . ولكن المشركين مع كل هذه الدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته يسأوى به غيره فى العبادة ، ويشركون معه آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر .

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة (للحمد لله) على معنى أن الله - تعالى - حقيق بالحمد على ما خلق من نعم ، وأوجد من كائنات ثم الذين كفروا يجحدون كل ذلك فيشركون معه آلهة أخرى .

ويحتمل أن تكون معطوفة على جملة : خلق السموات والأرض ، على معنى أن الله - تعالى - قد خلق الأشياء العظيمة التى لا يقدر عليها أحد سواه ، ثم إن المشركين بعد ذلك يعدلون به جماداً لا يقدر على شئ أصلاً .

وجاء العطف : بـ ثم ، لإفادة استبعاد واستقباح ما فعله الكافرون . فانهم ورغم البراهين الواضحة والدالة على وحدانية الله وقدرته ، قد نزلوا بمداركهم إلى الحضيض فسووا فى العبادة بين الخالق والمخلوق .

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ٥ السنة ٢٣ : تفسير سورة الأنعام لفضية الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة :

قال القرطبي : قال ابن عطية : « فثم دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلق السموات والأرض قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ثم بعد ذلك كله عدلوا برهم ، فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنيت إليك ثم تشتمنى ؟ ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بتم ، (١) »

ثم ساق القرآن في الآية الثانية دليلاً آخر على أن الله — تعالى — هو المستحق للمعبادة والحمد ، وعلى أن يوم القيامة حق فتحدث عن أصل خلق الإنسان ، بعد أن تحدث في الآية الأولى عن خلق السموات والأرض فقال :

« هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلاً ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمقون . . »

أى : هو الذى أنشأكم من طين ، ثم تعهدكم برعايته في مراحل خلقكم بعد ذلك ، كما قال — تعالى — : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . »

وفي ذكر خلق الإنسان من طين ، دليل على قدرة الله وعظمته ، لأنه — سبحانه — هو الذى حول هذا الطين إلى بشر سوى مفكر ، يختار الخير فيهدى ويختار الشر فيردى ، كما أن فيه تذكيراً له بأصله حتى لا يستكبر أو يطفئ ، وحتى يوقن بأن من خلقه من هذا الأصل قادر على أن يعيده إليه . . .

قال تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .
 قال أبو السعود : (وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة
 البعث ، مع أن ما ذكر من خلق السموات والأرض من أو ضحها وأظهرها .
 لما أن محل النزاع بعثهم ، فدلاله بدء خلقهم على ذلك أظهر ، وهم يشكون
 أنفسهم أهرف ، والتعاضد عن الحجة البينة أقبح) (١) .

وقال الجمل : (وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين لا إلى آدم - عليه
 السلام - وهو المخلوق منه حقيقة . لتوضيح منهاج القياس ، والمبالغة في
 إزاحة الاشتباه والالتباس ، مع ما فيه من تحقيق الحق ، والتنبيه على حكمة
 خفية هي أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه - عليه السلام -
 منه . حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه ، بل كانت أمودجا
 منظوبا على فطرة سائر آحاد البشر انطواء إجماليا ، فكان خلقه - عليه
 السلام - من الطين خلقا لكل أحد من فروعه) (٢) .

ثم قال - تعالى - « ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى - عنده » . الأجل
 في اللغة عبارة عن الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، وأجل الإنسان هو الوقت
 المضروب لانتهاء عمره . والمعنى : أنه سبحانه - قدر لعبادة أجلاين : أجلا
 تفتى عنده حياتهم بعد أن عاشوا زمنا معينا ، وأجلا آخر يمتد من وقت موتهم
 إلى أن يبعثهم الله من قبورهم عند انتهاء عمر الدنيا ليحاسبهم على أعمالهم ،
 هذا هو الرأي الأول في معنى الاجلاين .

وقيل : المراد من الأجل الأول آجال الماضين من الخلق ، ومن الثاني

(١) تفسير أبي السعود - ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلاين ج ٢ ص ٤ .

أجل الباقي منهم . وقيل المراد من الأول النوم ومن الثاني الموت .
وقيل : المراد من الأول ما مضى من عمر الإنسان ومن الثاني ما بقى منه .
والذى نرجحه هو الرأى الأول لأسباب منها .

١ — أن من تتبع ذكر الأجل المسمى فى القرآن فى سياق الكلام عن
الناس يراه قد ورد فى عمر الإنسان الذى ينتهى بالموت ، ومن ذلك قوله تعالى
« ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم
إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (١) .
وقوله - تعالى - .. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى
إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، (٢) .

٢ — أن الآية الكريمة مسوقة لإثبات وحدانية الله ولتقرير أن البعث
حق ، فلمناسب أن يكون المراد بالأجل الثانى هو انتهاء عمر الدنيا وبعث
الناس من قبورهم .

ولذا قال أبو السعود فى تضعيفه للأراء المخالفة للرأى الأول : « ومن
ههنا تبين أن ما قيل من أن الأجل الأول هو النوم والثانى هو الموت ،
أو أن الأول أجل الماضين والثانى أجل الباقيين ، أو أن الأول مقدار ما مضى
من عمر كل احد والثانى مقدار ما بقى منه ؛ بما لا وجه له أصلا ، لما رايت
من أن مساق النظم الكريم استبعاد امتهم فى البعث الذى عبر عن وقته
بالأجل المسمى . فحيث ارى به احد ما ذكر من الأمور الثلاثة فى أى شىء
تمترون (٣) ٤٤ » .

(١) سورة النحل : الآية ١١ .

(٢) سورة نوح الآية ٤ .

(٣) تفسير أبى

٣ - أن الرأي الأول هو الرأي المأثور عن بعض الصحابة ، وبه قال جمهور المفسرين ، وقد عزاه ابن كثير في تفسيره إلى عشرة من التابعين (١) . وعطفت الجملة الكريمة بـثم ، للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان المختلفة ، فهو في أصله من سلالة من طين ، ثم يصيره الله - تعالى - نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فمظاما ، ثم يكونه - سبحانه - وتعالى خلقا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين .

ووصف الأجل الثاني بأنه (مسمى عنده) ، لأن وقت قيام الساعة من الأمور التي لا يعلمها إلا الله ، قال - تعالى - : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يحليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة » يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولاكن أكثر الناس لا يعلمون ، (٢) .

وجاء قوله تعالى « وأجل مسمى » مقديما على (عنده) لأنه مبتداء ، والذي سوغ الابتداء به مع كونه نكرة تخصصه بالوصف فقارب المعرفة لذلك ، فهو كقوله - تعالى - « ولعبد مؤمن خير من مشرك » .

ومعنى (عنده) أي : في علمه الذي لا يلمه أحد سواه ، فهي عنديّة - تشريف وخصوصية .

ثم ختمت الآية الكريمة بتوبيخ الشاكين في البعث والحساب فقال - تعالى - :

« ثم أنتم تمزنون ، . الامتراء : هو التردد الذي ينتهي إلى محاجة ومجادلة وقد ينتهي إلى شك ثم إلى إنكار . مأخوذ من مرى الضرع إذا مسحه للدر ووجه المناسبة في استعماله في الشك ، أن الشك سبب لا استخراج العلم الذي هو كاللبن الخالص من بين فرث ودم .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣ طبعة عيسى الحلبي .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٨ .

والمعنى : ثم إنكم بعد كل هذه الأدلة الدالة على وحدانية الله ، وعلى أن يوم القيامة حق ، تشكون في ذلك ، وتجادلون المؤمنين فيما تشكون فيه ، بخير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وجاء العطف بـ ثم لبيان التفاوت الكبير بين الحقائق الثابتة الناصحة ، وبين ما سألته لهم أنفسهم من المجادلة فيها .

قال الألوسي : والمراد استبعاد امترائهم في وقوع البعث وتحقيقه في قده جمع مشاهدتهم في أنفسهم من الشواهد ما يقع مادة ذلك بالسكينة فإن من قدر على إقاضة الحياة على مادة غير مستعدة لشيء من ذلك ، كان أوضح قدراً على إقامته على مادة قد استعدت له وقارنته مدة (١) .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة في الآيتين السابقتين على أنه هو المستحق للعبادة والحمد ، وعلى أن يوم القيامة حق ، جاءت الآية الثالثة لتصفه - سبحانه - بأنه هو صاحب السلطان المطلق في هذا الكون فقال تعالى : : " وهو الله في السموات وفي الأرض ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون " .

أى : أنه - سبحانه - هو المعبود بحق في السموات والأرض ، العليم بكل شيء في هذا الوجود ، الخبير بكل ما يكسبه الإنسان من خير أو شرف يجازيه عليه بما يستحقه .

والضمير - هو ، الذي صدرت به الآية يعود إلى الله - تعالى - الذي نعمت ذاته في الآيتين السابقتين بأنه هو صاحب الحمد المطلق ، وخالق السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، ومنشئ الإنسان من طين ، وأنه لذلك يكون مختصاً بالعبادة والخضوع .

وقوله - تعالى - : " وهو الله ، جملة من مبتدأ وخبر ، معطوفه على ما قبلها " سبقت لبيان شمول ألوهيته لجميع المخلوقات .

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ج ٧ ص ٨٨ طبعة منير الدمشقي .

قال أبو السعود : وقوله في السموات وفي الأرض ، متعلق بالمعنى الوصفى الذى ينبنى . هـ الاسم الجميل إما باعتبار أصل اشتقاقه وكونه علما للمعبود بالحق ، كأنه قيل : وهو المعبود فيهما . وإما باعتبار أنه اسم اشهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال ، فلو حظ معه منها ما يقتضيه المقام من الملائكية حسما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة ، فعلق به الظرف من تلك الحيشية فصار كأنه قيل : وهو المالك أو المتصرف المدير فيهما ، كما في قوله تعالى - : وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله (١) .

وجملة يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، تقرير لمعنى الجملة الأولى لأن الذى استوى فى عامه السر والعلن هو الله وحده . ويجوز أن تكون كلاما مبتدأ بمعنى : هو يعلم سركم وعهركم ، أو خبرا ثانيا . ثم صور - سبحانه - طبيعة الجاحدين الذين هم - لا نظامس بصائرهم واصرارهم على العناد - غدوا لا يجدى معهم دايلا ولا تبفع معهم حجة ، وساق لهم أخبار من سبقوهم . فقال - تعالى - :

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣﴾

والمعنى الإجمالى الآية الأولى : أن هؤلاء الجاحدين لرسالات الله ،

لأنهم معجزة من المعجزات الدالة على صدقك - يا محمد - فيما نبأه عن ربك إلا تلقوها بالإعراض ، واستقبلوها بالنبذ والاستخفاف .

فآية الكريمة ، كلام مستأنف يسبق لبيان كفرهم بآيات الله - تعالى - وإعراضهم عنها بالكيفية بعد بيان كفرهم بالله - تعالى - وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد . وامتناعهم في البيع ، وإعراضهم عن أدلة (١) .

و من ، الأولى لاستغراق الجنس الذي يقع في حيز النفي ، كقولك : ما أنا من أحد ، والثانية للتبويض ، أى : ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي توجب النظر والفأل والاعتبار ، إلا أهملوه وأعرضوا عنه . لقسوة قلوبهم وعدم تدبرهم للعواقب .

وإضافة الآيات إلى اسم الرب - عز وجل - تدل على تفخيم شأنها ، وعلى أن تكذيبهم لها إنما هو تكذيب لما عرفوا مصدره ، كما يدل على شدة عنادهم وإيغالهم في الكفر والجحود .

والآية الكريمة بأسلوبها المتضمن الحصر ، وباشتغالها على كان وخبرها المفيد للدوام ، والاستمرار ، تفيد أن الإعراض عن الحق دأبهم ، وأنهم ليسوا على استعداد لتقبل الحق مهما اتضحت معالمه ، وأسفرت حججه .

ثم بين - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بالإعراض عن الحق ، بل تجاوزوا ذلك إلى التمسك بدعائه ، والتطاول عليهم ، وأنهم نتيجة لذلك المسالك الأثيم ستكون عاقبتهم خسرًا فقال - تعالى - : « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، » .

فآية الكريمة كشفت بأسلوب مؤكد عن جانب من عتوهم وسفهم وسوء أدبهم ، بعد أن كشفت سابقتها عن عنادهم ونأيهم عن الحق . وقد بين الفخر الرازي مراحل تماديهم في الباطل كما صورها القرآن فقال رحمه الله :

« أعلم أنه - تعالى - رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب :
المرتبة الأولى : كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكير في البينات .
والمرتبة الثانية : كونهم مكذابين بها ، وهذه المرتبة أزيد عما قبلها ، لأن
المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبا به ، بل يكون غافلا عنه غير
معرض له ، فإذا صار مكذبا به فقد زاد على الإعراض .

والمرتبة الثالثة : كونهم مستهزئين بها ، لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ
تمكذبه إلى حد الاستهزاء ، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في
الإفكار ، فبين - سبحانه - أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب
الثلاثة على هذا الترتيب ، (١) .

والمراد بالحق الذي كذبوا به : قيل إنه القرآن ، وقيل إنه المعجزات ،
وقيل إنه الشرع الذي أتى به محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وقيل : إنه الوعد
الذي يرغبهم به تارة ، والوعيد الذي يحذرهم بسببه تارة أخرى . .

والذي نراه أن تمكذبيهم قد شمل كل ذلك ، لأنهم بعدم دخولهم في الإسلام
قد صاروا مكذبين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

والنوعير بقوله « لما جاءهم » يفيد أن الحق قد وصل إليهم ، وطرق
قلوبهم وأسماعهم ، ولكنهم عموا وصموا عنه .

والأنبياء : جمع نبي وهو ما يعظم وقعه من الأخبار ، والمراد بها في قوله
- تعالى - : « فسوف يأتيهم أنبياء ما كانوا به يستهزئون ، الأخبار عن العذاب
الذي توعدهم الله به عند إصرارهم على كفرهم ، ونظيره قوله - تعالى - :
« ولتعلن نباء بعد حين » .

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج ٤ ص ١١ للفخر الرازي ، المطبعة الشرفية

قال صاحب الكشف : « فسوف يأتيهم أنباء ، الشيء الذي كانوا به يستهزئون ، وهو القرآن ، أى أخباره وأحواله ، بمعنى : سيعلمون بأى شيء استهزؤا ، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء ، وذلك عند إرسال العذاب عليهم فى الدنيا أو فى يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته ، (١) .

ثم ساق القرآن لهم على سبيل النصيحة والإرشاد أخبار من سبقوهم فى الكفر والبطر وبين لهم سوء عاقبتهم ايعتبروا ويتعظوا فقال - تعالى - :

« ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم »

قال القرطبي : « القرن الأمة من الناس والجمع القرون . قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذى كنت فيهم وخلفت فى قرن فأت غريب

فالقرن كل عالم فى عصره ، مأخوذ من الاقتران ، أى عالم مقترن بعضهم إلى بعض ، وفى الحديث الشريف : « خير الناس قرنى - يعنى أصحابي - ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، فالقرن على هذا مدة من الزمان ، قيل : ستون عاما ، وقيل : سبعون ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة - وعليه أكثر أصحاب الحديث - أن القرن مائة سنة ، واحتجوا بأن النبى ﷺ قال لعبد الله بن بسر : « تعيش قرنا ، فعاش مائة (٢) .

والاستفهام الذى صدرت به الآية الكريمة لتوبيخ الكفار وتبكيتهم ، وإنكار ما وقع منهم من إعراض واستهزاء ، وهو داخل على فعل عفووف دل عليه سابق الكلام ولا حقه .

(١) الكشف ج ٢ ص ٦ لازمخشري طبعة دار الكتاب العربى بيروت .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٩٠ .

والتقدير : أعموا عن الحق وأعرضوا عن دلائله ، ولم يروا بتدبر وتفكر كم أهلكنا من قباهم من أقوام كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا .
وجملة « أهلكنا » ، حدث مسد مفعول رأى إن كانت بصرية ، وسدت مسد مفعولها إن كانت عليية ، و « كم » ، مفعول مقدم لأهلكنا ، و « من قباهم » ، على حذف المضاف ، أى : من قبل زمنهم ووجودهم .

قال صاحب المنار : « وكان الظاهر أن يقال : « مكناهم فى الأرض - أى القرون - ما لم نتمكنهم » ، أى الكفار المحكى عنهم المستفهم عن حالهم ، فعدل عن ذلك بالاتفات من الغيبة إلى الخطاب ، لما فى إيراد الفعلين بضميرى الغيبة من إيهام اتحاد مرجعهما ، وكون المثبت عين المنفى ، فقبل ما لم نتمكن لكم (١) .

و « ما » ، فى قوله « ما لم نتمكن لكم » ، يحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذى ، وهى حينئذ صفة لمصدر محذوف . والتقدير : مكناهم فى الأرض التمكن الذى لم نتمكن لكم والعائد محذوف : أى الذى لم نتمكنه لكم .
ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة بالجملة المنفية بعدها والعائد محذوف .
أى : مكناهم فى الأرض شيئاً لم نتمكنه لكم (٢) .

وفى تعدية الأول وهو « مكناهم » ، بنفسه والثانى وهو « نتمكن لكم » ، باللام إشارة إلى أن السابقين قد مكثوا بالفعل من وسائل العيش الرغيد ما لم يتيسر مثله لهؤلاء المنكرين لدعوة الإسلام ، وهذا أعظم فى باب القدرة على إهلاك هؤلاء الذين هم أعجز من سابقهم .

هذا ، وقد وصف الله أولئك المهلكين بسبب اجتراحهم للسينات بصفات ثلاث لم تتوفر للمشر كين المعاصرين للنبي — ﷺ — .

(١) تفسير المنار ج ٧ ص ٣٠٧ للشيخ رشيد رضا .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٧ يتصرف وتلخيص .

وصفهم - أولا - بأنهم كانوا أوسع سلطانا ، وأكثر عمرا ، وأعظم استقراراً ، كما يفيد قوله تعالى : « مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم » . . قال صاحب الكشف : « والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا قوم عاد وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام ، والسعة في الأموال ، والاستظهار بأسباب الدنيا » (١) .

وصفهم - ثانيا - بأنهم كانوا أرغد عيشا ، وأسعد حالا ، وأهنا بالآل ، يدل على ذلك قوله تعالى :

« وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، أي : أنزلنا عليهم المطر النافع بغزارة وكثرة ، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها .

وصفهم - ثالثا - بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التي يسرون مجاريها كما يشاءون ، فيبنون مساكنهم على ضفافها . ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها الجميلة ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - : « وجعلنا الأنهار تجري من تحته » ، أي : صيرنا الأنهار تجري من تحت مساكنهم .

ولكن ماذا كانت عاقبة هؤلاء المنعمين بتلك النعم الوفيرة التي لم تيسر لأهل مكة ؛ كانت عاقبتهم - كما أخبر القرآن عنهم - « فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، أي : فكفروا بنعمة الله ووجدوا فأهلكناهم بسبب ذلك ، إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم .

« والإهلاك بسبب الذنوب له مظهران : أحدهما ، أن الذنوب ذاتها تملك الآدمي ، إذ تشيع فيها الترف والغرور والفساد في الأرض ، وبذلك تنحل وتضمحل وتذهب قوتها .

والمظهر الثاني : إهلاك الله - تعالى - لها عقابا على أوزارها (٢) . .

(١) تفسير للكشاف ج ٢ ص ٦ .

(٢) تفسير سورة الأنعام لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ، مجلة

لواء الإسلام السنة ٢٢ العدد الخامس ص ٢٤٢ .

وقوله - تعالى - في ختام الآية : وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، يدل على كمال قدرة الله ، ونفاذ إرادته ، وأن إهلاكه لتلك الأمم بسبب ذنوبها ، لم ينقص من ملكه شيئاً ، لأنه - سبحانه - كلما أهلك أمة أنشأ من بعدها أخرى .

قال - تعالى - : وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (١) . ثم بين القرآن توغلاتهم في الجحود والعناد ، وانصرافهم عن الحق مهما قويت أدلته ، وساق جانباً من أقوالهم الباطلة ثم رد عليهم بما يدحضها فقال - تعالى - :

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ
فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾
وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا
يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ
مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا
كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

الكتاب في الأصل مصدر كالكتابة ، ويستعمل غالباً بمعنى المكتوب ، فيطلق على الصحيفة المكتوبة وعلى مجموعة الصحف .

والقرطاس - بكسر القاف وقد تفتح وتضم في بعض اللغات - ما يكتب فيه سواء كان من ورق أو من ورق أو من غيرهما : ولا يطلق على ما يكتب فيه قرطاس إلا إذا كان مكتوباً .

والمعنى : إن هؤلاء الجاحدين لا ينقصهم الدليل على صدقك يا محمد ، ولكن الذي ينقصهم هو التفتح للحق ، والإتيان بالهداية ، فإننا لو نزلنا عليك كتاباً من السماء في قرطاس - كما اقترحوا - فشهدوه بأعينهم وهو نازل عليك ولمسوه بأيديهم منذ وصوله إلى الأرض وبأشروهم بعد ذلك بجميع حراسهم بحيث يرتفع عنهم كل ارتياب ، ويحول كل إشكال . . . لو أننا فعلنا ذلك . . . استجابة لمقترحاتهم المعتبرة ، لقالوا بلغة العناد والجحود ما هذا الذي أبصرناه ولمسناه ، إلا سحر مبین .

فالآية الكريمة تصور مكابرتهم المنبجحة ، وعنادهم الصفيق ، وإدبارهم عن الحق مهما تكن قوة أدلته ، ونصاعة حجته .

قال الإمام الرازي د بين الله - تعالى - في هذه الآية أن هؤلاء الكفار لو أنهم شاهدوا نزول كتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد لم يؤمنوا به بل حملوه على أنه سحر . والمراد من قوله د في قرطاس ، أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة فرأوه ولمسوه وشاهدوه عياناً اطعنوا فيه وقالوا إنه سحر ، (١) .

و د لو ، في الآية الكريمة حرف امتناع ، أى : أنه - سبحانه - قد امتنع عن إجابة مقترحاتهم لأنه يعلم أن إجابتها لا ثمرة لها ، ولا فائدة من ورائها ، لأن هؤلاء الجاحدين لا ينقصهم الدليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، وإنما الذي ينقصهم هو الاستجابة للحق والاتجاه السليم لطلبه ، والاستماع لإليه بعناية وتفكير .

وعبر - سبحانه - بقوله : فليسرهم بأيديهم . . مع أن اللبس هو للفساد
جالبه غالباً - لنا كيد وزيادة التعيين ، ودفع احتمال المجاز . فالجمله الكريمة
المقصود بها تصوير فرط جحودهم ومكابرتهم ، وإعراضهم عن الحق مهما
تكن قوة الدليل وحصيلته .

وفي قوله - تعالى - لقال الذين كفروا ، إشارة إلى أن الكافرين
وحدهم هم الذين بسبب كفرهم - ينتحلون الأعذار لضلالتهم ، ويصفون
الحق الواضح بأنه سحر مبين . أما المؤمنون فإنهم يقابلون الحق
بالتصديق والأذعان .

وقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : إن هذا إلا سحر مبين ، فأكدوا
حكمهم الباطل بطريق النفي والإثبات أى : أنه مقصود على أنه سحر -
وبالإشارة إليه ، وبأنه بين واضح في كونه سحراً ، وذلك يدل على أن
تجميعهم قد بلغ النهاية ، وأن مكابرتهم قد كذبت ما شهدت بصدقه حواسهم
وإن قوما بهذه الدرجة من العناد لا تجدى فيهم معجزة ، ولا ينفع معهم دليل .
وفي معنى هذه الآية قد وردت آيات أخرى في القرآن الكريم منها قوله
- تعالى - ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتي ، وحشرنا عليهم
كل شيء قبلاً ما كفوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولا يكن أكثرهم
يعلمون ، (١) .

ومنها قوله - تعالى - ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يمرجون
لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ، (٢) .

ثم حكى القرآن بعض مقترحاتهم المنعنة ورد عليها بما يدحضها فقال :

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

(٢) سورة الحجر الآيتان ١٤ ، ١٥ .

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون
ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

أى : قال الكافرون للنبي - صلى الله عليه وسلم - هلا كان معك ملك
يا محمد لكى يشهد بصدقك ونسمع كلامه ، ونرى هيئته ، وحينئذ نؤمن بك
ونصدقك .

قال محمد بن إسحاق « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - قومه إلى الإسلام ،
وكلهم فأبغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن
كلدة ، وعبد بن يغوث وأبى بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام :
لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويروى معك ،
فهم لا يريدون ملكا لا يزونه ، وإنما يريدون ملكا يمشى معه ويشاهدونه
بأعينهم .

وأسند - سبحانه - القول إليهم مع أن القائل بعضهم ، لأنهم جميعا
متعنتون جاحدون ، وما يصدر عن بعضهم إنما هو صادر في المعنى عن جميعهم
لأن الباعث واحد ، وأولا هنا للتخصيص فلا تحتاج إلى جواب .

أى : وقال الكافرون للنبي - صلى الله عليه وسلم - هلا كان معك ملك
يا محمد لكى يشهد بصدقك ونسمع كلامه ، ونرى هيئته ، وحينئذ نؤمن بك
ونصدقك .

وقد رد الله تعالى - على قولهم هذا يردن حكيمين : أما الرد الأول
فقال فيه : « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » .

أى : لو أنزلنا ملكا كما اقترح هؤلاء الكافرون وهم على ما هم عليه من
الكفر والجحود ، لقضى الأمر بإهلاكهم ، ثم لا ينظرون ، أى : لا يؤخرون
ولا يمهلون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا ، فقد مضت سنة الله فيمن
قبلهم ، أنهم كانوا إذا اقترحوا آية وأعطوها ولم يؤمنوا يعذبهم الله بأهلك

وا لله - تعالى - لا يريد أن يهلك هذه الأمة التي بعث فيها خاتم رسله - نبي الرحمة - صلى الله عليه وسلم - بسبب إجابة مقترحات أولئك المعاندين - المستكبرين .

وأما الرد الثاني فقال فيه : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسناهم ما يلبسون » .

أى : لو جعلنا الرسول من الملائكة - كما اقترحوا - لكانت الحكمة تقتضى أن نجعله فى صورة بشر ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذى يبلغه عن الله - تعالى - وفى هذه الحالة سيقولون لهذا الملك المرسل إليهم فى صورة بشر - : لست ملكا لأنهم لا يدرون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل للرسول بشراً .

« ومعنى وللبسناهم ما يلبسون ، خلطنا عليهم مثل ما يخلطون على أنفسهم بسبب استبعادهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم .

قال الإمام القرطبى : قوله تعالى « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » لأن كل جنس يأمر بجنسه وينفر من غير جنسه ، فلو جعل الله تعالى - الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربتهم ولما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب من كلامه والإتقاء له ، ما يكفهم عن كلامه ويمنعهم عن سؤاله فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لياأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا : لست ملكا وإنما أنت بشر فلا تؤمن بك ، وعادوا إلى مثل حالهم ، (١) .

وبهذين الجوابين الحكيمين يكون القرآن الكريم قد دحض شبهات أولئك المخادعين ، وبين أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، قال تعالى : - (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى .) .

ثم أخذ القرآن في تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من
حقومه فقال :

« ولقد استهزى برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به
يستهزون » ،

والمعنى : لا تحزن يا محمد لما أصابك من قومك ، فإن من شأن الدعاة
إلى الحق المجاهدين في سبيله أن ينالهم الأذى من أعدائهم ، ولقد أودى من
سبقك من الرسل الكرام ، وسخر الساخرون منهم ، فصبروا على ذلك ،
وجاءهم في النهاية نصرنا الذي وعدناهم به . أما أعداؤهم الذين استهزؤا
بهم ، فقد أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، فكلنا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا
عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ،
ومنهم من أهرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، (١) .
فالآية الكريمة تهدف إلى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - والترويح
عن نفسه ، وتبشيريه بحسن العاقبة وثبوت قلبه حتى لا يتأثر أو يضعف
أمام سفه المشركين وتطاوهم عليه .

والاستهزاء بالشئ : الاستهانة به ، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم
الاهتمام بأمره . وتنكير الرسل للتكثير والتعظيم ، والفاء في قوله « فحاق »
للسببية ، أى : بسبب هذا الاستهزاء برسلك الله الكرام ، أحاط العذاب
بأولئك المستهزين فاهلكهم .

وقال - سبحانه - « فحاق بالذين سخروا » ، ولم يقل بالساخرين ، للإشارة
إلى أن ما أصابهم من عذاب لم يكن تجنيا عليهم ، وإنما كان بسبب سخرتهم
برسلك الله والاستخفاف بهم : لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة هي
علة الحكم .

وفي قوله - تعالى - : « فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » مجاز علاقته السببية ، لأن الذى حاق بهم هو العذاب المسبب عن الاستهزاء ، ففيه إطلاق السبب وإرادة المسبب ، وذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينفك عنها ، فحيثما وجد التطاول على أولياء الله والدعاة إلى دينه ، وجد معه عذاب الله وسخطه على المتطاولين والمستهزئين .

ثم أمر القرآن النبى - ﷺ - أن يذكرهم بحال من سبقوهم عن طريق التطلع إلى آثارهم ، والتدبر فيما أصابهم . والانعاط بما حل بهم فقال - تعالى - :

« قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

أى : قل - يا محمد - لأولئك المكذبين لك ، المستهزئين بدعوتك ، لا تفتروا بما أنتم فيه من قوة وجاه ، فإن ذلك لا دوام له ، وسيروا فى لجج الأرض متدبرين متاملين ، فسقروا بأعينكم آثار أقوام كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا ، ولكن ذلك لم يمنع وقوع العذاب بهم حين بدلوا نعمة الله كفرا ، وحاربوا رسل الله والدعاة إلى دينه .

وقد ذكر القرآن الكريم فى سور متعددة أن آثار أولئك الأقوام المهلكين ، ما زال بعضها باقيا ، وأنها تدعوا العقلاء إلى الانعاط والإعتبار فقال - تعالى - : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد » (١) .

وقال - تعالى - فى شأن قوم لوط : « ولأنكم لترون عليهم مصحين وبالليل ، أفلا تعقلون » (٢) .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يطلب منهم

(١) سورة هود الآية ١٠٠ .

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

السير في الأرض للتفكر والتدبر ، لأنهم كانوا يستمضون به - ﷺ -
فكانت المخاطبة منه لهم من قبيل النصيحة والتحذير .

وايس المراد مجرد النظر في قوله ثم انظروا ، ، بل المراد منه التفكير
والتدبر والاعتبار الذي يهدي إلى الإيمان ، ويعين على اتباع الصراط المستقيم .
قال صاحب الكشف : فإن قلت : أى فرق بين قوله فانظروا ، وبين
قوله ثم انظروا ، ؟ قلت : جعل النظر مسبباً عن السير في قوله فانظروا ،
فكانه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين . وأما قوله
« سيروا في الأرض ثم انظروا » فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة
وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين ، ونبه على ذلك ثم
لتباعد ما بين الواجب والمباح (١) .

وقد علق الشيخ ابن المنير على عبارة صاحب الكشف فقال : « وأظهر
من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير في المسكنين واحداً ، ليكون ذلك
سبباً في النظر ، فحيث دخلت الغاء فلا ظاهراً السببية ، وحيث دخلت ثم فالتنبيه
على أن النظر هو المقصود من السير وأن السير وسيلة لإياه لا غير وشتان بين
المقصود والوسيلة ، .

والذي نرجحه أن التعبير بـ « هنا المفيدة للتراخي » الإشارة إلى أن السير
الذي هو وسيلة للتفكير مطلوب في ذاته كما أن النظر الذي يصحبه التفكير
والاعتبار مطلوب أيضاً ، وكأنه أمر بدهى نتيجة للسير ، أما التعبير بالفاء في
قوله « فانظروا » فلا راز كون للنظر مسبباً عن السير ، ومرتباً عليه ، وكلا
الأمورين مناسب للمقام الذي سيق من أجله ، ومتناسق مع البلاغة
للقراءة .

ثم ساق القرآن الكريم ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته
وعلى أنه هو المهيمن على هذا الكون ، فقال - تعالى - :

قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ
قُلْ لِلّٰهِ كُتِبَ عَلٰى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ اِلٰى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا
رَيْبَ فِيْهِ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ
فِي الْبَيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيْمُ ﴿١٣﴾ قُلْ اَغْيَبَ اللّٰهُ اَتَّخِذُ
وَلِيًّا فَاَطِرُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ اِنِّىْ
اُمِرْتُ اَنْ اَكُوْنَ اَوَّلَ مَنْ اَسْلَمَ وَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴿١٤﴾
قُلْ اِنِّىْ اَخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّىْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ ﴿١٥﴾ مَّنْ يُصْرَفْ
عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنٰهُ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِيْنُ ﴿١٦﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين على سبيل التوبيخ والتهذيب من الذى
يملك السموات والارض وما فيهما من انس وجن وحيوان ونبات وغير ذلك
من المخلوقات ؟ إن الإجابة الصحيحة التى يعترفون بها ولا يستطيعون إنكارها
أن جميع المخلوقات لله رب العالمين . قال - تعالى - : « ولئن سألتهم من خلقهم
ليقولن الله ، فالقصد بالاستفهام تبكيتهم على عنادهم ، وتنبئهم إلى ضلالتهم
لعلهم أن يشوبوا إلى رشدهم .

قال الإمام الرازى : وقوله : « قل لمن ما فى السموات والارض ، سؤال ،
وقوله « قل لله ، جواب . فقد أمره الله - تعالى - بالسؤال أولا ثم بالجواب
ثانیا ، وهذا إنما يحسن فى الموضع الذى يكون الجواب قد بلغ فى الظهور إلى

حيث لا يقدر على إنكاره منكراً ، ولا يقدر على دفعه دافعاً ، وهنا كذلك لأن القوم كانوا معترفين بأن العالم كله لله وتحت تصرفه وقهره وقدرته (١) .

ثم قال - تعالى - : (كتب على نفسه الرحمة) أى : أوجب - سبحانه - على نفسه رحمة التي وسعت كل شيء ، والتي من مظاهرها أنه منح خيره ونعمه في الدنيا للظالمين والعصاة ، وأنه سيحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم فيجازي الذين أساءوا بما عملوا ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - (إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش ، إن رحمته تغلب غضبه) .

وجملة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، يرى بعض العلماء أنها جواب لقسم محذوف أى : والله ليجمعنكم ، وجملة القسم والجواب لا عمل لها من الإعراب ، وإن تعلقت بما قبلها من حيث المعنى وعلى هذا الرأى يكون الكلام قد تم عند قوله - تعالى - كتب على نفسه الرحمة .

ويرى الزجاج ومن شايعه أن جملة (ليجمعنكم) في محل نصب بدل من الرحمة ، وفسر (ليجمعنكم) بمعنى أمهالكم وأمدالكم في العمر والرزق مع كبركم ، فهو تفسير الرحمة ، كما قال - تعالى - في السورة نفسها (كتب على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) (٢) .

والمقصود بهذه الجملة السكرية (ليجمعنكم . . .) بيان عدل الله بين عباده . فهو لم يجمعهم يوم القيامة لتعذيبهم جميعاً ، وإنما يجمعهم لإثابة المحسن ومعاذلة المسيء .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ١٤ .

(٢) حاشية الجمل ج ٣ ص ٩ : (٥ - سورة الأنعام)

ولما كان الكافرون ينكرون حصول البعث والحساب فقد أكد الله — تعالى — حصولهما باللام وبنون التوكيد الثقيلة ، وبتعدية الفعل إلى دون في الإشارة إلى أن هذا الجمع نهايته يوم القيامة — وبأنه يوم لا ينبغي لاح — أن يرتاب فيه لوضوح أدلته .

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان هاقبتهم السيئة فقال — تعالى — (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) . أى : الذين خسروا أنفسهم بانطباع فطرتهم ، وإصرارهم على العناد والجور ، لا يتسرب الإيمان إلى قلوبهم لأنها قست واطلمت .

قال الألوسي : (الفاء في قوله « فهم لا يؤمنون » ، - للدلالة على أن عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر مسبب عن خسرتهم ، فإن إبطال العقل والانهماك في التقليد أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان) (١) .

ثم ساق — سبحانه — ما يشهد بشمول علمه وقدرته فقال : (وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) .

قال القرطبي : (سكن معناه هدأ واستقر ، والمراد ما سكن وما تحرك ، فحذف لعلم السامع ، وقيل : خص الساكن بالذكور لأن ما يعمه السكون أكثر مما يعمه الحركة وقيل : المعنى ، ما خلق ، فهو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها ، فإنه يجري عليه الليل والنهار ، وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق وهذا أحسن ما قيل لأنه يجمع شتات الأقوال) (٢) . والمعنى : وقته - سبحانه - جميع ما استقر وتحرك ووجد في كل زمان ومكان من إنسان وحيوان ونبات وغير ذلك من المخلوقات ، وهو - سبحانه -

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ج ٧ ص ١٢٢ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٩١ .

السميع لكل دقيق وجليل ، العليم بكل الظواهر والبواطن ، والتعبير بما في قوله (وله ما سكن) الدلالة على العموم والشمول .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد ، وأن ينفي عن نفسه بشدة ما تردوا فيه من جهالة وضلالة فقال :

« قل أغير الله أتخذ وليا ؟ فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم .

أى : قل لهم - يا محمد - موبخا وزاجرا ، بأى عقل أجهنم لأنفسكم الإشراك بالله ، واتخذتم من دونه معبودا سواه ، مع أنه - سبحانه - باعترافكم هو الخالق لكم وللسموات والأرض ولكل شيء ؟

وقد سلطت الهمزة على المفعول الأول لا على الفعل ، الإيذان بأن المستنكر إنما هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولي مطلقا ، ونظير هذه الآية قوله - تعالى - « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » .

ثم دلل - سبحانه - على أنه هو وحده المستحق للعبادة بأمرين . أولهما قوله - تعالى - « فاطر السموات والأرض » .

أى خالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق ، فالفطر - كما قال اللغويون - الإبداع والإيجاد من غير سبق مثال يحتذى .

وثانيهما قوله - تعالى - (وهو يطعم ولا يطعم) .

أى : أنه - سبحانه - هو الذى لا يحتاج إلى أحد وكل ما سواه محتاج إليه وهو الرازق لغيره ، والمنافع كلها من عنده .

وقرأ أبو عمرو (وهو يطعم ولا يطعم) بفتح الياء فى الثانى . أى : وهو يرزق غيره ويطعمه أما هو - سبحانه - فلا يتناول طعاما ولا شرابا .

وهذه الجملة حالية مؤيدة لإنكار اتخاذ ولي سوى الله ، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر بأنهم محتاجون إلى الطعام ، وأنه

- سبحانه - هو الذى خلق لهم هذا الطعام فهم عاجزون عن البقاء بدونه .
ثم أمره - سبحانه - بأن يصرح أمامهم بأنه يرى من شركهم ومن
أفعالهم للقيحة فقال - تعالى - (قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم
ولا تكونن من المشركين) .

أى : قل أيها الرسول الكريم بعد إيراد هذه الآيات والحجج الدالة على
وحدانية الله : إني أمرت من خالقى أن أكون أول من يسلم له وجهه ويخصه
بالعبادة ، كما أنى نهيت عن أن أكون من المشركين الذى يجعلون مع الله
آلهة أخرى .

وصح عطف الجملة الثافية الإنشائية على الأولى الخبرية لأن الأولى خبرية
فى اللفظ ولكنها إنشائية فى المعنى فكانت فى قوة الجملة الطلبية والتقدير : كن
أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، ويجوز عطفها على جملة (قل إني
أمرت) وهى إنشائية فى اللفظ والمعنى .

ثم أمره - سبحانه - بأن يعلن أمامهم بأن خوفه من خالقه يحتم عليه
أن يبتعد عن كل معصية فقال :

(قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) .

أى : قل لهم - يا محمد - على سبيل الإنذار والتحذير من الاستمرار فى
الكفر إني أخاف إن عصيت خالقى عذاب يوم عظيم الأحوال تذهل فيه
(كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وتقرى الناس
سكارى ومأمم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

وفى هذا التحذير أسمى ألوان التعبير والتصريح لأنه إذا كان النبى - صلى الله
عليه وسلم - وهو أحب الخلق إلى الله سيناله العذاب إن كان - على سبيل
الفرض - بالتقدير - قد عصى ربه فى الدنيا . فكيف بأولئك الذين أشركوا مع
الله آلهة أخرى ؟ فمن الواجب عليهم أن يقتدوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم -
فى عبادته وإخلاصه لربه .

وكلية (عذاب) مفعول لأخاف ، وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن عصيت ربى استحققت العذاب العظيم .

ثم بين - سبحانه - أن النجاة من هول هذا اليوم غنيمة ليس بعدها غنيمة فقال : من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز العظيم .

أى : من يصرف عنه عذاب هذا اليوم ، فإنه يكون من شملهم رحمة الله ورعايته ، وذلك هو الفوز الذى ليس بعده فوز .

والضمير الذى يعتبر نائب فاعل ليصرف ، يعود على العذاب العظيم الذى سيحل بالمجرمين يوم القيامة .

وفى قراءة لحزة والكسائى وأبى بكر عن عاصم (من يصرف) بفتح الياء فيكون الضمير عائداً على الله - تعالى - ويكون المفعول محذوفاً . والتقدير من يصرف الله عنه هذا العذاب العظيم فى ذلك اليوم فقد شملته رحمة الله ، وعلى كلتا القراءتين فالضمير فى قوله (فقد رحمه) يعود على الله - تعالى - :

هذا ، وفى هذه الآيات الخمس نجد القرآن قد أمر النبى - ﷺ - بقوله : قل ، خمس مرات وهو أسلوب إنذارى تلقينى كثر استعماله فى هذه السورة - كما سبق أن قلنا فى التمهيد لها - لأنه يلحق النبى - ﷺ - بالحجج التى تزلزل كيان المشركين وتأتى على بنيانهم من القواعد . وفضلاً عن ذلك فهو لون من التفنن فى أسلوب الدعوة إلى الله يحتاج إليه المرشدون والدعاة . لأن التزام أسلوب واحد فى إقامة الحجة على الخصم يفضى إلى السآمة والملل ، ومن هنا فقد لون القرآن أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها وصدق الله إذا يقول : أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون .

ثم بين - سبحانه - أن نواصى العباد بيديه ، وأنه هو المتصرف فى خلقه بما يشاء ، لا يعقب الحكمة ولا راد لقضائه فقال - تعالى - :

وَإِنْ يَمَسُّكَ

اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ١٨ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ١٩ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ٢٠ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ٢٢ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ٢٣

المس : أعم من اللمس في الاستعمال . يقال : مسه السوء والكبر والعذاب والتعب . أى : أصابه ذلك وزل به .

والضر : اسم الألم والحزن والخوف وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما . كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ، (١) .
والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلة .
والمعنى : إن الناس جميعاً تحت سلطان الله وقدرته ، فما يصيبهم من ضر كمرض وتعب وحزن اقتضته سنة الله في هذه الحياة ، فلا كاشف له إلا هو ،

وما يصيبهم من خير كصحة وغنى وقوة وجاء فهو - سبحانه - قادر على حفظه عليهم ، وإبقائه لهم ، لأنه على كل شيء قدير .

والخطاب في الآية يصح أن يكون موجهاً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لتقويته في دعوته ، وتثبيته أمام كيد الأعداء وأذاهم ، كما يصح أن يكون لكل من هو أهل للخطاب .

قال صاحب المنار : د ومن دقائق بلاغة القرآن المعجزة ، تجري الحقائق بأوجز العبارات ، وأجمعها لمحاسن الكلام مع مخالفته بعضها في بادىء الرأى لما هو الأصل في التعبير ، كالمقابلة هنا بين الضر والخير ، وإنما مقابل الضر النفع ومقابل الخير الشر ، فنكتة المقابلة أن الضر من الله ليس شراً في الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقاً وأدباً وعلماً وخبرة . وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدم على نيل مقابله ، كما أن صرف العذاب في الآخرة مقدم على النعيم ، (١) :

وقوله : د وإن يمسسك بخير ، جوابه محذوف تقديره : فلا راد له غيره .
وقوله : د فهو على كل شيء قدير ، تعليل لكل من الجوابين المذكورين في الشرطية الأولى والمحذوف في الثانية .

وفي معنى هذه الآية جاءت آيات أخرى منها قوله - تعالى - :
د ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يحسبها ، وما يحسب فلا يرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، (٢) .

وفي الحديث الشريف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول :
د اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

(١) تفسير المنار ج ٧ ص ٢٣٥ .

(٢) سورة فاطر : آية ٢ .

ثم بين - سبحانه - كمال قدرته ، وعظيم سلطانه فقال : وهو القاهر
ق عباده وهو الحكيم الخبير ، .

أى أنه - كما قال ابن كثير - وهو الذى خضعت له الرقاب ، وذلت له
بناه . وعنت له الوجوه ، وقهر كل شىء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت
لمعة جلالة وكبريائه الأشياء ، وتضائلت بين يديه وتحت قهره وحكمه . .
ثم أمر الله : نبيه - صلى الله عليه وسلم - : فى بيان رائع حكيم ،
يسأل المشركين عن أى شىء فى هذا الكون أعظم وأزكى شهادة بحيث
ل شهادته ولا ترد فقال - تعالى - : قل أى شىء أكبر شهادة ؟
الله شهيد بينى وبينكم ، .

روى بعض المفسرين أن أهل مكة قالوا : يا محمد ، أرنا من يشهد أنك
بول الله ، فإننا لا نرى أحدا نصدقه ، ولقد سألنا عنك لليهود والنصارى
عموا أنه ليس لك عندهم ذكر ، فأزل الله - تعالى - : قل أى شىء أكبر
إادة قل الله شهيد بينى وبينكم ، .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يخاصمونك فيما تدعو إليه : أى
فى هذا الوجود شهادته أكبر شهادة وأعظمها بحيث تقبلونها عن تسليم
ذعان ؟ ثم أمره أن يحجبهم على هذا السؤال بالحقيقة التى لا يمارى فيها عاقل
ى أن شهادة الله هى أكبر شهادة وأقواها وأزكاها ، لأنها شهادة من يستحيل
به الكذب أو الخطأ ، وقد شهد - سبحانه - : بصدقى فيما أبلغه عنه فلماذا
ضون عن دعوتى ، وتتكبون الطريق المستقيم ؟

وصدرت الآية للكرامة بقل وبصيغة الاستفهام تنبيهاً إلى جلال الشاهد ،
ل سلامة دعوى النبى - صلى الله عليه وسلم - لكى يدركوا ما فيها من
ن وما هم فيه من ضلال .

وأوثر كلمة ، شيء ، في قوله - تعالى - : « قل أى شيء أكبر شهادة »
لأنها تفيد الشمول والإحاطة والاستقصاء .

قال صاحب الكشف مامانحه : قوله - تعالى - : « قل أى شيء أكبر
شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ، أراد : أى شهيد أكبر شهادة فوضع شيئاً مقام
شهيد ليبالي في التعميم ، ويحتمل أن يكون تمام الجواب عنه قوله : « قل الله ،
بمعنى : الله أكبر شهادة ، ثم ابتدئ . « شهيد بينى وبينكم ، أى : هو شهيد
بينى وبينكم . وأن يكون « الله شهيد بينى وبينكم » هو الجواب ، لدلالته
على أن الله - تعالى - : « إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم فأكثر شيء شهادة
من هو شهيد له ، (١) .

والمراد بشهادة الله ما جاء في آياته القرآنية من أنه - سبحانه - : قد
أرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، .

ثم بين - سبحانه - : أن القرآن هو المعجزة الخالدة للنبي (صلى الله
عليه وسلم) فقال : « وأوحى إلى هذا القرآن لا تذكركم به ومن بلغ ، .

أى : أن الله - تعالى - : قد أنزل هذا القرآن عن طريق وحيه الصادق ،
لا تذكركم به يا أهل مكة ، ولا تذكروا به - أيضاً - جميع من بلغه هذا الكتاب
الكريم ووصلت إليه دعوته من العرب والعجم في كل زمان ومكان إلى
يوم القيامة .

فهذه الجملة تدل على عموم بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) كما تدل على أن
أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ، وتعم - أيضاً - الذين وجدوا
بعد نزوله وباغتهم دعوته . ولم يروا النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحديث

الشريف : د بلغوا عن الله - تعالى - فن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله ، (١) .

وعن محمد بن كعب قال : د من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك لأن القرآن الكريم لما كان متواترا بلفظه ومعناه ، كان من بلغه بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) : كأنما سمعه منه وإن كثرت الوسائط ، لأنه هو الذى بلغه بلا زيادة ولا نقصان ، أما من لم تبلغه دعوة القرآن فلا يصدق عليه أنه بلغته الدعوة ، وحينئذ لا يكون مخاطبا بتعاليم هذا الدين ، وإنه يكون فى أعناق الذين تصروا فى تبليغ دعوة الإسلام إليه .

ثم أمره - سبحانه - أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد ، وأن يعلن براءته منهم ومن معبوداتهم فقال - تعالى - : د أنتم لتشهدون أن مع الله آله أخرى ، قل : لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء بما تشركون .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إذا كنتم قد ألغيت عقولكم . وترديتم فى مهابى الشرك والضلال ، وشهدتم بأن مع الله آله أخرى ، فإنى برىء منكم ومن أعمالكم القبيحة ، ومحال أن أشهد بما شهدتم به ، وإنما الذى أشهد به وأعتقده ، أن الله - تعالى - واحد لا شريك له ، وإننى بعيد كل البعد عن ضلالكم وجحودكم .

والاستفهام فى قوله د أنتمكم ... ، إنكارى ، جىء به لاستقباح ما وقع منهم من شرك ، وأكد قوله د لتشهدون ، الإشارة إلى تغلغل الضلال فى نفوسهم ، واستيلاء الجحود على قلوبهم .

وعبر عن أوثانهم بأنها آلهة أخرى ، مجارة لهم في زعمهم الباطل ومبالغة في توبيخهم والتهكم بهم .

وفي أمره - سبحانه - لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بأن يصارحهم بأنه لا يشهد بشهادتهم دقل : لا أشهد ، توبيخ لهم على جهالتهم ، وتوجيه لاتباعه إلى الاقتداء به في شجاعته أمام الباطل ، وفي ثباته على مبدئه .

وقد تضمن قوله - تعالى : د قل إنما هو إله واحد . . ، إعراف كامل بوحداية الله ، وقصرها عليه - سبحانه - ، وتصريح بالبراءة التامة من الأوثان وعابديها ، وتبديد شديد لهذا العمل الباطل .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد تضمنت شهادة من الله - تعالى - بأن رسوله محمداً (صلى الله عليه وسلم) صادق في رسالته ، وشهادة من هذا الرسول الكريم بأن الله واحد لا شريك له ، وأنه برىء من إلحاد الملحدين وكفر الكافرين .

ثم ساق القرآن شهادة ثالثة بصدق النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي شهادة أهل الكتاب فقال د الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ، :

قال الجمل في حاشيته على الجلايين : د روى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما قدم للمدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر : إن الله أنزل على نبيه بمكة : د الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر ، لقد عرفته حين رأيته كما أعرف إبني ، ولأنا أشد معرفة بمحمد مني بإبني ! فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حقاً ولا أدري ما تصنع النساء ، (١) .

والمعنى : إن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يعرفون صدق ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) معرفة تماثل معرفتهم لأبنائهم الذين هم من أصلهم ، فهم معرفة بلغت حد اليقين وذلك بسبب ما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد (صلى الله عليه وسلم) ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته .

والضمير في « يعرفونه » يرى أكثر المفسرين أنه يعود على النبي (صلى الله عليه وسلم) ويؤيد ذلك سبب نزول الآية ، ويرى بعضهم أنه يعود على القرآن لنقدمه في قوله « وأوحى إلى هذا القرآن » أو على التوحيد لدلالة قوله « قل إنما هو إله واحد » .

والأولى عودة الضمير على جميع ما ذكر ، لأن معرفتهم بما في كتابهم يتناول كل ذلك .

ثم بين — سبحانه — علة إنكار المكابرين منهم لما يعرفونه من أمر نبوته (صلى الله عليه وسلم) فقال : « الذين خسروا أنفسهم لا يؤمنون » . قال صاحب الكشاف : « الذين خسروا أنفسهم من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين فهم لا يؤمنون » به (١) جمعوا بين أمرين متناقضين فكذبوا على الله بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح حيث قالوا : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا » وقالوا « والله أمرنا بها » وقالوا : « الملائكة بنات الله » ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب ، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها سحراً ولم يؤمنوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التي قيل أنها مدنية ، والصحيح أنها مكية ، ويشهد لذلك سبب النزول الذي سقناه من عمر — رضي الله عنه — فقد قال لعبد الله بن سلام : « إن الله أنزل على نبيه بمكة . . . الخ .

ويؤكد كونها مكية — أيضا — سياق الآيات قبلها ، فالآية التي قبلها
 هو قوله — تعالى — : « قل أي شيء أكبر شهادة .. الخ » ، فيها شهادة من
 الله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه ، والآية التي
 معنا فيها شهادة من أهل الكتاب بأنهم يعرفون صدق محمد (صلى الله عليه وسلم)
 كما يعرفون أبناءهم ، ومن المعروف أن أهل مكة كانوا يسألون أهل الكتاب
 عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وفضلا عن ذلك لم يرد من صحيح ثبت
 أن هذه الآية الكريمة قد نزلت بالمدينة .

قال بعض العلماء : ويظهر أنهم — أي القائلون بأن الآية مدنية — لما
 وجدوا الحديث في هذه الآية عن أهل الكتاب ، ووجدوا أن هذه الآية
 نظيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به ، وهي قوله — تعالى — : في سورة
 البقرة : « الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم
 ليكتمون الحق وهم يعلمون » الآية ١٤٦ ، ومن المعروف أن صلة الإسلام
 بأهل الكتاب إنما كانت بعد الهجرة وفي المدينة دون مكة ، لما وجدوا هذا
 قرروا أن الآية مدنية ، فالمسألة ليست إلا اجتماعاً حسب رواية مسندة ،
 وهو اجتماع غير صحيح (١) .

ولما كان هذا الخسران أكبر ظلم ظلم به هؤلاء الكفار أنفسهم فقد
 قال — تعالى — في شأنهم : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب
 بآياته ، إنه لا يفلح الظالمون » .
 أي : لا أحد أشد ظلماً من أولئك المشركين الذين كذبوا بالله وملائكته
 وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإن هؤلاء الذين سقطوا في أقصى دركات
 الكذب لن يغفروا ولن يفلحوا ، والاستفهام في الآية الكريمة إنكارى
 لأنفى ، وفيه توبيخ للمشركين .

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص ٥ لفضيلة الأستاذ

محمد المدني .

ثم بين — سبحانه — بعض أحوالهم عند ما يحشرون يوم القيامة ،
نقال — تعالى — :

يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ
نُتِمَ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا
لِزَكِينِ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
تُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى
أَجَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا
نَفْسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

الحشر : الجمع ، والمراد به جمعهم يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم الدنيوية
والمعنى : واذكر لهم أيها الرسول الكريم - ليعتبروا ويتعظوا - حالهم
يوم نجمعهم جميعاً في الآخرة لنحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم ، ثم نسالهم
سؤال إفصاح لا إضاح - كما يقول القرطبي - : أين شركاؤكم الذين كنتم
تزعمون أنهم شفعا لى يدافعوا عنكم فى هذا اليوم العسير .

و «يوم» منصوب على الظرفية بفعل مضمر بعده أى : ويوم نحشرهم كان
كذا وكذا ، وحذف هذا الفعل من الكلام لبقى على الإبهام الذى هو أدخل
فى التخويف والتحويل ، وقيل إنه منصوب على أنه مفعول به بفعل محذوف

قبله والتقدير ، واذكر يوم نحشرهم ، أى : اذكر هذا اليوم من حيث ما يقع فيه ، والضمير فى ونحشرهم ، للذين افتروا على الله كذباً ، أو كذبوا بآياته . وفائدة كلمة : جميعاً ، رفع احتمال التخصيص ، أى : أن جميع المشركين ومعبوداتهم سيحشرون أمام الله للحساب .

وكان العطف بـ ثم لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين ، إذ قبل ذلك سيكون قيامهم من قبورهم ، ويكون هول الموقف ، ويكون إحصاء الأعمال وقراءة كل امرئ لكتابه . . الخ ، ثم يقول الله — تعالى — للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟

ووبخهم — سبحانه — بقوله : (أين شركاؤكم . .) مع أنهم محشورون معهم ، لأنهم لا نفع يرجى من وجودهم معهم ، فلما كانوا كذلك نزلوا منزلة الغائب (كما تقول لمن جعل أحداً ظهيراً بعينه فى الشدائد إذا لم يعنه وقد وقع فى ورطة بحضرته أين فلان ؟ فتجعله لهدم نفعه — وأن كان حاضراً كالغائب) (١) .

ثم أخبر — سبحانه — عما يكون منهم من تخطيط وحيلة فقال : ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين ، الفتنة مأخوذة من الفتن ، وهو إدخال الذهب فى النار لتعرف جودته من ردايته ، ثم استعمل فى معان أخرى كالاختبار ، والعذاب ، والبلاء ، والكفر . . .

والمعنى : ثم لم تكن عاقبة كفرهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ، وارتفعت الدعاوى إلا أن قالوا مؤكدين ما قالوا بالقسم الكاذب والله ياربنا ما كنا مشركين . ظنا منهم أن تبرأهم من الشرك فى الآخرة سينجيهم من عذاب الله كما نجا المؤمنين بفضلهم ورضوانه .

قال ابن عباس : يغفر الله — تعالى — لأهل الإخلاص ذنوبهم . ولا

يتعاضم عليه ذنب أن يغفره ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك ، فتعالوا نقول : إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن معركين . فقال الله — تعالى — : أما إذ كنتموا الشرك فاختموا على أفواههم ، فتنتطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، فعندئذ يعرف المشركون أن الله لا يكتُم حديثاً ، فذلك قوله : « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً » (١) .

ثم قال — تعالى — (أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) .

والمراد بالنظر هنا : التدبر والتفكير .

والمعنى : أنظر — أيها العاقل — وتأمل كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم في قولهم والله ربنا ما كنا مشركين ، وغاب عن علمهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من الأقوال الباطلة ، وما كانوا يفعلونه من جعلهم لله شركاء .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور مع أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً : ألا تراهم يقولون (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه (ونادوا يا مالِك ليَقض علينا ربك) وقد علموا أنه لا يقضى عليهم ، (٢) .

وبعد أن بين — سبحانه — أحوال الكفار في الآخرة أتبعه بما يوجب اليأس من إيمان بعضهم فقال : « ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً . . . » .

قال ابن عباس : إن أبا سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيرة ، والنضر ابن الحارث ، وعقبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأمية بن خلف ، استمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يقرأ القرآن ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيبة ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها بينه ما أدرى ما يقول ، إلا أنى أرى تحرك شففيه يتكلم بشيء فما يقول إلا أساطير ، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه فأزل الله هذه الآية ، (١) .

والأكنة : جمع كنان كغطاء وأغطية لفظاً ومعنى والوقر — بالفتح — للثقل في السمع .

والمعنى : ومن هؤلاء المشركين يا محمد من يستمع إليك حين تقرأ القرآن وقد جعلنا — بسبب عنادهم وجحودهم — على قلوبهم أغطية تبول بينهم وبين فقهه ، كما جعلنا في أسماعهم صمماً يمنع من سماعه بتدبر وتعقل .

قال صاحب المنار : « وجعل الأكنة على القلوب والوقر في الأذان في الآية من تشبيه الحجب والمواقع المعنوية بالحجب والموانع الحسية ، فإن القلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذي وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شيء . والأذان التي لا تسمع الكلام سمع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو الصمم ، لأن سماعها وعدمه سواء (٢) .

وقال بعض العلماء : « وهنا يسأل سائل : إذا كان منع الهداية من الله تعالى — بالغمشاة على قلوبهم والختم عليها — وبالوقر في آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر فماذا يكون عليهم من تبعه يحاسبون عليها حساباً عسيراً بالعذاب الآليم ؟

(١) تفسير الألوسي ج ٧ ص ١٢٥ .

(٢) تفسير المنار ج ٧ ص ٣٤٧ .

والجواب عن ذلك أن الله - سبحانه - يسير الأمور وفق حكمته العليا .
 من يسلك سبيل الهداية يرشده ويذير طريقه ويثيبه ، ومن يقصد إلى الغواية
 يسير في طريقها تجيئه النذر تباهاً إنذاراً بعد إنذار ، فإن أيقظت النذر
 نعيمه وتكشفت الحماية عن قلبه فقد اهتدى وآمن بعد كفر . ومن لم يجد فيه
 نذر المتابعة ولم توقف له ضميراً ولم تبصره من عمى فقد وضع الله - تعالى -
 في قلبه غشاة وفي آذانه وقراً ، (١) .

ثم صور - سبحانه - عنادهم وإعراضهم عن الحق مهما وضحت
 إمينته فقال : وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، .

أى : وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق
 عوذك فلن يؤمنوا بها لا استحواذ الغرور والعناد على قلوبهم .

والمراد من الرؤية هنا البصرية ، ومن الآيات المعجزات الحسية كانشقاق
 قمر ونبع الماء من بين أصابع الشريفة .

وهذه الجملة الكريمة المقصود بها ذمهم لعدم انتفاعهم بحاسة البصر بعد
 بهم عدم انتفاعهم بعقولهم وأسماعهم .

وجيء بكلمة كل ، لعدم النقي ، أى : أنهم لا يؤمنون بأية معجزة
 ونما مهما وضحت براهمينا ، ومهما كانت دلالتها ظاهرة على صدق النبي
 - صلى الله عليه وسلم - .

أم بين - سبحانه - ما كان يجرى منهم مع رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - فقال :

(١) مجلة لواء الإسلام لسنة ٢٣ العدد ٩ تفسير الآيات الكريمة افضلية
 أستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

« حق إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » .

الأساطير جمع إسطورة أو أسطورة ومعناها الخرافات والثرهات .

أى : حتى إذا ما صاروا إليك أيها الرسول ليخاصموك وينازعوك في دعوتك فإنهم يقولون لك بسبب كفرهم وجحودهم ، ما هذا القرآن الذى نسمعه منك إلا أقاصيص الأولين المشتملة على خرافاتهم وأوهامهم .

وفى قوله — تعالى — « حتى إذا جاءوك يجادلوك » ، إشارة إلى أن معيبتهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان من أجل المجادلة المتعنتة مع الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم — .

ثم بين — سبحانه — أنهم لا يكتفون بمحاربة الدعوة الإسلامية ، بل هم لفتجورهم — يحرصون غيرهم على محاربتها معهم فقال — تعالى — :

« وهم يهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكوا إلا أنفسهم وما يشعرون ،
النهى : الزجر ، والنأى : البعد والضمير « هم » ، يعود على المشركين .
والمعنى : إن هؤلاء المشركين لا يكتفون بمحاربة الحق ، بل يزجرن الناس عن اتباعه ، ويبعدونهم عن الاستماع إليه . فهم قد جمعوا بين فعلين قبيحين :
محاربتهم للحق وحمل غيرهم معهم على محاربته والبعد عنه .

وهم بهذا العمل الباطل القبيح ما يهلكون إلا أنفسهم ولكنهم لا يشعرون بذلك لا نظماس بصيرتهم ، وقسوة قلوبهم .

وعلمهم هذا يدل على أنهم كانوا معترفين في قرارة أنفسهم بأن القرآن حق ، لأنهم لو كانوا يعتقدون أنه أساطير الأولين — كما زعموا — اتركوا الناس يسمعونها ليتأكدوا من أنها خرافات وأوهام ، ولكنهم لما كانوا مؤمنين ببلاغة القرآن وصدقه ، فإنهم نهوا غيرهم عن سماعه حتى لا يؤمن به وابتعدوا هم عنه حتى لا يتأثروا به فيدخلوا في دين الإسلام ، ولقد حكى

له عنهم هذا المعنى في قوله - تعالى - (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا قرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون) (١) .

والضمير في قوله - تعالى - (عنه) يرجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ما جاء به من آيات .

ويرى بعض المفسرين أن الضمير - هم - يرجع إلى عشيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) فيكون المعنى : وهم - أى أعمام النبي (ﷺ) وعشيرته نهون الناس عن إيدائه والتعرض له بسوء ، واكنهم في الوقت نفسه يناون منه أى يبتعدون عن دعوته فلا يؤمنون بها ، ولعل أوضح مثل لذلك هو طالب ، فقد كان يدافع عن النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا أنه لم يدخل في الإسلام مع تصريحه بأنه هو الدين الحق .

ومما روى عنه في هذا المعنى قوله :

واقه لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفناً
فامدح بأمرك ما عليك غضاضة	وابشر بذلك وقر منك عيوناً
ودعوتى وزعمت أنك ناصحى	فلقد صدقت وكنت قبل أميناً
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتى سمحاً بذلك يقيناً

والذى تلمعن إليه النفس أن رأى الأول هو الأرجح . لأن الكلام مسوق في بيان موقف المشركين من النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأنهم قد بلغ بهم السفه والعناد أنهم لا يكتفون بالإعراض عن الحق الذى جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) بل تعدى شرهم إلى غيرهم ، وأنهم كانوا يحرضون الناس على إيدائه وعلى الابتعاد عنه .

ثم يصور — سبحانه — حالهم عند ما يعرضون على النار ، وعندما يقفون أمام ربهم ، وحكى مايقولونه في تلك المواقف الشديدة فقال تعالى :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يٰلَيْتَنَّا
 نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ
 لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
 لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾
 وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ
 وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يٰحَسْرَتَنَا
 عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا
 يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ
 لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

دلو ، شرطية ، حذف جوابها انذهب النفر في تصوره كل مذهب
 وذلك ابلغ من ذكره .

و ، وقفوا ، بالبناء للمفعول بمعنى : وقفهم غيرهم . يقال : وقف على
 الاطلاع أى : عندها مشرفاً عليها ، ويقال وقف على الشئ عرفه وتبينه .
 والمعنى : إنك لو أطلعت على

هؤلاء المشركين عند ما يقفون على النار ويشاهدن لهيبها وسعيرها . رأيت شيئاً مروعاً مخيفاً يجعلهم يتحسرون على ما فرط منهم ، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليمصدقوا بآيات الله التي طالما كذبوه . وليكونوا من المؤمنين .

وعبر - سبحانه - ياذلني تدل على الماضي - مع أن الحديث عما سيحصل لهم في الآخرة فكان يناسبه إذا - لإفادة تحقق الوقوع وتأكيده ، وليتصور المستقبل على أنه موجود لا على أنه سيوجد ، وعطف بانفاء في قوله : « فقالوا . . . » ، للدلالة على أن أول شيء يقع في قلوبهم حينئذ إنما هو الندم على ما سلف منهم ، وتمنى الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا .

ثم يعقب - سبحانه - على قولهم هذه فيما لو أجيبوا إلى طلبهم على سبيل الفرض والتقدير فيقول : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . »

بل هنا للإضراب عما يدل عليه تمنى من إدراكهم لقبح الكفر وسوء مخبئه ، ولتحقيقة الإيمان وحسن عاقبته .

والمعنى : ليس الأمر كما يوهمه كلامهم في التمنى من أنهم يريدن للعودة للمداينة ، بل الحق أنهم تمنوا العودة إلى الدنيا بعد أن استقبلتهم النار بلهبها ، وبعد أن ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا من أعمال قبيحة ، ومن أفعال سيئة ، وبعد أن بدا لهم ما كانوا يكذبون به ، وينكرون تحققه ، ولو أنهم ردوا إلى الدنيا بمتعها وشهواتها وأهوائها لعادوا لما نهوا عنه من التكذيب بالآيات ، والسخرية من المؤمنين ، وإنهم لكاذبون في كل ما يدعون .

فالآية الكريمة تصور ما طبع عليه هؤلاء الجاحدون من فجور وهناد وافتراء ، لأنهم حتى لو أجيبوا إلى طلبهم - على سبيل الفرض والتقدير - لما تخلوا عن كفرهم ومحاربتهم الأنبياء وللمصلحين .

ثم بين - سبحانه - بعض مقتربانهم في الدنيا واغترابهم بها فقال - تعالى - وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين .

أى : أن هؤلاء الكافرين قد بلغ بهم الحب للدنيا والتعلق بها أنهم قالوا : هما الحياة التى تسمى حياة فى نظرنا إلا هذه الدنيا التى نتمتع فيها بما نريد من شهوات وما نحن بمبعوثين ولا محاسبين بعد ذلك .

فآية الكريمة تحكى عنهم أنهم ينكرون أى حياة سوى الحياة التى يعيشونها ، وينفون وقوع البعث والحساب والثواب والعقاب نفياً مؤكداً بالباء وبالجملة الإسمية .

ويرى جمهور المفسرين أن هذه الآية الكريمة تنمة الآية السابقة لها من حيث المعنى ، وأن قوله « وقالوا ، معطوف على « لعادوا ، والتقدير ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وسبى الأعمال » وقالوا ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ويكون قوله « وإنهم لكاذبون ، جملة اعتراضية مؤكدة لمعنى عودتهم إلى ما كانوا عليه إن عادوا إلى الدنيا ، إذ هى تكذب لإدعائهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند ما يقفون ليستمعوا إلى ما يوجهه إليهم ربهم من توبيخ وقريع بسبب كفرهم فقال :

« ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق ، .

أى : قال لهم - سبحانه - أليس هذا البعث الذى تشاهدونه بأعينكم ثابتاً بالحق ؟ وهنا يجيبون خالقهم مصدقين لأن الواقع يحتم عليهم ذلك فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - « بلى وربنا ، أى : قالوا : بلى يا ربنا ! إنه للحق الذى لا شك فيه ، ولا باطل يحرم من حوله ، وأكذروا اعترافهم بالقسم شاهدين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا .

وهنا يحكم الله فيهم بحكمه العادل فيقول : « قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، أى : إذا كان الأمر كما ذكرتم وشهدتم على أنفسكم ، فانغمسوا في العذاب ذائقين لآلامه وأهواله بسبب كفركم بآيات الله ، وإفكاركم لهذا اليوم العصيب .

والذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بالعذاب بعد أن وقعوا فيه . ثم صور - سبحانه - عاقبتهم السيئة ، وخسارتهم التي ليس بعدها خسارة فقال : « قد خسر الذين كذبوا بآيات الله ، .

أى : أن أولئك الكفار الذين أنكروا البعث والحساب قد خسروا عز شئ . في هذه الحياة ، ومن مظاهر ذلك أنهم خسروا الرضا الذي سيناله المؤمنون من ربهم ، وخسروا العزاء الروحى الذى يغرس فى قلب المؤمن الطمأنينة والصبر عند البلاء ، لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى ، بخلاف الكافر فإن الدنيا منتهى آماله . . .

وإن هؤلاء الخاسرين سيستمرون فى تكذيبهم بالحق وإعراضهم عنه . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، .

أى : حتى إذا جاءتهم الساعة مباغتة مفاجئة وهم فى طغيانهم يعمهون ، لإعترامهم لهم ، وحل بهم البلاء وقالوا : بعد أن سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا يا حسرتنا أقبلنى فهذا أوانك ، فإننا لم نستعد لهذا اليوم ، بل أهملناه ولم نلتفت إليه . وعلى ذلك يكون المراد بالساعة يوم القيامة وما فيه من حساب .

وقيل : المراد بالساعة وقت مقدمات الموت ، قال كلام على حذف المضاعف ، أى : جاءتهم مقدمات الساعة وهى الموت وما فيه من الأهوال . قلنا كان الموت من مبادئ الساعةسمى باسمها ، وإذا قال (صلى الله عليه وسلم) « من مات فقد قامت قيامته » (١) .

وسميت القيامة ساعة لمرعة الحساب فيها ، ولأنها تحمل أشد الأهوال
ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة قانية وأخرى باقية .

وفي قوله - تعالى - « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ، إشارة إلى أنها
تفاجئهم بأهوالها من غير أن يكونوا مستعدين لها أو متوقعين لحدوثها ،
أما المزمنون - فإنهم رغم عدم علمهم بمجيئها - فإنهم يكونون في حالة
استعداداً لها بالإيمان والعمل الصالح .

والبغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من غير إعداد له ، وكلمة « بغتة »
يصح أن تكون مصدراً في موضع الحال من فاعل جاءتهم أى : جاءتهم
مباغتة ، ويصح أن تكون مفعولاً ولا مطلقاً لفعل محذوف من لفظها
أى : تبعثهم بغتة ، والحسرة : شدة الغم والندم على ما فات وانقضى .

ثم قال - تعالى - : « وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء
ما يزرون » .

الأوزار جمع وزر وهو - بكسر الواو - الحمل الثقيل ، ويطلق على
الإثم والذنب لأنهما أنقل الأحمال النفسية التى تنوء بها القوة .

والجملـة الكريمة من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبهت حالهم
وما يحملونه يوم القيامة من ذنوب ثقيلة مضنية ، بهيئة المشغل المجهد بحمل
كبير يحمله على ظهره وينوء به . ثم حذف الهيئة الدالة على المشبه به
ورمز إليها بشيء من لوازمها .

وقيل إن الكلام على حقيقته : وأنهم سيحملون ذنوبهم على ظهورهم
فعلاً ، حيث إن الذنوب والأعمال ستجسم يوم القيامة ، وبهذا رأى قال
كثير من أهل السنة .

والمعنى : إن هؤلاء الكافرين بأنون يوم القيامة وهم يحملون ذنوبهم

وأثامهم على ظهورهم ، ألا ما أسوأ ما حملوا ، وما أشد ما سيستقبلونه بعد ذلك من عذاب ألم .

ثم عقد - سبحانه - مقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة . بين فيها أن الحياة الآخرة هي الحياة للعالية السامية الباقية ، أما الحياة الدنيا فهي إلى زوال وانتهاء . فقال - تعالى - :

« وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » .

اللعب : هو العمل للذى لا يقصد به مقصداً صحيحاً من تحصل منفعة أو دفع مضرة ، واللهو : هو طلب ما يشغل عن معالى الأمور وعما بهم الإنسان وبعضه .

والمعنى : إن هذه الحياة التى نعتها الكفار بأنها لا حياة سواها ما هى إلا لهو ولعب لمن يطلبها بأفانية وشره من غير استعداد لما يكون وراءها من حياة أخرى فيها الحساب والجزاء ، وفيها النعيم الذى لا ينتهى ، وفيها السعادة التى لا تنقطع ، بالنسبة للذين اتقوا ربهم ، ونهوا أنفسهم عن الهوى .

فالحياة الدنيا لعب ولهو لمن اتخذوها فرصة للنكاث والتفاخر وجمع الأموال من حلال وحرام ، ولم يقيموا وزناً للأعمال الصالحة التى كلفهم الله - تعالى - بها . أما بالنسبة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . فإن الحياة الدنيا تعتبر وسيلة إلى رضا الله الذى يظفرون به يوم القيامة ، وإن ما يحصل عليه المؤمنون فى هذا اليوم من ثواب جزيل ومن نعيم مقيم هو خير من الدنيا وما فيها من متعة زائلة ومن شهوات لا دوام لها .

والاستفهام فى قوله - تعالى - « أفلا تعقلون » ، للاحث على التدبر والتفكير الموازنة بين اللذات العاجلة الفانية التى تكون فى الدنيا ، وبين النعيم الدائم الباقي الذى يكون فى الآخرة .

ثم أخذ القرآن الكريم في مخاطبة النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي تسليته عما أصابه من قومه فقال :

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ
فِيهِمْ لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَعَاثَ اللَّهُ بِمُجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ
نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطِعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي
الْأَرْضِ أَوْ سُلْبًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِيهِمْ بِغَايَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ
عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ
يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

قد هنا للتحقيق وتأكيد العلم وتكثيره والتحقيق هنا جاء من موضوعها
لا من ذاتها كما أن التكثير راجع إلى متعلقات العلم ، لا إلى العلم نفسه ، لأن
صفة القديم لا تقبل الزيادة والتكثير وإلا لازم حدوثها . والحزن ألم يعترى
النفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : (يقول تعالى
مسلياً لنبيه - صلى الله عليه وسلم - . في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه) قد
نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون (أى : قد أحاطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك
وتأسفك عليهم وقوله : فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ،
أى : هم لا يهتمونك بالكذب ، فنفى الأمر ، لكنهم يعاندون الحق ويدفعونه

بصدورهم كما قال سفهيان الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي قال: قال أبو جهل للنبي - صلى الله عليه وسلم - : إنا لا نكذبك يا محمد ولكن نكذب ما جئت به فأمر الله ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون ، . وعن أبي يزيد المدني إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لقى أبا جهل فصاحه فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابي ؟ فقال : والله إنني لأعلم إنه لنبي ، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً ؟ وتلا أبو يزيد ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون ، (١) .

فآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف التسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - عما كان يهيبه من المشركين وما لاشك فيه أنه - عليه الصلاة والسلام - كان حريصاً على إلامهم ، فإذا مارأهم معرضين عن دعوته حزن وأسف ، وفي معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : **والمهلك باخع** نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ، (٢) .
ومنها قوله - تعالى - : **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** إن الله عليم بما يصنعون ، (٣) .

ومنها قوله - تعالى - : **فلا يحزنك قولهم** إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ، (٤) . قال الجمل : (والفاء في قوله (فإنهم لا يكذبونك) للتعليل ، فإن قوله (قد نعلم إنه ليحزنك ...) بمعنى لا يحزنك ، كما يقال في مقام المنع والزجر نعلم ما تفعل . ووجه التعليل : أن التكذيب في الحقيقة لي وأنا الحليم الصبور ، فتخلق بأخلاقى . ويحتمل أن يكون المعنى : إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لي فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم) (٥) .

والمعنى : إن هؤلاء الكفار - يا محمد - لا ينسبونك إلى الكذب ، فهم

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٦ (٣) سورة فاطر الآية ٨ .

(٤) سورة يس الآية ٧٦ (٥) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٣

قد لقبوك بالصادق الأمين ، ولكنهم يحدون الآيات الدالة على صدقك بإنكارها بالسنتهم مع إعتقاف صدقها .

والجحود هو الإنكار مع العلم ، أى نفي ما فى القلب بثبوته أو إثبات ما فى القلب نفيه ، وفى التعبير بالجحود التكذيب إشارة إلى أن آيات الله واضحة بحيث يصدقها كل عاقل وأنه لا يصح إنكارها إلا عن طريق الجحود .

وقال - سبحانه - (ولكن الظالمين ...) ولم يقل (ولكنهم) ، لبيان سبب جحودهم وهو الظلم الذى استقر فى نفوسهم ، وفيه فوق ذلك تسجيل للظلم عليهم حتى يكونوا أهلاً لما يصيبهم من عقاب .

ثم زاد القرآن فى تعزية النبى - صلى الله عليه وسلم - وتسليته عن طريق إخباره بما حدث للأنبياء من قبله فإن عموم البلوى بما يخفف وقعها فقال : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا) .

أى : أن الرسل من قبلك - يا محمد - قد كذبهم أقوامهم وأنزلت بهم الأذى ، فليس بدعا أن يصيبك من أعدائك ما أصاب الأنبياء من قبلك ، ولقد صبر أولئك الأنبياء الكرام على التناول والسفاه فكانت نتيجة صبرهم أن آتاهم الله النصر والظفر ، فعليك - وأنت خاتمهم وإمامهم - أن تصبر كما صبروا حتى تنال ما نالوا من النصر ، فإن سنة الله لا تتخلف فى أى زمان أو مكان .

وجاء قوله - تعالى - (ولقد كذبت رسل من قبلك) مؤكداً بقده وباللام ، للإشارة إلى تأكيد التسلية والتعزية ، وإلى تأكيد التمسك بفضيلة الصبر التى سيعقبها النصر الذى وعد الله به الصابرين .

و (ما) فى قوله (على ما كذبوا) مصدرية ، (وأوذوا) معطوف على قوله (كذبت) أى

وقوله (حتى أتاهم نصرنا) غاية الصبر ، أى : صبروا على التكذيب-
وماقارنه من الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا وفيه بشارة للنبي - صلى الله عليه
وسلم - مؤكداً للتسوية بأنه - سبحانه - سينصره على القوم الظالمين .

وقوله - تعالى - (ولا تبدل لكلمات الله) معناه : لا تغير لكلمات الله
وآياته التى وعد فيها عباده الصالحين بالنصر على أعدائه ، ومن ذلك قوله
- تعالى - (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز (١) .

وقوله - تعالى - (ولقد سبقتم لنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم
المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون) (٢) . وقوله - تعالى - (إنا لننصر رسلنا
والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد) (٣) إلى غير ذلك من
الآيات التى بشر فيها عبادة المؤمنين بالفلاح وحسن العاقبة .

ويرى المحققون من العلماء أن المراد بكلمات الله : شرائعه ، وصفاته ،
وأحكامه ، وسننه فى كونه ، ويدخل فيها دخولا أوليا ما وعد الله به أنبياءه
وأوليائه من النصر والظفر . وهذا رأى أرجح من سابقة لأنه أهم وأشمل .
وإضافة الكلمات إليه - سبحانه - للإشعار باستحالة تبديلها أو تغييرها
لأنه - سبحانه - لا يغالبه أحد فى فعل من الأفعال ، ولا يقع منه خلف فى
قول من الأقوال ، فما دام المؤمنون يخلصون له العبادة والقول والعمل
ويجتهدون فى مباشرة الأسباب واتخاذ الوسائل النافعة ، فإنه - سبحانه -
سيجعل العاقبة لهم .

وقوله - تعالى - (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) تأكيد وتقرير لما قبله

(١) سورة المجادلة الآية ٢١ .

(٢) سورة الصافات الآيات ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٣) سورة غافر الآية ٥١ .

أى : ولقد جاءك من أخبار المرسلين وأنبيائهم - بما قصه عليك في كتابه - ما فيه العظات والعبر ، فلقد صبر المرسلون على الأذى فكافأهم الله - تعالى - على ذلك بالظفر على أعدائهم .

ثم بين - سبحانه - أنه لا سبيل إلى إيمان هؤلاء الجاحدين إلا بمشيئة الله وإرادته فقال (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيتهم بآية ...) .

كبر عليك : أى شق وعظم عليك . والنفق : السرب النافذ في الأرض الذي يخلص إلى مكان .

والمعنى : وإن كان - يا محمد - قد شق عليك إعراض قومك عن الإيمان وظننت أن إيمانهم بما اقترحوه من آيات يكون سبيلاً في إيمانهم ، فإن استطعت أن تطلب مسلكاً عميقاً في جوف الأرض ، أو مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيتهم بما اقترحوا من مطالب فافعل فإن ذلك لن يفيد شيئاً لأن هؤلاء المشركين لا ينقصهم الدليل الدال على صدقك ، ولكنهم يعرضون عن دعوتك هناداً وجحوداً .

ثم قال - تعالى - (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) .
أى : لو شاء الله جمعهم على ما جئت به من الهدى والرشاد لفعل ، بأن يوفقهم إلى الإيمان فيؤمنوا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنهم بسوء اختيارهم آثروا الحياة الدنيا ، فلا تكونن من الجاهلين بحكمة الله في خلقه ، وبسننه التي اقتضاها علمه .

ثم بين - سبحانه - من هم أهل للإيمان والاستجابة للحق فقال :
(إنما يستجيب الذين يسمعون) أى : إنما يستجيب لك أيها الرسول الكريم أولئك الذين يسمعون توجيهك وأقوالك سماع تدبر وتفهم وتأثر ، أما هؤلاء الذين يعاندونك فقد طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون .

فالمراد بالاستجابة هنا ، الإجابة المقرونة بالتفكير والتأمل ، فهي إجابة محكمة دقيقة لأنها أنت
 محكمة دقيقة لأنها أنت
 محكمة دقيقة لأنها أنت

ثم بين - سبحانه - حال الكفار فقال : « والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ، أى : وموتى القلوب الذين لا يسمعون سماع تدبر وتقبل وهم المشركون ، سيبعثهم الله من قبورهم يوم القيامة ويحاسبهم حسابا عسيرا على أقرانهم الباطلة وأعمالهم السيئة .

فالمراد بالموتى هنا الكفار لأنهم موتى القلوب فسيبعثهم - سبحانه - بموتى الأجساد ، وهذا من باب التهكم بهم والتحقير من شأنهم .

وقيل : أن لفظ الموتى على حقيقة وأن الله - تعالى - بقدرته النافذة سيبعث الجميع يوم القيامة ويرجعهم إليه فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم حكى - سبحانه - بعض التشبهات التى تدرع بها المشركون تعنتا ، ورد عليها بما يخرس السنتهم ، وبما يؤكد قدرته النافذة وعلمه المحيط فقال - تعالى - :

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ

عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ

بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ

مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾

« ولولا ، هنا تحضيضية بمعنى هلا . والمعنى : وقال أولئك الكافرون :

..حلا نزل عليك يا محمد معجزة حسية كتفجير الأنهار ، و فلق البحر .
..ونزول الملائكة معك ... الخ .

فهذه الآيات الكريمة تحكى عنهم أنهم لم يكتفوا بالقرآن معجزة خالدة
للنبي (صلى الله عليه وسلم) وإنما يريدون معجزات حسية من جنس
معجزات الأنبياء السابقين .

وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
من الآيات ، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه ، حتى لكانه لم ينزل عليه شيء
عنادا وجحودا منهم .

وفي قولهم - كما حكى القرآن عنهم - د لولا نزل عليه آية من ربه ، يبناء
الفعل للمجهول وذكر لفظ الرب ، للإشارة إلى أنهم لا يوجهون الطلب إلى
النبي (صلى الله عليه وسلم) وإنما يوجهونه إلى الله تعالى ، لأنه إذا كان رسولا
من عنده ، فليجب له هذا الطلب الذى نتمناه وتكون من بعده مؤمنين .
وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : **دقل إن الله قادر على أن ينزل
آية وليكن أكثرهم لا يعلمون ،** .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التوبيخ والتفريع إن الله
- تعالى - قادر على تنزيل ما اقترحوا من آيات ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه
شيء ، ولكنه - سبحانه - ينزل ما تقتضيه حكمته ، إلا أنهم لجهلهم وعنادهم
لا يعلمون شيئا من حكم الله فى أفعاله ، ولا من سنته فى خلقه .
وقوله - تعالى - : **دولكن أكثرهم لا يعلمون ،** يفيد أنهم لا يؤمنون
حتى وإن جاءهم الآيات التى اقترحوها ، لأن عدم إيمانهم ليس عن نقص
فى الدليل وليكنه عن تكبر وجحود .

ثم ذكر - سبحانه - بعض الآيات الكونية المبثوثة فى الأرض والجو
والمعروضة على البصائر والأبصار فقال - تعالى - :

(٧ - سورة الأنعام)

• وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، -
الدابة : كل ما يدب على الأرض من حيوان . والطائر : كل ذي جناح .
يسبح في الهواء ، والأمم : جمع أمة وهي جماعة يجمعهم أمر ما .
والمعنى : إنه لا يوجد نوع ما من أنواع الأحياء التي تدب على الأرض
ولا من أنواع الطير التي تسبح في الهواء إلا وهي أمم مماثلة لكم في أن الله
خلقهم وتكفل بأرزاقهم .

قال صاحب الكشف : فإن قلت ما الغرض من ذكر ذلك ؟ قلت :-
الدلالة عن عظم قدرة الله . وسعة سلطانه ، وتدبير تلك الخلائق المتفاوتة
الاجناس ، المتكاثرة الاصناف ، وهو حافظ لما لها ، وما عليها ، مهيم على
أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكافين ليسوا بمختصرين بذلك
دون من عداهم من سائر الحيوان ، (١) .
وذكر الجناحين في الطير لتوجيه الأنظار إلى بديع صمته - سبحانه -
وحسن خلقه .

قال - تعالى - : وأولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن
إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ، (٢) .
ثم قال - تعالى - : وما فرطنا في الكتاب من شيء . ثم إلى ربهم يحشرون ، -
التفريط في الأمر : التفصيل فيه وتفصيله حتى يقوت . والمراد بالكتاب
الروح المحفوظ وقيل المراد به القرآن .
والمعنى : ما تركنا في الكتاب شيئاً لم نخصه ولم نقبضه ، وإنما أحطنا بكل
شيء علماً ، وليس من مخلوق صغر أو كبر في هذا الوجود إلا وسيجمع
يوم القيامة أمام خالقه .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢١

(٢) سورة الملك : الآية ١٩

فالأية الكريمة مسوقة لبيان سعة علم الله - تعالى - وكمال قدرته ، لتكون كالدليل على أنه - سبحانه - قادر على تنزيل الآية التي اقترحوها ، وإنما لم ينزلها لأن حكمته تقتضى ذلك .

وجملة ما فرطنا في الكتاب من شيء ، معترضة لتقدير مضمون ما قبلها . والتعبير بشئ في قوله وشم إلى ربهم يحشرون ، للإشارة إلى أنهم أعداد لا يحصيها العد ، وجمعهم ليس يسيرا في ذاته ، وإن كان بالنسبة لقدرته - تعالى - أمرا هينا .

ويرى بعض العلماء أن المراد بحشر البهائم موتها . ويرى آخرون أن المراد بعثها يوم القيامة لقوله - تعالى - : وإذا الوحوش حشرت . وفي الحديث الشريف عن أبي ذر الغفاري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى شاتين تتناطحان فقال : يا أبا ذر هل تدري فيم تتناطحان ؟ قال : لا . قال : ولكن الله يدري وسيقضى بينهما .

ثم قال - تعالى - : والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات .

أى : مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل الأصم الذى لا يسمع ، والابكم الذى لا يتكلم وهو مع ذلك فى ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى طريق القويم أو يخرج مما هو فيه من ضلال .

ففى التعبير القرآنى لاستعارة تمثيلية إذ شبهت حال الجاحدين المعرضين عن كل دليل وبرهان بحال الصم البكم الذين يعيشون فى الظلام من حيث لا نور يهديهم .

ثم قال - تعالى - : ومن يشأ الله بضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ، أى : من يشأ الله له الضلالة أضله بأن يجعله يسير فى طريق هواه بسبب إعراضه عن طريق الخير ، وإيثاره للعمى على الهدى ، ومن يشأ الله له الهداية يهده ، لأنه قد خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فالهداية والضلالة ليسا إجباريين لا اختيار للعد فىهما ، وإنما الحق أن للعبد اختيارا فى الطريق

الذي يسلكه ، فإن كان خيرا خطا فيه إلى النهاية ، وإن كان شرا سار فيه إلى الهاربة .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين عند ما تحيط بهم المصائب والأهوال لا يتوجهون بالضراعة والدعاء إلا إلى الله ، وأنهم مع ذلك لا يخلصونه بالعبادة كما يخلصونه بالدعاء ، لكشف الضر ، فقال - تعالى - :

قُلْ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٥﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

• أرايتكم ، المقصود به أخبروني ، وكلمة أرايت في القرآن نستعمل التنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو استفهام للفتنة مؤاده : أرايت كذا فإن لم تكن رأيت فأنظره وتأمله .
والمعنى : قل - يا محمد - هؤلاء المشركين : أخبروني عن حالكم عندما

يداهمكم عذاب الله الدنوبى كزلزال مدمر ، أوريح صرصر عانية ، أو تفاجئكم الساعة بأهوالها وشدايدها أستم في هذه الأحوال تلتجئون إلى الله وحده وتفسون آلهتكم الباطلة ، لأن الفطرة حينئذ هي التي تنطق على ألسنتكم بدون شعور منكم ؟ وما دام الأمر كذلك فاماذا تشر كون مع الله آلهة أخرى ؟ إن أحوالكم هذه تدعو إلى الدهشة والغرابة ، لأنكم تلتجأون إليه وحده عند الشدائد والكروب ومع ذلك تعبدون غيره ومن لا يملك ضرا ولا نفعا . والاستفهام في قوله - تعالى - : « أشير الله تدعون ، للتوبيخ والتفريع والتمجيد من حالهم .

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم فادعوها .

ثم أكد - سبحانه - أنهم عند الشدائد والكروب لا يلجأون إلا إلى الله فقال - تعالى - : « بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتفسون ما تشر كون . »

بل الإضراب الانتقالي عن تفكيرهم وأوهامهم ، أى : بل تخصونه وحده بالدعاء دون الآلهة ، فيكشف ما تلتمسون كشفه إن شاء ذلك ، لأنه هو القادر على كل شيء . وتفسون ما تشر كون ، أى : تغيب عن ذاكرتكم عند الشدائد والأحوال تلك الأصنام الزائفة والمعبودات الباطلة .

وقم - سبحانه - المفعول على الفعل في قوله : « بل إياه تدعون ، لإفادة الاختصاص ، أى : لا تدعون إلا إياه ، وذلك يدل على أن المشركين مهما بلغ ضلالهم فإنهم عند الشدائد يتجهون بتفكيرهم إلى القوة الخفية الخالقة لهذا الكون . وفي قوله « فيكشف ما تدعون ، إستعارة حيث شبه حال إزالة الشر بحال كشف غطاء غامر ، ولم يجمع إزالة الضر في كل وإحلال السلامة محله . والمقصود فيكشف الضر الذي تدعونه أن يكشفه : فالكلام على تقدير حذف مضاف .

وجواب الشرط محذوف ، لأن ما قبله دلالة ما قبله عليه ،

أى إن شاء أن يكشف الضر كشفه ، لأنه - سبحانه - لا يسأل عما يفعل .
ثم أخذ القرآن في تسليية النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي بيان أحوال
الأمم الماضية فقال - تعالى - : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم
بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون » .

البأساء : تطلق على المشقة والفقر الشديد ، وعلى ما يصيب الأمم من
أزمات تجتاحها بسبب الحروب والفتن . والضراء : تطلق على الأمراض
والأسقام التي تصيب الأمم والأفراد .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلا إلى أقوامهم ، فكان هؤلاء
الأقوام أعتى من قومك في الشرك والجحود ، فعاقبناهم بالفقر الشديد
والبلاء المزم ، لعلهم يخضعون ويرجعون عن كفرهم وشرهم .

فآية الكريمة تصور لونا من ألوان العلاج النفسى الذى عالج الله به الأمم
التي تكفر بأنعمه ، وتكذب أنبياءه ورسله . إذ أن الآلام والشدائد علاج
للنفوس المغرورة بخارف الدنيا ومتعها إن كانت صالحة للعلاج .

ولقد بين - سبحانه - بعد ذلك . أن تلك الأمم لم تعتبر بما أصابها
من شدائد فقال : « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ،
وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » .

ولولا هنا للنبي ، أى أنهم ما خشعوا ولا تضرعوا وقت أن جاءهم بأسنا .
وقيل إنها للدعوت والتحضيض بمعنى هلا ، أى : فهلا تضرعوا تائبين
إلينا وقت أن جاءهم بأسنا .

وقد اختار صاحب الكشف أنها للنبي فقال : « فلولا إذ جاءهم بأسنا
تضرعوا ، معناه : نبي التضرع ، كأنه قيل . فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا
ولسكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم
وقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن أمرين حالا بينهم وبين التوبة والتضرع عند نزول الشدائد بهم ، أما الأمر الأول : فهو قسوة قلوبهم ، وقد عبر - سبحانه - عن هذا الأمر الأول بقوله : « ولكن قست قلوبهم ، أي : غلظت وجمدت وصارت كالْحجارة أو أشد قسوة .

وأما الأمر الثاني فهو تزوين الشيطان لهم أعمالهم السيئة ، بأن يوحى إليهم بأن ما هم عليه من كفر وشرك وعصيان هو عين الصواب ، وأن ما أتاهم به أنبيأؤهم ليس خيراً لأنه يقتضى مع ما كان عليه آبائهم .
هذان هما الأمران اللذان حالا بينهم وبين التضرع إلى الله والتوبة إليه .
ثم بين - سبحانه - أنه قد ابتلاهم بالنعم بعد أن عاجلهم بالشدائد فلم يرتدوا فقال - تعالى - :

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

والمعنى : فلما أعرضوا عن النذر والمعطات التى وجهها اليهم الرسل ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق وأسباب القوة والجاه . حتى إذا اغتروا وبطروا بما أوتوا من ذلك أخذناهم بغتة فإذا هم متحسرون يائسون من النجاة .

والغناء فى قوله - تعالى - « فلما نسوا » لتفصيل ما كان منهم . وبيان ما ترتب على كفرهم من عواقب قريبة وأخرى بعيدة .

والمراد بالنسيان هنا : الإعراض والترك . أى : أنهم تركوا الإهتمام بما جاء به الرسل حتى نسوه أو جعلوه كالمسى فى عدم الاعتبار والاتعاظ به لإصرارهم على كفرهم ، وجمودهم على تقليد من قبلهم .

والتعبير بقوله « فلما نسوا » يرسم صورة

بطيخة لإقبال الدنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نعمها ، وبكل قوتها وإغرائها ، فهو اختبار لهم بالنعمة بعد أن ابتلاهم باليأساء والضراء .

وعبر — سبحانه — عن إعطائهم النعمة بقوله : « بما أوتوا » ، بالبناء للمجهول لأنهم يحسبون أن ذلك بعلمهم وقدرتهم وحدهم ، كما قال قارون من قبل : « إنما أوتيته على علم عندي » .

وأضاف — سبحانه — الأخذ إلى ذاته في قوله « أخذناهم » ، لأنهم كانوا لا ينكرون ذلك ، بل كانوا ينسون الخلق والإيجاد إلى الله — تعالى — .

وكان الأخذ بقتة ليكون أشد عليهم وأفظع هولاً ، أى أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم . أو حال كونهم مبغوتين ، فقد فجأهم العذاب على غرة بدون إمهال .

وإذا في قوله « فإذا هم مبلسون » فجائية ، والمبلس : الباهت الحزين البائس من الخير ، الذى لا يحير جواباً لشدة ما نزل به من سوء الحال .

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « وإذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ، ثم تلا قوله — تعالى — « فلما نسوا ما ذكروا به .. » الآية . .

ثم قال — تعالى — : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » .

الدابر : الآخر ، والمعنى : فأهلك الله — تعالى — أولئك الأقوام عن آخرهم بسبب ظلمهم وفجورهم ، والحمد لله رب العالمين الذى نصر رسوله وأولياءه على أعدائهم ، وفى ختام هذه الآية بقوله « والحمد لله رب العالمين » . تعليم لنا ، إذ أن زوال الظالمين نعمة تستوجب الحمد والثناء على الله — تعالى — .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة عليهم في خالقهم وتكوينهم ، وبين لهم
إذا سلبهم شيئاً من حواسم فإنهم لا يتجهون إلا إليه فقال - تعالى - :

قُلْ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ
غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ
ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِعَايَاتِنَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاحدين : أخبرون إن سلب الله
منكم نعمتي السمع والبصر فاصبحتم لا تسمعون ولا تبصرون ، وختم على
قلوبكم فصرتم لا تفقهون شيئاً ، من إله غيره يقود على رد ما سلب منكم
وأنتم تعرفون ذلك ولا تشكرونه فلماذا تشركون معه آلهة أخرى ؟ ثم
التفت عنهم الى التعجيب من حالهم فقال - تعالى - : أنظر كيف نصرف
الآيات ثم هم يصدفون ، أى : أنظر كيف تنوع الآيات والحجج والبراهين
فتجعلها على وجوه شتى ليتعظوا ويعتبروا ثم هم بعد ذلك يعرضون عن
الحق ، ويتأون عن طريق الرشاد .
والاستفهام في قوله - تعالى - : أرايتم ، للتنبيه ، أى : د ان لم تكونوا
قد رأيتم ذلك فبينوه وتأملوا ما يدل عليه .
والضمير في (به) يعود الى المأخوذ وهو السمع والبصر والفؤاد .

وفي قوله (أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون) تعجيب من عدم نأثرهم رغم كثرة الدلائل وتنوعها من أسلوب الى أسلوب .
وجملة (ثم هم يصدفون) معطوفة على جملة نصرف الآيات وداخلة في حكمها ، وكان المطف بشم لإفادة الاستبعاد المعنوي ، لأن تصريف الآيات والدلائل يدعو الى الإقبال ، فكان من المستبعد في العقول والأفهام أن يترتب عليه الإعراض والابتعاد .

قال القرطبي : (يصدفون) أى . يعرضون . يقال : صدف عن الشيء . اذا عرض صدفاً وصدوفاً فهو صادف ... فهم ماثلون معرضون عن الحجج والدلالات (١) .

ثم وجه عقولهم الى لون آخر من ألوان الإقناع فقال - تعالى - :
(قل أرايتم ان أناكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون) . بغتة : أى مفاجأة ، وجهرة : أى جهاراً عياناً .
والمعنى : قل لهم أيها الرسول الكريم أخبروني عن مصيركم ان أناكم عذاب الله مباغتاً ومفاجئاً لكم من غير ترقب ولا انتظار ، أو أناكم ظاهراً واضحاً بحيث ترون مقدماته ومباده ، هل يهلك به إلا القوم الظالمون ؟
والاستفهام فى قوله (هل يهلك) بمعنى النفي ، أى : ما يهلك به إلا القوم الظالمون ، الذين أصروا على الشرك والجحود ، فهلاكهم سببه السخط عليهم والمعقوبة لهم ، لأنهم عموا وصموا عن الهداية .
ثم بين - سبحانه - وظيفة الرسل فقال : (وما نرسل المرسلين) إلا مبشرين ومنذرين) ، أى : تلك سنتنا وطريقتنا فى اهلاك المكذبين للرسل ، والمرضين عن دعوتهم ، فإننا ما نرسل المرسلين اليهم الا بوظيفة معينة محددة هى تقديم البشارة لمن آمن وعمل صالحاً ، وسوق الإنذار لمن كذب وعمل سيئاً .
فالجملة السكرية كلام مستأنف مسوق لبيان وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لإظهار أن ما يقترحه المشركون عليهم من مقترحات باطلة ليس من وظائف المرسلين أصلاً .

ثم بين - سبحانه - عاقبة من آمن وعاقبة من كفر فقال : (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا بآياتنا لهم العذاب بما كانوا يفسقون) .

والمعنى : فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأصلح في عمله . فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذي يزل بالجاهدين ، ولا من عذاب الآخرة الذي يحل بالمكذبن ، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شيء . فانهم والممس بالامس باليد ، ويطلق على ما يصيب المرء من ضر أو شر - في الغالب - وفي قوله (يمسهم العذاب) استعارة تبعية ، فكأن العذاب كان حتى يفعل بهم ما يريد من الآلام والعذاب .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله (صلى الله عليه وسلم) الاجوبة الحاسمة التي تدمغ شبهات الكافرين ، ولعين ضلال مقترحاتهم فقال :

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ
مَعْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ
تَابِعُوا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰ قُلِّ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ
لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ
مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يقترحون عليك المقترحات الباطلة قل لهم : ايس عندى خزائن الرزق فأعطيكم منها ما تريدون ، وإنما ذلك لله — تعالى — فهو الذى له خزائن السموات والأرض ، وقد كان المشركون يقولون للنبي — صلى الله عليه وسلم — إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع عيشنا ويغنى فقرنا ، وقل لهم كذلك إني لا أعلم الغيب فأخبركم بما مضى وبما سيقع فى المستقبل ، وإنما علم ذلك عند الله ، وقد كانوا يقولون له أخبرنا بما ينفعنا ويضرنا فى المستقبل . حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار ، وقل لهم : إني لست بمالك فاطلع على ما لا يطلع عليه الناس وأقدر على ما لا يقدرون عليه . وقد كانوا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل طعاما ويمشى فى الأسواق ثم يزوج النساء .

ثم بين لهم وظيفته فقال : (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) أى إن وظيفتى اتباع ما يوحى الى من ربى . فأنا عبده وممثل لأمره ، وحاشاى أن أدعى شيئا من تلك الأشياء التى اقترحوها على . فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لإظهار تبريه عما يقترحونه عليه .

ثم بين لهم — سبحانه — الفرق بين المهتدى والضال فقال . (قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) .

أى : قل لهم : هل يستوى أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم الذى دعوتكم إليه ، وذو البصيرة المنيرة التى اهتدت إلى الحق فآمنت به واتبعته ؟

فالمراد بالأعمى الكافر الذى لم يستجب للحق ، وبالبصير المؤمن الذى اتقاد له .

والاستفهام للانكار ونفى الوقوع ، أى : كما أنه لا يتساوى أعمى العينين
وبصيرهما ، فكذلك لا يتساوى المهتدى والضال والرشيد والسفيه بل إن الفرق
بين المهتدى والضال أقوى وأظهر ، لأنه كم من أعمى العينين وبصير القلب هو
من أعلم العلماء وأهدى الفضلاء وكم من بصير العينين أعمى القلب هو أضل من
الأنعام ، ولذا قرعهم الله - تعالى - بقوله : « أفلا تتفكرون ؟ » أى : أفلا
تتفكرون فى ذلك فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الإسلام ، وبين صفات
الرب وصفات الإنسان والاستفهام هنا للتجريض على التفكير والتدبر .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يحثهم فى إنذار قوم يتوقع
منهم الإصلاح والاستجابة للحق ، بعد أن أمره قبل ذلك بتوجيه دعوته إلى
الناس كافة فقال تعالى : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم
ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلمهم يتقون » .

والماضى : عطف وخوف يا محمد بهذا القرآن أولئك الذين يخافون شدة الحساب
والعقاب ، وتعتريهم الرهبة عندما يتذكرون أهوال يوم القيامة لأنهم
يعلمون أنه يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة ، فهو لا هم الذين ترجى
هدايتهم لركة قلوبهم وتأثرهم بالعظات والعبر .

فالمراد بهم المؤمنون العصاة الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ولذا قال
ابن كثير : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم .) أى وأنذر
بهذا القرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين يخشون ربهم
ويخافون سوء الحساب أى : يوم القيامة ، (ليس لهم) يومئذ (من دون الله
ولى ولا شفيع) أى : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أرادهم بهم
(لعلمهم يتقون) فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه
ويضاعف لهم الجزيل من ثوابه (١) .

ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرب فقراء المسلمين من مجلسه لأنهم مع فقرهم أفضل عند الله من كثير من الأغنياء . فقال تعالى :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .

أى : لا تبعد أيها الرسول الكريم عن مجالسك هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين يدعون ربهم صباح مساء ، ويريدون بعملهم وعبادتهم وجه الله وحده . بل اجعلهم مجالسك وأخصاءك فهم أفضل عند الله من الأغنياء المتغطرسين والأقوياء الجاهلين .

وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن مسعود قال : (مر الملائكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا : يا محمد أرضيت هؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ؟ نحن نصير تبعاً هؤلاء ؟ لا أطردكم فلعلك إن طردتهم تتبعك . فنزلت هذه الآية (١) :

ففي الآية السكرية نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يطرد هؤلاء الضعفاء من مجلسه . لأنه وإن كان صلى الله عليه وسلم يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للإسلام لينال بقوتهم قوة ، إلا أن الله تعالى بين له أن القوة في الإيمان والعمل الصالح ، وأن هؤلاء الضعفاء من المؤمنين قد وصفهم خالقهم بأنهم يتضرعون إليه في كل أوقاتهم ولا يقصدون بعبادتهم إلا وجه الله ، فكيف يطردون من مجالس الخير ؟

ثم قال تعالى : (ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردم فتكون من الظالمين) .

أى : إن الله تعالى هو الذى سيتولى حسابهم وجزاءهم ولن يعود عليك من حسابهم شيء ، كما أنه لا يعود عليهم من حسابك شيء ، فهم مجزون .

بأعمالهم ، كما أنك أنت يا محمد مجزى بعملك ، فإن طردتهم استجابة لرضي
غيرهم كنت من الظالمين . إذ أنهم لم يصدر عنهم ما يستوجب ذلك ، وحاشا
لرسول صلى الله عليه وسلم أن يطرد قوماً تلك هي صفاتهم .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : أما كفى قوله (ما عليك من حسابهم
من شيء) حتى ضم إليه (وما من حسابك عليهم من شيء) ؟ قلت : قد جمعت
الجلتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى في قوله :
(ولا تزر وازرة وزر أخرى) ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجلتان جميعاً
كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه .

وقيل : الضمير للمشركين . والمعنى : لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم
حتى يهلك إيمانهم ويحركك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين (١) .

وهنا تخرج آخر لقوله : (ما عليك من حسابهم من شيء) ، وما من
حسابك عليهم من شيء) بأن المعنى : ما عليك شيء من حساب رزقهم إن
كانوا فقراء ، وما من حسابك في الفقر والغنى عليهم من شيء ، أى أنت مبشر
ومنذر ومبلغ للناس جميعاً سواء منهم الفقير والغنى ، فكيف تطرد فقيراً
لفقره ، وتقرب غنياً لغناه ؟ إنك إن فعلت ذلك كنت من الظالمين ، ومعاذ
الله أن يكون ذلك منك .

وقوله (فتكون من الظالمين) جواب للنهي عن الطرد ، وقوله (فتطردهم)
جواب لنفي الحساب .

ثم قال تعالى : (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا : هؤلاء من الله
عليهم من بيننا . أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

والمعنى : ومثل ذلك للفتن . أى الابتلاء والاختبار ، جعلنا بعض البشر فتنة لبعض ، ليرتب على هذه الفتن أن يقول المفتونون الأقوياء فى شأن الضعفاء : أهؤلاء الصعاليك خصمهم الله بالإيمان من بيننا ، وقد رد الله عليهم بقوله (أليس الله بأعلم الشاكرين) أى : أليس هو بأعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيرفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

والكاف فى قوله (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ..) فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف والتقدير : ومثل ذلك الفتون المتقدم الذى فهم من سياق أخبار الأمم الماضية فتنا بعض هذه الأمم ببعض ، ومن مظاهر ذلك أننا ابتلينا الغنى بالفقر ، والفقر بالغنى ، فكل واحد مبتلى بضده ، فكان ابتلاء الأغنياء الشرفاء حسدكم لفقراء الضحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم ، فامتنعوا عن الدخول فى الإسلام لذلك ، فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم وأما فتنة الفقراء بالأغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم . فكان ذلك فتنة لهم (١) .

واللام فى قوله ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) تعليلية لانهاى الباعث على الاختبار أى : ومثل ذلك الفتون فتنا ليقولوا هذه المقالة ابتلاء منا وامتحاننا .

والاستفهام فى قوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) للتقرير على أكمل وجه لأنه سبحانه محيط بكل صغير وكبير ودقيق وجليل .

وكذلك تكون الآيات الكريمة قد قررت أن الفضل ليس بالغنى ولا بالجاه ولا بالقوة فى الدنيا ، ولكنه بمقدار شكر الله على ما أنعم ، وأنه سبحانه هو العالم وحده بمن يستحق الفضل علماً ليس فوقه علم د

وَإِذَا جَاءَكَ

لَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
رَحْمَةً أَنَّهُ مِّنْ عَمَلٍ مُّنكَرٍ سُوْءٍ ۖ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ
فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَن أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

السلام والسلامه مصدران من الثلاثي . يقال سلم فلان من المرض أو من
البلاء سلاماً وسلامه ومعناها البراءة والعافية . ويستعمل السلام في النجاة ،
وهو بمعنى الدعاء بالسلامة من كل سوء ، فهو آية المودة والأمان والصفاء .
والمعنى : وإذا حضر إلى مجالسك يا محمد أولئك الذين يؤمنون بآياتنا
ويعتقدون صحتها فقل لهم : نحية لكم من خالفكم وبشارة لكم بمغفرته ورضوانه
مادمتم متبعين لهديه ، ومحافظين على فرائضه .
(كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى أنه سبحانه أوجب على نفسه الرحمة
لعباده تفضلاً منه وكرماً .

ثم بين سبحانه أصلاً من أصول الدين في هذه الرحمة المكتوبة فقال دأبه
من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم .
أى أنه من عمل منكم عملاً تسوء عاقبته متلبساً بجهالة دفعته إلى ذلك
للسوء كغضب شديد ثم تاب من بعد تلك الجهالة وأصلح خطاه وندم على
ما بدر منه ، ورد المظالم إلى أهلها ، فأنه سبحانه شأنه في معاملته لهذا التائب
النادم أنه غفور رحيم ،

ثم قال تعالى (وكذلك تفصل الآيات) المنزلة في بيان الحقائق التي
يبتدى بها أهل للنظر للصحيح والفقه الدقيق .

و لتستبين سبيل المجرمين ، أى ولاجل أن يظهر بها طريق المجرمين
فيمتازوا بها عن جماعة المسلمين .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يصارح أعداءه ببراءته
من شركهم ومن اتباع باطلهم فقال - تعالى - : قل إني نهيته

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في الآية المتقدمة ما يدل
على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين . ذكر في هذه
الآية أنه - تعالى - نهى عن سلوك سبيلهم فقال : إني نهيت أن أعبد الذين
تدعون من دون الله ، وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض
الهووى والتقليد لا على سبيل الحجة والدليل ، لأنها جمادات وأحجار وهى أخس
مرتبة من الإنسان بكثير . وكون الأشرف مشغولا بعبادة الأخس أمر يدفعه
صريح العقل وأيضاً فالقوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبوها ، ومن
المعلوم بالبديهة أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معمولة ومصنوعة ،
فثبت أن عبادتها مبنية على الهوى ومضادة للهدى ، (١) .

والمعنى : قل يا محمد طؤلاً المشركين الذين يريدون منك أن تركن إليهم .
إن الله نهانى وصرفنى بفضله ، وبما منحنى من عقل وفكر عن عبادة الآلهة
التي تعبدونها من دون الله ، وقل - أيضاً - لهم بكل صراحة وقوة : إني لست
متبعاً لما تملية عليكم أهواؤكم وشهواتكم من انقياد للأباطيل ، ولو أنى
ركنت إليكم اضللت عن الحق وكنت خارجاً عن طائفة المهتدين .

فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ قَطَعَتْ بِكُلِّ حَسَمٍ وَوَضُوحُ أَطْعَامِهِمْ الْفَارِغَةُ فِي اسْتِمَالَةِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى أَهْوَائِهِمْ ، وَصِحَّتْهُمْ بِأَنَّهُمْ فِي الضَّلَالِ غَارِقُونَ ، وَهَنَ الْهَدْيُ مَبْتَعِدُونَ .

وَجَاءَتْ كَلِمَةُ نَهَيْتَ ، بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ الْإِسْتِغْنَاءِ مِنْ ذِكْرِ الْفَاعِلِ أَفْهَوْرُهُ أَيْ : نَهَانِي اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْ ذَلِكَ . وَأَجْرَى عَلَى الْأَصْنَامِ اسْمَ الْمَوْصُولِ الْمَوْضُوعِ لِلْعُقْلَاءِ . لِأَنَّهُمْ عَامِلُومُ مَعَامِلَةِ الْعُقْلَاءِ . فَأَنَّى لَهُمْ بِمَا يَحْكِي اعْتِقَادَهُمْ .

قَالَ أَبُو حَيَّانَ : ، وَتَدْعُونَ مَعْنَاهُ تَعْبُدُونَ : وَقِيلَ مَعْنَاهُ تَسْمُوْنَهُمْ آلِهَةً مِنْ دَعْوَتٍ وَلَدَى زَيْدٍ أَيْ سَمِيَتْهُ بِهَذَا الْإِسْمِ . وَقِيلَ تَدْعُونَ فِي أُمُورِكُمْ وَحَوَائِجِكُمْ وَفِي قَوْلِهِ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ اسْتِجْهَالٌ لَهُمْ وَوَصْفٌ بِالْاِقْتِحَامِ فَيَمَا كَانُوا مِنْهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ ، وَلَفْظَةُ نَهَيْتَ أَبَاحَ مِنَ النَّفْيِ بِلَا أَعْبَدَ إِذْ وَرَدَ فِيهِ وَرُودُ تَكْلِيفٍ ، (١) .

وَجُمْلَةُ « قُلْ لَا أَتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ » ، مُسْتَأْنَفَةٌ ، وَعَدَلَ بِهَا عَنِ الْعَطْفِ إِلَى الْاِسْتِثْنَاءِ لِتَكُونَ غَرَضًا مُسْتَقْلِلًا ، وَأَعِيدَ الْأَمْرُ بِالْقَوْلِ زِيَادَةً فِي الْاهْتِمَامِ بِالْاِسْتِثْنَاءِ وَاسْتِقْلَالِهِ لِيَكُونَ هَذَا النَّفْيُ شَامِلًا لِلْإِتْبَاعِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَفِي غَيْرِهَا مِنْ أَلْوَانِ ضَلَالِهِمْ كَهَلْبِهِمْ طَرْدَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَهَبْرَ قَوْلِهِ « قُلْ لَا أَتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ » ، دُونَ لَا أَتَّبِعُكُمْ . الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ لَغَيْرِ اللَّهِ تَابِعُونَ لِلْأَهْوَاءِ الْبَاطِلَةِ ، نَابِغُونَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ ، وَفِي هَذَا أَكْبَرُ بَرَهَانٍ عَلَى انْطِمَاسِ بَصِيرَتِهِمْ ، وَبَنَائِهِمْ لِدِينِهِمْ عَلَى الْأَوْهَامِ وَالْاِبَاطِيلِ .

وَجُمْلَةُ « قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا » ، جَوَابٌ لِشَرْطِ مُقَدَّرٍ . أَيْ : إِنْ أَتَّبَعْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ فَقَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا رَمَا أَهْدَيْتُمْ .

وَجُمْلَةُ « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » ، مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ « قَدْ ضَلَلْتُمْ » ، وَمَوْكِدَةٌ

لمضونها أى : إنه إر فعل ذلك - على سبيل الفرض والتقدير - خرج عن الحالة التى هو عليها الآن من كونه فى عداد المهتدين الى كونه فى زمرة الضالين .

والتعبير بقوله « وما أنا من المهتدين » ، أبلغ من قوله « وما أنا مهتد » ، لأن التعريف فى المهتدين تعريض للجنس ، وإخبار المتكلم عن نفسه بأنه من المهتدين يفيد أنه واحد من الفئة التى تعرف عند الناس بفئة المهتدين ، فيفيد أنه مهتد بطريقة تشبه طريقة الاستدلال ، فهو من قبيل الكناية التى هى إثبات الشئ بإثبات ملزومه وهى أبلغ من التصريح . ولذا قال صاحب الكشاف قولك فلان من العلماء . أبلغ من قولك فلان عالم ، لأنك تشهد له بكونه معدوداً فى زمرة من ومعرفة مساهمته معهم فى العلم .

وبعد أن أمر الله - تعالى - نبيه بمصارحة المشركين بأنه لن يكون فى يوم من الأيام متبعاً لأهوائهم ، أمره أن يخبرهم بأنه على الحق الواضح الذى لا يضل متبعه ، وبأن الله وحده هو الذى سبقضى بينه وبينهم فقال - تعالى - :

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ
 إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَّوْ
 أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ
 مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي
 ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

البينة الدلالة الواضحة من بان يبين إذا ظهر ، أو الحجة الفاصلة بين

الحق والباطل على أنها من البيّنات أى الانفصال .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك اتباع أهوائهم كيف يتأتى لى ذلك وأنا على شريعة واضحة وهمة صحيحة لا يعترها شك ، ولا يخالطها زيغ لأنها كائنة من ربى الذى لا يضل ولا ينسى .

والتنوين فى كلمة « بينة » للتفخيم والتنظيم ، وهى صفة لموصوف محذوف للعلم به فى الكلام ، أى : على حجة بينة واضحة محقة للحق وبمبطله للباطل فأما ان أتزحزح عنها أبدا .

وفى ذلك تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ، وإنما هم قد اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وجملة « وكذبتم به » فى موضع الحال من « بينة » وهى تفيد التعجب منهم حيث كذبوا بما دلت عليه البيّنات ، وانفقت على صحته العقول السليمة . والضمير فى قوله « به » يعود على الله - تعالى - أى : وكذبتم بالله مع أن دلائل توحيده ظاهرة واضحة .

وقيل يعود على البيّنة والتذكير باعتبار أنها بمعنى البيان .

وقيل يعود على القرآن أى والحال أنكم كذبتم بالقرآن الذى هو بيتى

من ربى .

وقوله « ما عندى ما تستعجلون به » أى : ليس فى مقدورى أن أنزل

بكم ما تستعجلونه من العذاب ، وإنما ذلك مرجعه إلى الله وحده .

وهذه الجملة الكريمة رد على المشركين الذين استعجلوا نزول العذاب

عند ما أنذرهم النبى (صلى الله عليه وسلم) بسوء المصير إذا ما استمروا

فى صلاتهم ، فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا « اللهم إن كان هذا هو الحق

مر عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فكان رد النبى

(ﷺ) عليهم بأن الذى يملك إنزال العذاب بهم إنما هو الله وحده ، وتأخير

للعذاب عنهم إنما هو بقدر وقت نزوله .

وقوله : إن الحكم لإلا لله ، أى : ما الحكم فى تعجيل الله . أب أو تأخير .
وفى كل شأن من شئون الخلق إلا لله وحده فهو - سبحانه - الذى ينزل
قضائه حسب سنته للحكمة ، وموازينه الدقيقة .
وقرأ المكسائى وغيره : يقض الحق ، أى : يقض - سبحانه - للقضاء
الحق فى كل شأن من شئونه .

وقوله : يقض الحق ، أى : يتبع الحق والحكمة فيها بحكم به ويقدره
د وهو خير الفاصلين ، أى : القاضين بين عباده .

قال ابن جرير : د وهو خير الفاصلين ، أى : وهو خير من ميز بين
الحق والمبطل وأعد لهم ، لأنه لا يقع فى حكمه وقضائه حيف إلى أحد
لوسيلة إليه ولا لقراينة ولا مناسبة ، ولا فى قضائه جور لأنه لا يأخذ الرشوة
فى الأحكام فيجور ، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين ، (١) .

ثم بين - سبحانه - حالهم فيها لو كان أمر لإزالة العذاب عنهم بيد الذى
عليه الصلاة والسلام فقال : قال لو أن هندى

أى : قل لهم يا محمد لو أن فى قدرى وإمكانى العذاب الذى تتمجلونه ،
لقضى الأمر بينى وبينكم .

قال صاحب المكشاف أى : لآهلاكنكم عاجلاً غضباً لربى . وامتعاضاً
من تكذيبكم به ، ولتخلصت منكم سريعاً ، (٢) .

وجملة : والله أعلم بالظالمين ، تذييل ، أى : والله أعلم منى ومن كل أحد
بحكمة تأخير العذاب وبوقت نزوله ، لأنه العالم الخبير الذى عنده
ما تستعملون به .

والتعبير : بالظالمين ، إظهار فى مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنهم

(١) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٢٥

(٢) تفسير المكشاف ج ٢ ص ٢٠ طبعة بيروت .

ظالمون في شرهم وظالمون في تكذيبهم لما جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم).
 قال ابن كثير : فإن قيل : فكيف الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في
 الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا رسول الله ،
 هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان
 أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد الويل بن عبد كلال
 فلم يجيبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن
 الثعالب (١) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني فنظرت فيها فإذا جبريل
 فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وماردوا به عليك وقد بعث
 إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال
 يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك
 لتأمرني بأمرك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال له رسول الله :
 بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له .

فقد عرض عليه عذابهم واستنصاهم فاستأناهم وسأل لهم التأخير لعل
 الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً .

قال ابن كثير فالجواب على ذلك - والله أعلم - أن هذه الآية دلت
 على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ،
 وأما الحديث فليس فيه أنهم سأله وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك
 الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين وهما جبل مكة يكتفانها جنوباً
 وشمالاً فلهذا استأني بهم وسأل للرفق لهم ، (٢) .

ثم يعض السياق القرآني مع المكذبين المتعجلين للعذاب ، فيسوق لهم

(١) قرن الثعالب أو قرن المنازل : اسم مكان على بعد يوم وليلة من

مكة وهو ميقات أهل نجد .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٦

صورة لعلم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو

قال القرطبي : « مفاتيح ، جمع مفتاح ، ويقال مفتاح ويجمع مفاتيح ، وهي قراءة ابن السميعة ، والمفتاح عبارة عن كل ما يخل غلقاً محسوساً كان كالقفل على البيت أو معقولا كالنظر ، وروى ابن ماجه في سننه وأبو حاتم البستي في صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه ، وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى الغيب عن الإنسان . ولذلك قال بعضهم هو مأخوذ من قول الناس افتح على كذا ، أى : أعطنى أو علمنى ما أتوصل إليه به فانه - تعالى - عنده علم الغيب ، ويده الطرق الموصلة إليه لا يعلمها إلا هو ، فمن شاء إطلاعهم عليها أطلعهم ، ومن شاء حجبهم عنها حجبهم . . . » (١) .

والغيب : ما غاب عن علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى معرفته ، وهو يشمل الأعيان المغيبة كالملائكة والجن ، ويشمل الأعراض الخفية وواقبت الأشياء وغير ذلك . وقدم الظرف لإفادة الاختصاص ، أى : عنده لا عند غيره مفاتيح الغيب ، وجملة لا يعلمها إلا هو ، في موضع الحال من مفاتيح ، وهي مؤكدة لمضمون ما قبلها .

ومعنى « لا يعلمها إلا هو » ، أى : لا يعلم الغيوب علماً تاماً مستقلاً إلا هو - سبحانه - فأما ما أطلع عليه بعض أصفياه من الغيوب فهو إخباره به لهم .

فكان في الأصل راجعاً إلى علمه هو . قال - تعالى - عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، .

ثم بين - سبحانه - أن علمه ليس مقصوراً على المغيبات وإنما هو يعملها كما يشمل المشاهدات فقال : ويعلم ما في البر والبحر ، .

قال الراغب : أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير ، وقيل إن أصله الماء المالح دون العذب وأطلق على النهار بالتوسع أو التخليب ، والبر ما يقابله من الأرض وهو ما يسمى باليابسة .

وهذه الجملة معطوفة على جملة ، وعنده مفاتيح الغيب ، لإفادة تعميم علمه - سبحانه - بالاشياء الظاهرة المتفاوتة في الظهور بعد افادة علمه بما لا يظهر للناس .

وقدم ذكر البر على البحر على طريقه الترقى من الأقل إلى الأعظم ، لأن قسم البحر من الأرض أكبر من قسم البر ، وخفائها أكثر وأعظم ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر .

ثم صرح - سبحانه - بشمول علمه لكل كلى وجزئى ، ولكل صغير وكبير ، ولكل دقيق وجليل ، فقال - تعالى - وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ، . أى : وما تسقط ورقة ما من شجرة من الأشجار ولا حبة في باطن الأرض وأجوافها ، ولا رطب ولا يابس من الثمار أو غيرها إلا ويعلمه الله علماً تاماً شاملاً ، لأن كل ذلك مكتوب ومحفوظ في العلم الإلهى الثابت .

وجملة : وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، معطوفة على جملة ، ويعلم ما في البر والبحر ، لقصد زيادة التعميم في الجزئيات الدقيقة .

والمراد بظلمات الأرض بطونها ، وكفى بالظلمة عن البطان لأنه لا يدرك ما فيه كما لا يدرك ما في الظلمة .

وقوله « إلا في كتاب مبين » ، تأكيد لقوله « لا يعلمها » ، لأن المراد بالكتاب المبين علم الله - تعالى - الذي وسع كل شيء ، أو اللوح المحفوظ - الذي هو محل معلوماته - عز وجل - .

قال الإمام الرازي : قال الزجاج : يجوز أن الله - تعالى - : أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال - تعالى - : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا كتاب من قبل أن نبرأها » .
ثم قال الإمام الرازي : وفائدة هذا الكتاب أمور :

أحدها : أنه - تعالى - : إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ - لتقف الملائكة على نفاذ علمه في المعلومات ، وأنه لا يغيب عنه مما في السموات والأرض شيء ، فيكون ذلك هبة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقاً له .
وثانيها : أنه يجوز أن يقال : أنه - تعالى - : ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيهاً للمكلفين على أمر الحساب ، وإعلاماً بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى .

وثالثها : أنه - تعالى - : علم أحوال جميع الموجودات ، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع - أيضاً - تغييرها ، وإلا لزم الكذب ، فتصير كتابة جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجبا تاما ، وسببا كاملا في أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم كما قال صلى الله عليه وسلم : « حُف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » ، (١) .

ويؤخذ من هذه الآية السريعة أمور من أهمها :

أن علم الله - تعالى - : محيط بالكميات والجزئيات ، وبكل شيء في هذا الكون ، وبذلك يتبين بطلان رأى بعض الفلاسفة الذين قالوا بأن الله يعلم الكميات ولا يعلم الجزئيات .

أن علم الغيب مرده إلى الله وحده ، قال الحاكم : دل قوله تعالى ووعده
مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم
شيئاً من الغيب .

وقال القاسمي : قال صاحب «فتح البيان» : في هذه الآية الشريفة
ما يدفع أباطيل الحكماء والمنجمين وغيرهم من مدعي الكشف والإلهام
ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم . ولقد ابتلى
الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة ، ولم
يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم سوى خلة السوء المذكورة في قول الصادق
المصدوق صلى الله عليه وسلم : من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على
محمد ، قال ابن مسعود : أوتي نبيكم كل شيء إلا مفاتيح الغيب .

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله . لا يعلم أحد ما يكون في غد
إلا الله ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله . ولا تعلم نفس
ماذا تكسب غداً ، ولا تدري نفس بأى أرض تموت ، ولا يدري أحد متى
يجي المطر ، (١) .

وقال القرطبي : قال هنادونا : أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير
ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده ، فمن قال : إنه يغزل الغيث غداً
وجزم فهو كافر ، وكذلك من قال : إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر... وفي صحيح
مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخبر
بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : « قل لا يعلم
من في السموات والأرض الغيب إلا الله » ثم قال : وقد انقلب الأحوال في
هذه الأزمان يأتیان المنجمين والحكماء لاسيما بالديار المصرية فقد شاع في
رؤسائهم وأنباهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين ، بل ولقد انخدع كثير من
المتنسين للفقير والدين فلجأوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهروا علمهم بالمحال ،

واستخرجوا منهم الأموال ، فحصلوا من أقوالهم على السراب (١) والآل ،
ومن أديانهم على الفساد والضلال ، وكل ذلك من الكبائر لحديث النبي ﷺ
« من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما ، والعراف
هو الحازر والمنجم الذي يدعى علم الغيب (٢) .
وبعد أن بين - سبحانه - شمول علمه لكل شيء ، أتبع ذلك بالحديث
عن كمال قدرته ، ونفاذ إرادته فقال - تعالى - :

وهو

الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ
أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ
الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجِنَا مِنْ هَٰذِهِ
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ
أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

(١) السراب : ما يراه الشخص في منتصف النهار ملتصقا بالأرض كأنه ماء
جار وهو ليس بشيء . الآل : ما يراه بالضحى كأنه الماء بين السماء والأرض
(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣ .

قوله - تعالى - : (وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى : ينيمكم فيه .
 والتوفى أخذ الشيء وافياً ، أى تاماً كاملاً . والتوفى يطلق حقيقة على الإمامة
 وإطلاقة على النوم - كما هنا مجاز لشبه النوم بالموت فى انقطاع الإدراك
 والعمل والإحساس قال - تعالى - : (والله يتوفى الأنس حين موتها
 والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى
 أجل مسمى) فهذه الآية صريحة فى أن التوفى أعم من الموت ، فقد صرحت
 بأن الأنفس التى تتوفى فى منامها غير ميتة ، فهناك وفانان : وفاة كبرى
 وتكون بالموت ، ووفاة صغرى وتكون بالنوم . والمعنى : وهو - سبحانه -
 الذى يتوفى أنفسكم فى حالة نومكم بالليل ، دون غيره لأن غيره لا يملك
 موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

(ويعلم ما جرحتم بالنهار) أى : ما كسبتم وعملتم فيه من أعمال .
 وأصل الجرح تمزيق جلد الحى بشئ محدد مثل السكين والسيوف والظفر
 والناب وأطلق هنا على ما يكسبه الإنسان بجوارحه من يد أو رجل أو لسان .

وتخصيص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على الممتد ، لأن الغالب
 أن يكون النوم ليلاً ، وأن يكون الكسب والعمل نهاراً ، قال - تعالى - :
 (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) .

(ثم يبعثكم فيه إلهى أجل مسمى) أى : ثم إنه بعد توفيقكم بالنوم
 يوظفكم منه فى النهار ، لأجل أن يقضى كل فرد أجله المسمى فى علم الله
 - تعالى - ، والمقدر له فى هذه الدنيا ، فقد جعل - سبحانه - لأعماركم
 أجلاً محدداً لا بد من قضائها وإتمامها .

وجهة ، ثم يبعثكم فيه معطوفة على (يتوفاكم بالليل) فتكون ثم
 للمهلة الحقيقية وهو الأظهر .

(ثم إليه مرجعكم) أى : ثم إليه وحده

يكون رجوعكم بعد إنقضاء حياتكم في هذه الدنيا ، فيحاسبكم على أعمالكم التي اكتسبتموها فيها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

فآية الكريمة تسوق للناس مظهراً من مظاهر قدرة الله ، وتبرهن لهم على صحة البعث والحساب يوم القيامة ، لأن النشأة الثانية — كما يقول القرطبي — منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى .

هذا ، ويرى جمهور المفسرين أن ظاهر الخطاب في الآية للمؤمنين والكافرين ، ولكن الزمخشري خالف في ذلك فجعلها خطاباً للكافرين فقال : (وهو الذي يتوفاكم بالليل ، الخطاب للكفرة ، أى : أنتم منذ حون الليل كله كالخيف — أى مسطحون على القفا — (ويعلم ما جرحتم بالنهار) ما كسبتم من الآثام فيه (ثم يبعثكم فيه) من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل) وكسب الآثام بالنهار (ليقضى أجل مسمى) وهو الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم (١) .

والذي فراه أن رأى الجمهور أرجح لأنه لم يرد نص يدل على تخصيص الخطاب في الآية للكافرين .

ثم قال - تعالى - : (وهو القاهر فوق عبادة) أى : وهو الغالب المتصرف في شئون خلقه بفعلهم ما يشاء لإيجاد وإعدام وإحياء وأمانة وإثابة وعقابة إلى غير ذلك ، والمراد بالرفوقية فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة .

قال الإمام الرازى : وتقرير هذا القهر من وجوه : الأول ، أنه قهار لعدم بالتكوين والإيجاد . والثانى : أنه قهار للوجود بالإلناء والإفساد ، فإنه

- تعالى - هو الذى ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة ومن الوجود إلى العدم تارة أخرى فلا وجود إلا بإيجاده ولا عدم إلا بإعدامه فى الممكنات والثالث : أنه قهار لكل ضد بضده فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور والنهار بالليل والليل بالنهار ، وتام تقريره فى قوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير) . . (١) .

وقوله (ويرسل عليكم حفظة) أى : ويرسل عليكم ملائكة تحفظ أفعالكم وتحصيها وتسجل ما تعملونه من خير أو شر . قال : - تعالى - : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون) وقال - تعالى - : (إذ يتلقى الملقين عن العرش وعن العمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ ثم يعرج بالذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون) قال صاحب الكشف : فإن قلت إن الله - تعالى - غنى بعلمه عن كتابة الملائكة فما فائدتها ؟ قلت : فيها لطف للعباد ، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم ، والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون أفعالهم وأحوالهم ويكتبونها فى صحائف تعرض على ربهم فى الأشهاد فى موافق القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن الفسح وأبعد عن السوء) (٢) .

وجملة (ويرسل عليكم حفظة) يجوز أن تكون معطوفة على اسم

للفاعل الواقع صلة لأول ، لأنه في معنى يقهـ والتقدير وهو الذي يقهر عباده ويرسل فعطف الفعل على الاسم لأنه في تأويله .

وقوله : حتى إذا جاء أحدكم الموت توفيته رسلنا وهم لا يفرطون ، أى : حتى إذا احتضر أحدكم وحن أجله قبضت روحه ملائكتنا الموكلون بذلك حالة كونهم لا يتوافون ولا يتأخرون في أداء مهمتهم .

قال الألوصى : و حتى في قوله ، حتى إذا جاء أحدكم الموت ، هي التي يبدأ بها الكلام وهي مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كأنه قيل : ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما يحفظون منكم مدة حياتكم ، حتى إذا انتهت مدة أحدكم وجاءت أسباب الموت ومبادهيه توفته رسلنا الآخرون المقوض إليهم بذلك وانتهى هناك حفظ الحفظة . والمرسل بالرسول على ما أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أعوان ملك الموت (١) . وقال الجمل : فإن قلت : إن هناك آية تقول : والله يتوفي الأنفس حين موتها ، وثانية تقول : د قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، والتي معنا تقول : توفته رسلنا ، فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟

فالجواب على ذلك أن المتوفى في الحقيقة هو الله . فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه ، وملك الموت أعوان من الملائكة فيأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده ، فإذا وصلت إلى الخلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه ، وقيل المراد من قوله : توفته رسلنا ، ملك الموت وحده وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له (٢) .

ثم صرح - سبحانه - بأن مصير الخلق جميعا إليه فقال : ثم ردوا إلى

(١) تفسير الألوصى ج ٧ ص ٧٦

(٢) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٤

فألقه مولا هم الحق ، أى : ثم رد الله - تعالى - هؤلاء الذين توفتهم الملائكة إلى مالكمهم الحق الذى لا يشرب ملكه باطل ليتولى حسابهم وجزاءهم على أعمالهم .

فالضمير فى ردوا ، يعود على الخلائق الذين توفتهم الملائكة والمدلول عليهم بأحد . والسر فى الإفرا دأولا والجمع ثانياً وقوع التوفى على الأفراد والرد على الاجتماع . أى : ردوا بعد البعث فيحكم فيهم بعده . قال - تعالى - : قل إن الأولين والآخرين لمجموعين إلى ميقات يوم معلوم .

وقيل إن الضمير فى ردوا ، يعود على الملائكة . أى : ثم ردوا أولئك الرسل بعد إتمام مهمتهم بإمارة جميع الناس فيموتون هم أيضاً . وجملة : ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، تذييل لذلك ابتدئ به أداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخير .

أى : ألا له الحكم الناقد لا لغيره وهو - سبحانه - أسرع الحاسبين لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلائق من تفكر واشتغال بحساب عن حساب . وبذلك تكون هذه الآيات الثلاث قد أقامت أقوى البراهين وأصحها على كمال قدرة الله ، ونفاذ إرادته ، ومحاسبته لعباده يوم القيامة على ما قدموا وأخروا .

ثم ساق القرآن لوفاً آخر من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله وسابغ رحمته وفضله وإحسانه فقال - تعالى - : دقل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، .

قال صاحب الكشاف : ظلمات البر والبحر مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما .

يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب ، أى اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، (١) .

وقيل حمله على الحقيقة أولى فظلمة البرهى ما اجتمع فيه من ظلمة الليل ومن ظلمة السحاب فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق للصواب ، وظلمة البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة الرياح للعاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك . والنصرع : المبالغة فى الضراعة مع الذل والخضوع . والخفية - بالهمز والكسر - الخفاء والاستتار . وللكرب الغم الشديد ما خوذ من كرب الأرض وهو إثارتها وقلبها بالحفر . فالغم يشير للنفس كما يشير الأرض كاربها . والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين من الذى ينجيكم من ظلمات البر والبحر عند ما تغشاكم بأهوالها المرعبة ، وشدائدها المدهشة ، إنكم فى هذه الحالة تلجأون إلى الله وحده تدعونه إعلانا وأسرارا بذلة وخضوع وإخلاص قائلين له : لئن أنجيتنا ياربنا من هذه الشدائد والدواهي المظلمة لنكونن لك من الراشخين فى الشكر المداومين عليه قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى ينجيكم من هذه المخاوف والأهوال ومن كل غم يأخذ بنفوسكم ثم أنتم بعد هذه النجاة تشركون معه غيره ، مخلفين بذلك وعدكم حائشين فى أيمانكم . قال الإمام الرازى : « والمقصود من ذلك أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله ، وهذا الرجوع يحصل ظاهرا وباطنا ، لأن الإنسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله ، ويتقطع رجاءه عن كل ما سواه ، وهو المراد من قوله : تضرعا وخفية ، فين - سبحانه - أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلة الأصلية فى هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله ولا تعويل إلا على فضله وجب أن يبقى هذا الإخلاص فى كل الأحوال ، لكن الإنسان ليس كذلك فإنه بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسدية ويقدم على الشرك .

ولفظ الآية يدل على أنه عند حصول الشدائد يأتي الإنسان بأمور أحدها الدعاء، وثانيها التضرع، وثالثها الإخلاص بالقلب وهو المراد من قوله «خفية»، ورابعها النوام الاشتغال بالشكر، ونظير هذه الآية قوله - تعالى - «وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه...» وقوله «وخلصوا» أي إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا، وإذا انتقلوا إلى الأمن ولطفاهمة أشركوا به (١) .
ثم بين - سبحانه - قدرته على تعذيبهم ثمديدًا لهم حتى يخشوا بأسه أثر بيان قدرته على تنجيهم فقال - تعالى - :

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

والمعنى : قل يا محمد هؤلاء الجاحدين ، إن الله - تعالى - وحده هو القادر على أن يرسل عليكم عذابا عظيما من فوقكم أى : من جهة العلو كما أرسل على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة ، أو من تحت أرجلكم أى من السفلى كما حدث بالنسبة لفرعون وجنده من الغرق ، وبالنسبة لقارون حيث خسف به الأرض .

وقيل : من فوقكم أى من قبل سلاطينكم وأكابركم ، ومن تحت أرجلكم أى : من قبل سفلتكم وعبيدكم . وقيل : هو حبس المطر والنبات .
وتصوير العذاب بأنه آت من أعلى أو من أسفل أشد وقعاً فى النفس من تصويره بأنه آت من جهة اليمين أو من جهة الشمال ، لأن الآتى من هاتين الجهتين قد يتوهم دفعه ، أما الآتى من أعلى أو من أسفل فهو عذاب غامر قاهر مزلزل لا مقاومة له ولا ثبات معه .

وقوله : أو يلبسكم شيعا ، أى : يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء ، متباينة المشارب ، مضطربة الشئون ، كل فرقة تتبع إماما لها تقاتل معه غيرها ، فيزول الأمن ويعم الفساد .

و « شيعا » جمع شيعة وهم الأتباع والأنصار ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ، وقوله : ويذيق بعضكم بأس بعض ، معطوف على ما قبله ، أى : يساط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل ، لأن من عواقب ذلك اللبس التقاتل والتصارع . وفي هاتين الجملتين تصوير مؤثر للعذاب الذى يذوقه للناس بحواسهم إذ يجعلهم - سبحانه - شيعا وأحزابا غير منعزل بعضها عن بعض ، فهى أبدا فى جدال وصراع وفى خصومة ونزاع ، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك ، وذلك أشنع ما تصاب به الجماعة فيا كل بعضها بعضا .

ثم تختم الآية بهذا التعبير الحكيم : أنظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون . .

أى : أنظر وتدبر - أيها الرسول الكريم - أو أيها العاقل كيف تنوع

الآيات والعبر والعظات بالفرغيب تارة وبالترهيب أخرى لعلمهم يفقهون الحق ويدركون حقيقة الأمر ، فينصرفوا عن الجحود والمكابرة ، ويكفوا عن كفرهم وعنادهم .

هذا ، وقد ساق ابن كثير عقب تفسير هذه الآية جملة (١) من الأحاديث منها ما رواه الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي - ﷺ - ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه . ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة . سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالفرق فأعطانيها ، وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها .

بعد هذا التهديد الشديد للمعاندين اتجه القرآن إلى الرسول - ﷺ - فأمره أن يصارح قومه بسوء مصيرهم إذا ما استمروا في ضلالهم فقال : وكذب به قومك وهو الحق ، أي : وكذب جمهور قومك بهذا العذاب الذي حدثناك عنه فظنوا أن الله لن يعذبهم بسبب إعراضهم عن دعوتك ، أو كذبوا بهذا القرآن الذي هو معجزتك الكبرى .

والتعبير عنهم بقومك تسجبل عليهم بسوء المعاملة لمن هو من أنفسهم وجملة « وهو الحق » مستأنفة لقصد تحقيق القدرة على بعث العذاب عليهم ، أو حال من الهاء في به « أي : كذبوا حال كونه حقا ، وهو أعظم في القبح قل لهم - يا محمد - « لست عليكم بوكيل ، أي : لم يفوض إلي أمركم فأمنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق ، فإنا لست بقيم عليكم وإنما أنا منذر وقد بلغتكم رسالة ربي ونصحت إليكم ولاكنتم لا تحبون الناصحين . ثم ختم هذا التهديد بقوله - تعالى - « لكل نيا مستقر وسوف تعلمون » .

قال الراغب : ، النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حق يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ، .

والمستقر : وقت الاستقرار .

أى : لسكل خبر عظيم وقت استقرار وحصول لا بد منه ، وسوف تعلمونه فى المستقبل عند حلوله بكم متى شاء الله ذلك ، قال - تعالى -
« ولتعلمن نبأه بعد حين » .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد سافت ألوانا من قدرة الله ، وهددت المعاندين فى كل زمان ومكان بسوء المصير .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله وأتباعه بأن يهجرُوا المجالس التى لا توقر فيه آيات الله وشرائعه ، فقال - تعالى - :

« وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم . . . » .

قال الراغب : الخوض هو الشروع فى الماء والورود فيه ، ثم استعمل للأخذ فى الحديث فقيل : تخاضوا فى الحديث ، أى : أخذوا فيه على غير هدى وأكثر ما ورد فى القرآن ورد فيها يذم الشروع فيه نحو قوله - تعالى -
« ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » (١) .

والمعنى : وإذا رأيت أيها النبى الكريم ، أو أيها المؤمن العاقل ، الذين

مخوضون في آياتنا بالسكيب والطعن والاستهزاء فأعرض عنهم . وانصرف
عن مجالسهم ، وأرهم من نفسك الاحتقار لتصرفاتهم ، ولا تعد إلى مجالسهم
حتى يخوضوا في حديث آخر ، لأن آياتنا المنسوبة إلينا من حقها أن تعظم
وأن تحترم لا أن تكون محل تهكم واستهزاء .

قال ابن جريج : كان المشركون يجلسون إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)
يحبون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزؤا فنزلت هذه الآية فجعل
(صلى الله عليه وسلم) إذا استهزؤا قام فخذروا وقالوا : لانستهزؤا فيقوم .
ولما عبر عن انتقاهم إلى حديث آخر بالخوض ، لأنهم لا يتحدثون
إلا فيما لا جدوى فيه ولا منفعة من ورائه غالباً .

وقوله «ولما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين»
أي : ولما ينسبك الشيطان ما أمرت به من ترك مجالسة الخائضين على سبيل
الفرض والتقدير فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات
ربهم والاستهزاء بها ، وقد جاء الشرط الأول بإذا لأن خوضهم في الآيات
محقق ، وجاء الشرط الثاني بأن لأن إنساء الشيطان له قد يقع وقد لا يقع .

فإن قيل : النسيان فعل الله فلم أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب بأن السبب
من الشيطان وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر فأضيف إليه لذلك ، كأن
من ألقى غيره في النار فمات يقال : إنه القاتل وإن كان الإحراق فعل الله .
هذا وقد أضاف العلماء من هذه الآية الكريمة أحكاماً من أهمها ما يأتي :

١ - وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله ،
وأن لا يقعد لأن في القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عام
لنا ولرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال القرطبي : من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر ، مؤمناً كان

أو كافرًا ، وقد منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم ويبيعهم ، وكذلك منعوا مجالسة الكفار وأهل البدع . فقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي : اسمع مني كلمة فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة .

وروى الحاكم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : من قرء صاحب بدعة فقد أعانته على هدم الإسلام ، (١) .

وقال صاحب المنار : وسبب هذا النهي أن الإقبال على الخائضين والقيود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء لهم بالتفادي فيه وأكبره أنه رضاه به ومشاركة فيه والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقتضيه باختياره إلا منافق مراد أو كافر مجاهر قال - تعالى - : وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ، (٢) .

٢ - جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض . لأنه إنما أمرنا بالإعراض في حالة الخوض ، وأيضا فقد قال - تعالى - : وحتى يخوضوا في حديث غيره . .

قال بعض العلماء : وحتى غاية الإعراض ، لأنه لإعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أو جيته رعاية المصلحة ، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هدايتهم وإرشادهم إلى أصلها لأنها تمحضت للمصلحة ، (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣

(٢) المنار ج ٧ ص ٥٠٦

(٣) التحرير والتنوير ج ٧ ص ٢٨٨ للشيخ الفاضل بن عاشور .

٣ - استدلل بهذه الآية على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف فيعنى عما ارتكبه حال نسيانه ففي الحديث الشريف : « إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . رواه الطبراني عن ثوبان مرفوعاً وإسناده صحيح .

٤ - قال القرطبي : قال بعضهم إن الخطاب في الآية للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمقصود أمته ، ذهبوا إلى ذلك لتبرئته (صلى الله عليه وسلم) من النسيان . وقال آخرون إن الخطاب له (صلى الله عليه وسلم) والنسيان جائز عليه فقد قال - صلى الله عليه وسلم - مخبراً عن نفسه : « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني » ، فأضاف النسيان إليه . واختلفوا بعد جواز النسيان عليه هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أولاً ؟ فذهب إلى الأول - فيما ذكره القاضي عياض - عامة العلماء والأئمة كما هو ظاهر القرآن والأحاديث ، لم يكن اشترط الأئمة أن الله - تعالى - ينبيه على ذلك ولا يقره عليه . ومنعت طائفة من العلماء السور عليه في الأفعال البلاغية والعبادات الشرعية كما منعه اتفاقاً في الأقوال البلاغية ، (١) .

قال الألوسي : « وأنا أرى أن محل الخلاف النسيان الذي لا يكون منشؤه إشتغال السر بالوساوس والخطرات الشيطانية فإن ذلك مما لا يرتاب مؤمن في استحالاته على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ... » (٢) . ثم بين - سبحانه - أنه لا تبعة على المؤمنين ما داموا قد أعرضوا عن مجلس الخاضعين فقال - تعالى - « وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء » . ولكن ذكرى لعلمهم يتقون ، :

أي : وما على الذين يتقون الله شيء من حساب الخاضعين على ما ارتكبوا من جرائم وآثام ما داموا قد أعرضوا عنهم ، ولكن عليهم أن يعرضوا عنهم

ويذكروهم ويمنعون عما هم فيه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير
لعمل أوائك الخاضعين يجتنبون ذلك ، ويتقون الله في أقوالهم وأفعالهم .
وعليه يكون الضمير في قوله (لعلمهم يتقون) يعود على الخاضعين .
وقيل يجوز أن يكون الضمير في قوله (لعلمهم يتقون) للذين اتقوا أى :
عليهم أى يذكروا أوائك الخاضعين ، لأن هذا التذكير يجعل المتقين
يزدادون إيماناً على إيمانهم ، ويثبتون على تقواهم .

روى البغوى عن ابن عباس قال : (لما نزلت : وإذا رأيت الذين
يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم .. الخ) قال المسلمون : كيف نقعد في
المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدأ ؟ فأمر الله - تعالى -
(وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ، يعنى إذا قتم عنهم فما عليهم
تبعة ما يقولون ، وما عليكم نصيب من إثم ذلك الخوض) .
قال الجمل : قوله (ولكن ذكرى) فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنها منصوبة على المصدر بفعل مضمر وقدره بعضهم أمراً ،
أى : ولكن ذكروهم ذكرى ، وبعضهم قدره خبراً . أى : ولكن يذكروهم
ذكرى .

والثاني : أنه مبتدأ خبره محذوف : أى : ولكن عليكم ذكرى ، أى :
تذكيرهم .

والثالث : أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : هو ذكرى أى : النهى عن
مجالستهم والامتناع منها ذكرى .

والرابع : أنه عطف على موضع شيء المجرور بمن أى : ما على المتقين من
حسابهم شيء . ولكن عليهم ذكرى فيكون من عطف المفردات وأما على
الأوجه السابقة فهو من عطف الجمل ، (١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن ينطلق

في تبليغ دعوته دون أن يشغل نفسه بسفاهة السفهاء ، وأن يذكر المعاندين بسوء مصيرهم فقال - تعالى - :

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ
الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ
الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا
وَنُزِدْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ
فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ
هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ
وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿٧٨﴾

والمعنى : وازك يا محمد هؤلاء الغافلين الذين اتخذوا دينهم الذي كفروه
ودعوا إليه وهو دين الاسلام لعبا ولهوا حيث سخطوا من تعاليمه واستمزقوا

ها ، وغرنهم الحياة الدنيا حيث اطعموا إليها ، واشتغلوا بآذانتها وزعموا أنه لا حياة بعدها .

ولم يقل - سبحانه - اتخذوا اللعاب واللاهو ديناً لأنهم لم يجعلوا كل ما هو من اللعاب واللاهو ديناً لهم ، وإنما هم عمدوا إلى أن يفتحلوا ديناً فجمعوا له أشياء من اللعاب واللاهو وسموها ديناً .

قال الإمام الرازي مامليخصه : (ومعنى ذرم : أعرض عنهم ولا تقبال بتكديهم واستهزائهم ولا تقم لهم في نظرك وزناً ، وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه قال له بعده (وذكّر به) وإنما المراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم لا ترك إنذارهم وتخويفهم . . . ومعنى اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، أنهم اتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم ، أو أن الكفار كانوا يسمون في دين الله بمجرد التشبهى والتقى مثل تحريم السواائب والبحائر ، ولم يكونوا محتاطون في أمر الدين ، بل كانوا يكتفون فيه بمجرد التقليد فعبّر الله عنهم لذلك بأنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً . وأنهم اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً قال ابن عباس : جعل الله لكل قوم عيدا يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله ، ثم إن المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً أما المسلمون فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله . . . (١) . والضمير في قوله (وذكّر به) يعود القرآن : أى ذكر الناس بهذا القرآن وقد جاء مصرحاً به في قوله - تعالى - (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . وقوله (أن تبسل نفس بما كسبت) أى : وذكّر بهذا القرآن أو بهذا الدين الناس مخافة أن تسلم نفس إلى الهلاك ، أو تحبس أو ترتعن أو تفتضح ، أو تحرم الثواب بسبب كفرها واعتقادها بالحياة الدنيا ، واتخاذها الدين لعباً ولهواً . ولفظ تبسل مأخوذ من البسل بمعنى المنع بالقهر أو التحريم أو الحبس ومنه أسد بأسل لمنعه فريسته من الإفلات . وشراب بسيل أى متروك وهذا الشيء بسيل عليك أى محرم عليك .

ثم بين - سبحانه - أن هذه النفس المعرضة للحرمان ليس لها ما يدفع عنها السوء فقال . ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ، أى : ليس لهذه النفس من غير الله ناصر ينصرها ولا شفيع يدفع عنها ، ومهما قدمت من فداء فلن يقبل منها فالمراد بالعدل هنا للفداء فهو كقوله - تعالى - : إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به .

قال الإمام الرازى : والمقصود من هذه الآية بيان أن وجوه الخلاص على تلك النفس منسدة فلاولى يتولى دفع ذلك المحذور عنها ، ولا شفيع يشفع فيها ولا فدية تقبل منها ليحصل الخلاص بسبب قبولها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع . فإذا كانت وجوه الخلاص هى الثلاثة فى الدنيا وثبت أنها لا نفيد فى الآخرة البتة وظهر أنه ليس هناك إلا الإيسال الذى هو الارتهان والاستسلام فليس لها البتة دافع من عذاب الله ، وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يردد إذا أقدم على معاصى الله ، (١) .

ثم بين - سبحانه - عاقبة أولئك الغافلين فقال : أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ، .
أى : أولئك الذين أسلموا للهلاك بسبب ما اكتسبوه فى الدنيا من أعمال قبيحة لهم شراب من حميم أى من ماء قد بلغ النهاية فى الحرارة يتجرجر فى بطونهم وتقطع به أمعاؤهم ولهم فوق ذلك عذاب مؤلم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم وما ظلمهم الله ولا يمكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم ساق القرآن صورة منفرة للشرك والمشركين تدعو المؤمنين إلى أن يزدادوا إيماناً على إيمانهم فقال - تعالى - :
قل أُنذِعُوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا

قال ابن كثير : قال السدى : قال المشركون للمؤمنين اتبعوا سبيلنا واتركوا

دين محمد - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله - عز وجل - : قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونزد على أعقابنا . . . (١) .

والمعنى : قل يا محمد أو أيها العاقل لهؤلاء المشركين الذين يحاولون رد المسلمين عن الإسلام ، قل لهم : أنعبد من دون الله ما لا يقدر على نفعنا إن دعونا ولا على ضررنا إن تركناه ، ونزد على أعقابنا ، أى نرجع إلى الشرك الذي كنا فيه ، بعد أن هدانا الله إلى الإسلام وأنقذنا من الكفر والضلال .
يقال لمن رد عن حاجته ولم يظفر بها : قد رد على عقبيه .

والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار والنفي ، وجىء بنون المنكلم ومعه غيره ، لأن الكلام مع الرسول - ﷺ - عن نفسه وعن المسلمين كلهم .
والمراد بما لا ينفع ولا يضر تلك الأصنام فإنها مشاهد عدم نفعها وعجزها عن الضرر ، ولو كانت تستطيع الضر لأضرت بالمسلمين لأنهم خلعوا عبادتها ، وسفهموا أتباعها ، وأعلنوا حقارتها .

وجملة : ونزد على أعقابنا ، معطوفة على : ندعو ، وعلى داخله في حين الإنكار والنفي . والتعبير عن الشرك بالرد على الأعقاب لزيادة تقييده بتصويره ما هو علم في القبح مع ما فيه من الإشارة إلى أن الشرك حالة قد تركت ونبتت وراء الظهر ومن المستحيل أن يرجع إليها من ذاق حلاوة الإيمان .

وحرف : على ، في قوله : ونزد على أعقابنا ، الاستعلاء ، أى رجع على طريق هى جهة عقبه أى مؤخر قدمه كما يقال : رجع وراءه ثم استعمل هذا التعبير في التمثيل للتلبس بحالة ذميمة كان قد فارقها صاحبها ثم عاد إليها وتلبس بها .

وفي الحديث الشريف : اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم . . .

تم ساق القرآن صورة مؤثرة دقيقة للضلالة والخيرة التي تفتاب من يشرك بعد التوحيد فقال : « كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا » .

« استهوته الشياطين ، أى استغوته وزينت هواه ودعته إليه والعرب تقول استهوته الشياطين لمن اختطف الجن عقله فسيرته كما تريد دون أن يعرف له وجهة في الأرض .

والمعنى : قل يا محمد طؤلاً المشركين : أنريدون منا أن نعود إلى الكفر بعد أن نجاتنا الله منه فيكون مثلنا كمثل الذي ذهب به مردة الشياطين فآلقته في صحراء مقفرة وقر كته تائهاً ضالاً عن الطريق القويم ولا يدري ماذا يصنع وله أصحاب يدعونه إلى الطريق المستقيم قائلين له ائتنا لكي تنجوا من الهلاك ولكن خيرة وضلاله لا يجيبهم ولا يأتهم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « إن مثل من يكفر بالله بعد إيمانه كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجمعوا يدعونه إليهم ويقولون : ائتنا فإننا على الطريق فأبى أن يأتهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم . ومحمد - صلى الله عليه وسلم - هو الذي يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام ، (١) .

ثم أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد على الكفار بما يخرس ألسنتهم فقال :

« قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، أى : قل يا محمد طؤلاً المشركين إن هدى الله الذي أرسلت به رسله هو الهدى وحده . وما وراءه ضلال وخذلان ، وأمرنا لنسلم وجوهنا لله رب العالمين .

قال صاحب المكشاف : فإن قلت : فما محل المكاف في قوله « كالذى استهوته » قلت : النصب على الحال من الضمير في « نرد على أعقابنا » أى : أنفكص مشبهين من استهوته الشياطين ؟ فإن قلت ما معنى « استهوته » ؟ قلت هو استعمال من هوى في الأرض أى ذهب فيها كأن معناه : طلبت هويه وحرصت عليه ، فإن قلت : فما محل أمرنا ؟ قلت : للنصب عطفاً على محل قوله : « إن هدى الله هو الهدى » على أنها مقولان كأنه قيل : قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم . . . (١) .

وقوله « وأن أقيموا الصلاة واتقوا » معطوف على محل « لنسلم » كأنه قيل أمرنا لنسلم وأمرنا أيضاً بإقامة الصلاة والالتقاء .

وفي تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع وعطفها على الأمر بالإسلام ، وقرنها بالأمر بالتقوى دليل على تفخيم أمرها وعظمة شأنها . وقوله « وهو الذى إليه تحشرون » جملة مستأنفة موجبة لامتنال ما أمر من الأمور الثلاثة ، أى : هو الذى تعودون إليه يوم القيامة للحساب لا إلى غيره .

وقوله « وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق » معطوف على قوله « وهو الذى إليه تحشرون » .

قال الألوسى : « ولعله أريد بخلقهما خلق ما فيهما - أيضاً - وعدم التصريح بذلك لظهور اشتغالهما على جميع العلويات والسفليات .

وقوله « بالحق » متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل « خلق » أى : قائما بالحق ، وجوز أن يكون صفة لمصدر الفعل المؤكد أى : خلقا متلبسا بالحق » .

والحق في الأصل مصدر حق إذا ثبت ، ثم صار اسماً للأمر الثابت الذى لا ينكر وهو ضد الباطل .

وقوله « ويوم يقول كن فيكون قوله الحق » أى : وقضاؤه المعروف

بالحقيقة كائن ، حين يقول - سبحانه - لشيء من الأشياء : كن فيكون .
ذلك الشيء . ويحدث .

و « يوم » ، خبر مقدم ، و « قوله » ، مبتدأ مؤخر ، و « الحق صفته » ،
والجمله الكريمة بيان لقدرته - تعالى - على حشر المخلوقات يكون مراده
لا يتخلف عن أمره ، وإن قوله هو النافذ وأمره هو الواقع قال - تعالى -
« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

وفى قوله وقوله الحق ، صيغة قصر للمبالغة أى : هو الحق الكامل ، لأن
أقوال غيره وإن كان فيها كثير من الحق فهي معرضة للخطأ وما كان فيها غير
معرض للخطأ فهو من وحى الله أو من نعمته بالعقل والإصابة للحق .
وقوله « وله الملك يوم ينفخ في الصور » ، أى : أن الملك لله تعالى وحده
فى ذلك اليوم فلا ملك لأحد سواه .

قال أبو السعود : « وتقييد اختصاص الملك له - تعالى - بذلك اليوم مع
عموم الاختصاص لجميع الأوقات اغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية
« الكائنة فى الدنيا المصححة للمالكية المجازية فى الجملة » ، فهو كقوله - تعالى -
« لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » ، وقوله : « الملك يومئذ الحق للرحمن » .
المراد « بالصور » ، القرن الذى ينفخ فيه الملك نفخة الصعق والموت
و نفخة البعث والنشور والله أعلم بحقيقته .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهرابياً سأل النبى
(صلى الله عليه وسلم) عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » ، رواه أبو داود
والترمذى والحاكم عنه أيضاً .

وقيل المراد بالصور هنا جمع صورة والمراد بها الأبدان أى : يوم ينفخ
فى صور الموجودات فتعود إلى الحياة .

ثم ختمت الآية بما يدل على سعة علم الله - تعالى - وعظم إتيانه فى صنعه

فقال - تعالى - : « عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير » .
الغيب . ما غاب عن الناس فلم يدركوه . الشهادة : ضد الغيب وهم
الأمور التي يشاهدها الناس ويقوصلون إلى علمها .

وصفة « الحكيم » ، تجمع إتيان الصنيع فدل على عظم القدرة مع تعلق العلم
بالمصنوعات . وصفة « الخبير » ، تجمع العلم بالمعلومات ظاهرها وخفيها .
أى : فهو - سبحانه - وحده العالم بأحوال جميع الموجودات ما غاب منها
وما هو مشاهد ، وهو ذو الحكمة في جميع أفعاله والعالم بالأمور الجلية والخفية .
وبعد أن ساق القرآن ألواناً من الأدلة على وحدانية الله وسعة علمه
وقدرته أخذ في التدليل على بطلان الشرك وإثبات التوحيد عن طريق
القصة ، فذكر لنا جانباً مما قاله إبراهيم لأبيه وقومه فقال - تعالى - :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرًا أَنْتَخِذُ أَسْنَمَاءَ إِلَهَةٍ إِنِّي
أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ
الْغَمُ أَكْبَرًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾
فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي
رَبِّي لَأَكُونَ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا
أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

والمعنى : واذا ذكر يا محمد وذكر قومك ليعتبروا ويتعظوا وقت أن قال إبراهيم لأبيه آزر منكراً عليه عبادة الأصنام (أتتخذ أصناماً آلهة) تعبدوها من دون الله الذي خلقك فسواك فعدلك (لئن أراك وقومك) الذين يتبعونك في عبادتها في ضلال مبين أى في انحراف ظاهر بين عن الطريق المستقيم .

قال الألوسى : (وأزر بزنه آدم علم أجمعى لأبى إبراهيم - عليه السلام - وكان من قرية من سواد الكوفة ، وهو بدل من إبراهيم أوعطف بيان عليه وقيل إنه لقب لأبى إبراهيم وإسمه الحقيقي قارح وأن آزر لقبه ، وقيل هو إسم جده ومنهم من قال لإسم عمه ، والعم والجديسميان أبا مجازاً .) (١) .
والإستفهام فى قوله (أتتخذ أصناماً آلهة) الإنكار . والتعبير بقوله (أتتخذ) الذى هو افتعال من الأخذ ، فيه إشارة بأن عبادته هو وقومه لها شئ مصطنع ، وأن الأصنام ليست أهلاً للالهية ، وفى ذلك ما فيه من التعريض بسحافة عقولهم ، وسوء تفكيرهم .

والرؤية يجوز أن تكون بصرية تصد منها فى كلام إبراهيم أن ضلال أبيه وقومه صار كالشئ المشاهد لوضوحه ، وعليه فقوله (فى ضلال مبين) فى موضع المفعول .

ويجوز أن تكون الرؤية علمية وعليه فقوله (فى ضلال مبين) فى موضع المفعول الثانى .

ووصف الضلال بأنه مبين يدل على شدة فساد عقولهم حيث لم يتفطنوا لضلالهم مع أنه كالمشاهد المرئى .

قال الشيخ القاسمى : قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة فى الدين لاسيما للآقارب ، فإن من كان أقرب فهو أم ، ولهذا قال - تعالى - (وأندر عشيرتك الآقربين) وقال - تعالى - : (فوالآنفسكم

وأهل بيكم ناراً ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : دأبأ بنفسك ثم بمن تعول ، ولهذا بدأ النبي (صلى الله عليه وسلم) بعلي وخديجة وزيد وكانوا معه في الدار فأمنوا وسبقوا ، ثم بسائر قريش ، ثم بالعرب ، ثم بالموالي ، وبدأ إبراهيم بأبيه ثم بقومه ، وتدل هذه الآية — أيضاً — على أن النصيحة في الدين والذم والتوبيخ لأجله ليس من العقوق ، وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : يلقي إبراهيم آباءه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قرة وغبره فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه : قال يوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب انك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأى خزي أخزي من أبي الأبعد ؟ فيقول الله — تعالى — إني حرمت الاجتة على الكافرين

ثم قال الشيخ القاسمي : والآية حجة على الشيعة في زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافراً ، وأن آزر عم إبراهيم لا أبوه ، وذلك لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة ومثله لا يحزم به من غير نقل ، (١) .

ثم بين — سبحانه — بعض مظاهر نعمه على خليله إبراهيم فقال — تعالى — : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين .

أى : وكما أرينا إبراهيم الحق في خلاف ما عليه أبوه وقومه من الشرك ، غريبه — أيضاً — مظاهر ربوبيتنا ، وما أكيثنا للسموات والأرض ، ونظلمه على حقائمه . ليزداد إيماننا على إيمانه وليكون من العالمين علما كاملا لا يقبل الشك بأنه على الحق وأن مخالفه على الباطل .

والرؤية هنا المقصود بها الانكشاف والمعرفة . فتشمل المبصرات والمعقولات التي يستدل بها على الحق .

ولما قال : نرى إبراهيم (بصيغة المضارع ، مع أن الظاهر أن يقول : أرياه ، لاستحضار صورة الحال الماضية التي كانت تتحدد وتتكرر بتجدد رؤية آياته — تعالى — في ذلك المالكوت العظيم .

والمالكوت : مصدر كالرغبوت والرحوت والجبروت ، وزيدت فيه الواو والتاء للمساغة في الصفة ، والمراد به الملك العظيم وهو مختص بملكه — تعالى — كما قال الراغب في مفرداته .

ثم بين — سبحانه — ثمار تلك الإرادة التي أكرم بها نبيه إبراهيم فقال : فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، .

جن عليه الليل : أي ستره بظلامه وتغشاه بظلمته ، وأصل الجن : الستر عن الحاسة . يقال : جنه الليل وجن عليه بجن جننا وجنونا ، ومنه الجن والجنة — بالكسر — والجنة — بالفتح — وهي البستان الذي يستر بأشجاره الأرض .

والمعنى : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم رأى كوكبا قال هذا ربي ، قال ذلك على سبيل الفرض وإرخاء العنان ، مجازاة مع عباد الأصنام والكواكب ليكر عليه بالإبطال ، ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التنزيه والانتقال .

قال صاحب الكشاف : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن يذهبهم على الخطأ في دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال . ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شينا منها لا يصح أن يكون الها . لقام دليل الحجة فلما ، وأن وراءها عدا

أحدثها ، وصانعا صنمها ، ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها
وسائر أحوالها . وقول إبراهيم هذا ربي ، قول من ينصف خصمه مع علمه
بأنه مبطل ، فيحكى قوله كما رو غيره متعصب لمذهبه ، لأن ذلك ادعى إلى
الحق وأنجى من الشغب ، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة (١) .

وجملة : قال هذا ربي ، مستأنفة لاستئنافا بيانيا جوابا لسؤال ينشأ عن
مضمون جملة : رأى كوكبا ، وهو أن يسأل سائل : فإذا كان منه عندما
رآه فيكون قوله : قال هذا ربي ، جوابا لذلك .

وقوله : فلما أفل ، أى : غاب وغرب : يقال أفل الشيء يأفل ويأفل
أفلا وأفولا أى : غاب .

وقوله : قال لأحب الأفلين ، أى : لأحب عبادة الأرباب المنتقلين
من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال ، لأن الأفل غيب وابتعاد وشأن
الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمر عباده .

وجاء بالآفلين بصيغة جمع المذكر المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه
أن الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان .

ثم بين - سبحانه - حالة ثانية من الحالات التى برهن بها إبراهيم
على وحدانية الله فقال - تعالى - : فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ،
أى : فلما رأى إبراهيم القمر مبتدئا فى الطلوع ، منتشرا ضوءه من وراء
الأفق قال هذا ربي .

وبازغا : مأخوذ من البرزوع وهو الطلوع والظهور . يقال : برزغ اللباب
برزوغا إذا طلع .

فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، .
أى : فلما أفل القمر كما أفل الكوكب من قبله قال مسمعا من حوله من
قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى جناب الحق وإلى الطريق القويم الذى يرتضيه

لأنه لا يكون من القوم الضالين من الصراط المستقيم ، لأن هذا القمر الذي يعتوره الأفول - أيضاً - لا يصلح أن يكون إلها .

وفي قول إبراهيم لقومه هذا القول تنبيه لهم لمعرفة الرب الحق وأنه واحد وأن الكواكب والقمر كليهما لا يستحقان الألوهية . وفي هذا نهضة النفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب . ثم عرض بقومه بأنهم ضالون ، لأن قوله : لا يكون من القوم الضالين ، يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أنه لون من الضلال .

وإنما استدل على بطلان كون القمر إلها بعد أقوله ، ولم يستدل على بطلان ذلك بمجرد ظهوره مع أن أقوله محقق ، لأنه أراد أن يقيم استدلاله على المشاهدة لأنها أقوى وأقطع لحجة الخصم .

ثم حكى القرآن الحالة الثالثة والأخيرة التي استدل بها إبراهيم على بطلان الشرك فقال - تعالى - فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر أى : فلما رأى إبراهيم الشمس مبتدئة في الطلوع وقد عم نورها الآفاق ، قال مشيراً إليها : هذا ربي هذا أكبر ، أى : أكبر ، الكواكب جرماً وأعظمها قوة ، فهو أولى بالألوهية إن كان المدار فيها على التفاضل والخصوصية .

فقوله : هذا أكبر ، تأكيد لما رآه من إظهار النصفة للقوم ، ومبالغة في تلك المجازاة الظاهرة لهم ، وتمهيد قوى لإقامة الحجة البالغة عليهم ، واستدراج لهم إلى ما يريد أن يلقيه على مسامعهم بعد ذلك .

قال صاحب الكشف : فإن قلت ما وجه التذكير في قوله : هذا ربي ، والإشارة للشمس ؟ قلت : جمل المبتدأ . مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد ، كقولهم : ما جاءت حاجتك ومن كانت أمك ، وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث . لأنهم قالوا في صفة الله علام ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ إحترافاً من علامة التأنيث (١) .

وقوله : فلما أفلت قال : يا قوم إني برىء مما تشركون ، أى فلما غابت الشمس واحتجب ضوءها ، جاهر إبراهيم قومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها فقال : يا قوم إني برىء من عبادة الأجرام المنغيرة التى يغشاها الأفول ، وبرىء من إشراككم مع الله آلهة أخرى .

قال الألوسى : وإنما احتج - عليه السلام - بالافول ذون البزوغ مع أنه انتقال ، لأن الافول متعدد الدلالة أيضاً إذ هو انتقال مع احتجاب ولا كذلك البزوغ ، ولأن دلالة الافول على المقصود ظاهرة يعرفها كل أحد ، فإن الأفول يزول سلطانه وقت الافول (١) .

هذا والمتأمل فى هذه للحالات الثلاث يرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى الاستدلال على وحدانية الله ، فقد ترقى معهم وهو يأخذ بيدهم إلى النتيجة التى يريد بها بأسلوب يقنع العقول السليمة ، ورحم الله صاحب الانتصاف فقد بين ذلك بقوله :

« والتعريض بضلالهم ثانياً أى فى قوله : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، أصرح وأقوى من قوله أولاً : لا أحب الآفلين ، وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن المضموم قد أقامت عليه بالاستدلال الأول حجة فأنسوا بالقدح فى معتقدهم ولو قيل هذا فى الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال فاعرض - صلوات الله عليه - بأنهم فى ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى فى النبوة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتفريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة ، وتبليج الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود (٢) .

ثم ختم إبراهيم هذا الترقى فى الاستدلال على وحدانية الله بقوله - كما حكى القرآن عنه - : إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) الانتصاف على الكشف لأحمد بن المنير ج ٢ ص ٤٠ .

أى : أنى صرفت وجهى وقلبى فى المحبة والعبادة لله الذى أوجد وأنشأ السموات والأرض على غير مثال سابق .

ومعنى « حنيفا » ، مائلا عن الأديان الباطلة والمعقائد الوثائقية كلها إلى الدين الحق ، وهو - أى حنيفا - حال من ضمير المتكلم فى « وجهت » .

وقوله « وما أنا من المشركين » ، أى : وما أنا من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى لا فى أقوالهم ولا فى أفعالهم . وقد أفادت هذه الجملة التأكيد لجملة « لى وجهت وجهى ... إلخ » .

وبذلك يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أقام الأدلة الحكيمية والبراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - وسفه المعبودات الباطلة وعابديها .

ثم بين - سبحانه - بعض ما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومخاصمات فقال :

وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِى فِى ٱللَّهِ
وَقَدْ هَدٰىنِى ۖ وَلَا أَخَافُ مَآ تُشْرِكُونَ بِهِ ۚ إِلَّا أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْئًا
وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ
مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِٱللَّهِ مَآ لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ۖ عَلَيْكُمْ
سُلْطٰنُنَا فَاۤىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۚ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ۖ إِيمٰنَهُمْ بِظُلْمٍ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

المحاجة : المجادلة والمغالبة في إقامة الحجة ، والحجة الدلالة المبينة للحجة
أى : المقصد المستقيم - كما قال الراغب - وتطابق الحجة على كل ما يبدل به أحد
الخصمين في إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه .

فمعنى « وحاجه قومه » أى : جادلوه وخاصموه أو شرموا في مغالبتهم في
أمر التوحيد قارة بإيراد أدلة قاسدة واقعة في حضيض التقليد وأخرى بالتهديد
والتخويف فقد حكى القرآن أنهم قالوا له عندما نهام عن عبادة الأصنام
« وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

وقد رد عليهم إبراهيم ردا قويا جريئا فقال لهم : « أتحتاجونى فى الله
وقد هدى الله ، أى أتجادلوننى فى شأنه - تعالى - وفى أدلة وحدانيته ، والحال أنه
- سبحانه - قد هدى إلى الدين الحق وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه
هو المستحق للعبادة .

والاستفهام الانكار والتوبيخ وتيسيسهم من رجوعه إلى معتقداتهم .
وجملة « وقد هدى الله » حال مؤكدة للانكار أى لا جدوى من حاجتكم
إياى بعد أن هدى الله إلى الطريق المستقيم ، وجماعى من المبغضين للأصنام
المحتقرين لها .

ثم صارحهم بأنه لا يخشى أصنامهم ولا يقيم لها وزنا فقال : « ولا أخاف
ما تشركون به ، أى لا أخاف معبوداتكم لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ،
ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع . ويبدو أن قومه كانوا قد
خوفوه بطش أصنامهم وقالوا له كما قالت قبيصة عاد لتبيها هو د « إن نقول إلا
اعتراك بعض آلهتنا بسوء » فرد عليهم إبراهيم هذا الرد القوي الصريح .
وقوله « إلا أن يشاء ربى شيئا » استثناء مما قبله أى : لا أخاف معبوداتكم
فى جميع الأوقات إلا وقت مشيئة ربى شيئا من المكروه بصيبنى من جمعتها
بأن يسقط على صنم يشجنى ، فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومهيئته لا بقدرة
أصنامكم أو مشيئتها ، وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه صاحب الكشاف
يكون الاستثناء متصلا .

ويرى ابن عطية وغيره ان الاستثناء منقطع على معنى : لا أخاف
معبوداتكم ولكن أخاف أن يشاء ربي خوفا مما أشركتم به .

وهذه الجملة الكريمة تدل على سمو أدب إبراهيم - عليه السلام - مع
ربه ، وعلى نهاية استسلامه لمشيئته ، فع أنه مؤمن بخالقه كل الإيمان وكافر
بتلك الآلهة كل الكفران ، إلا أنه ترك الأمر كله لمشيئة الله ، وعلق مستقبله
على ما يريد الله فيه .

وقوله : وسع ربي كل شيء علما ، أى : أن علم ربي وسع كل شيء
وأحاط به ، فلا يبعد أن يكون في علمه إنزال ما يخفى من جهة تلك
المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب .

وهذه الجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا فإكان قومه قد قالوا : كيف
يشاء ربك شيئا تخافه فكان جوابه عليهم : وسع ربي كل شيء علما ، فإنا وإن
كنت عبده وناصره إلا أنه أعلم بالحق الضرر أو النفع بمن يشاء من عباده .
و علما منصوب على التمييز المحول عن الفاعل ، إذ الأصل في هذا التعبير
« أن يقال : وسع علم ربي كل شيء » ، ولكن عدل به عن هذا النسق ، وأسند
الفعل فيه إلى الله لا إلى علمه ، وجعل لفظ العلم تمييزا لفاعل ليكون الوسع
والإحاطة والشمول لله ، فيخلع التعبير ظلا أشمل وأعمق وقعا في النفس
وقوله : أفلا تتذكرون ، أى تعرضون أيها الغافلون عن التأمل والتفكير
بعد أن أوضحت لكم بما لا يقبل مجالا للشك أن الله وحده هو المستحق
للعباداة وأن هذه المعبودات التي سواه لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

فلا استفهام للإعجاز والتوبيخ لعدم تذكرهم مع وضوح الدلائل .

وفي إيراد التذكير دون التفكير ونحوه إشارة إلى أن أمر آلهتهم

ثم حكى القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أنه بعد أن صارع قومه بأنه لا يخشى آلهتهم ، أخذ في التهمكهم بهم والتعجب من شأنهم لأنهم يخوفونه بما لا يخيف فقال : « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، .

أى : كيف ساغ لكم أن تظنوا إنى أخاف معبوداتكم الباطلة وهى مأمونة الخوف لأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنتم لا تخافون لإشراككم بالله خالقكم دون أن يكون معكم على هذا الإشراف حجة أو برهان من العقل أو النقل

فلاستفهام للإنكار التعجيبى من إنكارهم عليه الأمن فى موضع الأمن ، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن فى موضع أعظم المخلفات وأحوالها وهو إشراكهم بالله .

قال بعض العلماء : وجملة « وكيف أخاف ... الخ » معطوفة على جملة « ولا أخاف إياهم » ، ليبين لهم أن عدم خوفه من آلهتهم أقل حجة من عدم خوفهم من الله ، وهذا يؤذن بأن قومه كانوا يعرفون الله وأنهم أشركوا معه فى الإلهية غيره فلهذا احتج عليهم بأنهم أشركوا بربهم المعترف به دون أن ينزل عليهم سلطانا بذلك (١) .

وقال الألوسى : وقوله « وكيف أخاف ما أشركتم » استئناف - كما قاله شيخ الإسلام - مسوق لنفى الخوف عنه - عليه السلام - بحسب زعم الكفر بالطريق الإلزامى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الأمر ، وفى توجيه الإنكار إلى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال : أخاف لما أن كل موجود لا يخلو عن كيفية ، فإذا انتفت جميع كفياته - فقد انتفى من جميع الجهات بالطريق البرهاني ، (٢) .

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد عاشور ج ٧ ص ٢٣٠

(٢) تفسير الألوسى ج ٧ ص ٢٠٦

وما فى قوله : ما أشركتم ، موصولة بالعائد محذوف أى : ما أشرككم به ثم ركب - عليه السلام - على هذا الإنكار النعجبى ما هو نتيجة له فقال : فإى الفريقين أحق بالآمن إن كنتم تعلمون . .

أى : فإى الفريقين فريق للموحدين أم فريق للمشركين أحق وأولى بالآمن من لحوق الضرر به إن كنتم تعلمون ذلك فأخبرونى به وأظروه بالدلائل والحجج . فجواب الشرط محذوف تقديره أخبرونى بذلك .

وهذا لون من ألتائم إلى الاعتراف بالحق إن كانوا عما يعقل أو يسمع ، وحث لهم على الإجابة .

قال صاحب المنار : ونكتة عدوله عن قوله : فإينا أحق بالآمن ، إلى قوله : فإى الفريقين ، هى بيان أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك من حيث إن أحد الفريقين موحد والآخر مشرك لا خاصة به وبهم فهى متضمنة لعلة الأمن . وقيل إن نكتته الاحتراز عن تركية النفس ، واسم التفضيل على غير بابه ، فلما راد أينما الحقيقى بالآمن ، وليكنه عبر باسم التفضيل ناطقا فى استزالمهم عن منتهى الباطل وهو ادعائهم أنهم هم الحقيقون بالآمن وأنه الحقيق بالخوف إلى الوسط النظرى بين الأمرين وهو أى الفريقين أحق واحتوازا عن تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله كله ، (١) .

ثم بين - سبحانه - من هو الفريق الآحق بالآمن فقال - تعالى - :

والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، أى : الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك كما يفعله فريق المشركين حيث إنهم عبدوا الأصنام وزعموا أنهم ما عبدوها إلا ليتقربوا بها إلى

الله زلنى ، أولئك المؤمنون الصادقون لهم الأمن دون غيرهم لأنهم مهتدون إلى الحق وغيرهم فى ضلال مبين .

هذا وقد وردت أحاديث صحيحة فسرت الظلم فى هذه الآية بالشرك ، ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» ، قال الصحابة : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت «إن الشرك اظلم عظيم» ، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله : فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه أيس الذى تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح «إن الشرك اظلم عظيم» ، إنما هو الشرك .

قال الإمام الرازى : والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت فى نفي الشركاء والأضداد والائتداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات فوجب حمل الظلم هاهنا على ذلك ، (١) ،

وقد قرر الزمخشري فى كشفه للظلم بالمعصية فقال : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية ففسدتهم ، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس (٢) . أى : لأن لبس الإيمان بالشرك أى خلطه به مما لا يتصور لأنهما ضدان لا يجتمعان فى رأى الزمخشري .

قال الشيخ القاسمى : وفهم الزمخشري هذا مدفوع بأنه يلبسه ، لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق سواء كان باللسان أو غيره فظاهر أنه يجمع للشرك كالمناق . وكذا إن أريد تصديق القلب لجواز أن يصدق بوجود الصانع دون وحدانيته لما فى قوله — تعالى — : وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٨٢

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٢

ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر ، فلا يلزم من لبس الإيمان بالكفر الجمع بينهما ، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشارك ، بل تغطيته بالكفر وجعله مغلوبا مضمجلا ، أو انتصافه بالإيمان ثم الكفر ، ثم الإيمان ثم الكفر مرارا ، (١) .

وقال صاحب الانتصاف : « وإنما بروم الزمخشري بذلك تنزيل الآية على معتقده في وجوب وعيد العصاة وأنهم لاحظ لهم في الأمن كاللكناف . ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمن بالجاهدين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصي . ونحن نسلم ذلك ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة هو الخوف اللاحق للكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود وأما الكفار فغير آمنين بوجه ما ، (٢) »

والذي نراه أنه مادام قد ورد من الصادق المصدوق (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الصحيح أنه قد فسر الظلم في الآية بالشرك فيجب أن نسلم به وأن نعض عليه بالنواجز واجتهاد الزمخشري هنا — لتأييد مذهبه — مجانب للصواب ، لأنه لا اجتهاد مع النص . لا سيما وأن حديث عبد الله بن مسعود المتقدم قد خرجه الشيخان وغيرهما من أعلام السنة .

ثم بين — سبحانه — مظاهر فضله على نبيه إبراهيم — فقال — تعالى :

(١) تفسير القاسمي ج ٦ ص ٢٢٠٩

(٢) الانتصاف ج ١ ص ٤٢

وَتِلْكَ جَنَّاتُ أُتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ
 دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ
 وَسُلَيْمَانَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ
 الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۖ وَكُلًّا فَضَّلْنَا
 عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
 وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ يَكْفُرْ
 بِهَا هَتُّوْلَاءٍ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ
 الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ ۚ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
 إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

قال الإمام الرازي: إعلم أنه - تعالى - لما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه أظهر
 حجة الله في التوحيد ونصرها، وذب عنها، عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه .

فأولها : قوله : « وتلك حجتنا آييناها لإبراهيم ، والمراد إنا نحن آييناه تلك الحجة وهديناه إليها ، وأوقفنا عقله على حقيقتها .

وثانيتها : أنه - تعالى - خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية وهي قوله : « نرفع درجات من نشاء » .

وثالثها ، أنه جعله عزيزاً في الدنيا وذلك لأنه - تعالى - جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك . . . (١) .

والإشارة في قوله - تعالى - « وتلك حجتنا » إلى جميع ما تكلم به إبراهيم في مجادلة قومه في شأن وحدانية الله وبطلان الشرك .

وأضاف - سبحانه - الحججة إليه مع ذكر اللفظ الدال على العظمة وهو « حقا » فنوينا بشأنها ونفخينا لأمرها . والمراد بالحجة جنسها لا فرد من أفرادها أى : « وتلك الحججة التي لا يمكن نقضها أو مغالبتها في إثبات الحق وتزيف الباطل أعطيناها لإبراهيم ليكون مستعلياً بها على قومه ، قاطعاً لا يستقيم عن المجادلة والمخاصمة .

وجملة آييناها في محل نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة . وقوله « على قومه » متعلق بحجتنا ، إن جعل خيراً لتلك ، وبمعذوق إن جعل بدله . أى : آيينا حجة ودليلاً على قومه الكثيرين لنكون الغلبة عليهم . وقوله « نرفع درجات من نشاء » أى نرفع من شئنا من عبادنا درجات عالية من العلم والحكمة .

والدرجات في الأصل تطلق على مراقى السلم . والمراد بها هنا المراتب المعنوية في الخير على سبيل التمثيل ، فقد شبهت حالة المفضل على غيره بحال

الترقى في سلم إذا ارتفع من درجة إلى درجة .

والجمله مستأنفة على سبيل التقرير لما قبلها ، وقيل هي حال من فاعل .
آتيناً ، أى حال كوننا رافعين .

ومفعول المشيئة محذوف . أى : من تشاء رفعه على حسب ما تقتضيه حكمته . وقد دل قوله « من تشاء » على أن هذا التكريم لا يكون لكل أحد لأنه لو كان حاملاً لكل الناس لم يحصل الرفع ولا التفضيل .

وقوله - تعالى - « إن ربك حكيم عليم » تذييل مقرر لما ضمن من ما قبله أى :
إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ « حكيم » فى كل ما يفعل من رفع هذا
وخفض ذاك ، « عليم » كل العلم بحال خلقه وسياسة عبادِهِ .

قال الإمام الرازى : واعلم أن هذه الآية من أدل الدلائل على أن كمال
السعادة فى الصفات الروحانية لا فى الصفات الجسمية ، والدليل على ذلك أن
الله - تعالى - قال « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » ثم قال بعده
« نرفع درجات من نشاء » وذلك يدل على أن الموجب لحصول هذه الرفع
هو إيمان تلك الحجة وهذا يقتضى أن وقوف النفس على حقيقة تلك الحجة
وإطلاعها على إشراقها يقتضى ارتفاع الروح من حضيض العالم الجسماني إلى
أعلى العالم الروحاني ، وذلك يدل على أنه لا رفعه ولا سعادته إلا فى
الروحانيات (١) . .

وقوله : « وهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، أى : وهبنا لإبراهيم
فضلاً منا وكرماً وعرضاً عن قومه لما اعتزلهم ؛ إسحاق وهو ولده من زوجته
سارة ، ويعقوب وهو ابن إسحاق لتقر عينه ببقاء عقبه إذ فى رؤية أبنائه
الآبناء سرور للنفس ، وراحة للنفوس .

وقوله « كلا هدينا ، أى : كلا من إسحاق ويعقوب هديناه الهداية
الكبرى بلحقهما بدرجة أبيهما فى النبوة .

ولفظ « كلا » مفعول لما بعده وقدم لإفادة اختصاص كل منهما بالهداية على سبيل الاستقلال والتنويه بشأنهما .

وقوله : « ونوحاً هدينا من قبل ، أى : وهدينا نوحاً من قبل إبراهيم إلى مثل ما هدينا إليه إبراهيم وذريته من النبوة والحكمة .

وهذا لون آخر من تشريف إبراهيم حيث أنه من نسل نوح الذى وصفه الله بالهداية ، ولا شك أن شرف الآباء يسرى على الأبناء .

وقال ابن كثير ، « وكل منهما له خصوصية عظيمة . أما نوح فإن الله لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صلبوه فى السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالتاس كلهم من ذريته ، وأما الخليل إبراهيم فلم يبعث الله بعده نبياً إلا من ذريته كما قال - تعالى - « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » (١) .

ثم قال - تعالى - « ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ، وإسماعيل وإسحاق ويونس ولوطاً وكلنا فضلاً على العالمين » .
الضمير فى قوله - تعالى - « ومن ذريته » يرى ابن جرير وغيره أنه يعود إلى نوح لأنه أقرب مذكور .

ويرى جمهور المفسرين أنه يعود على إبراهيم لأن الكلام فى شأنه وفى شأن النعم التى منحها الله لإياه .

وقد ذكر الله فى هذه الآيات أربعة عشر نبياً وهم :

١ - داود بن يسمى من سبط يهوذا من بنى إسرائيل وكانت ولادته فى بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق م تقريباً وهو الذى قتل جالوت كما جاء فى القرآن الكريم « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء » وكانت وفاته سنة ١٠٠٠ ق م تقريباً .

٢ - سليمان بن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم حوالي سنة ١٠٤٣ ق م وتوفي سنة ٩٧٥ ق م وقد جاء ذكر داود وسليمان في كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

٣ - أيوب قال ابن جرير : هو ابن موسى بن روم بن عيص بن إسحاق ، وروى الطبراني أن مدة عمره كانت ثلاثا وتسعين سنة .

٤ - يوسف وهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام - وكانت ولادته قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - بألفي سنة تقريبا .

٥ - موسى وهو ابن عمران بن يصر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب وكانت ولادته حوالي القرن الرابع عشر ق م .

٦ - هارون وهو أخو موسى لأمه وقيل لأبيه وأمه ، وقيل مات قبيل موسى بزمان يسير .

٧ - زكريا وهو ابن أذن بن برشيا ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - وكان قريب العهد بعيسى حيث نزلت كفالة أمه مريم كما جاء في القرآن الكريم « وكفلها زكريا » .

٨ - يحيى وهو ابن زكريا .

٩ - عيسى وهو ابن مريم . قال ابن كثير . وفي ذكر عيسى في ذرية إبراهيم أو نوح دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أمه مريم .

١٠ - إلياس وهو بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخى موسى وهو المعروف في كتب الإسرائيليين باسم إيليا ، وقد أرسله الله إلى بني إسرائيل حين عبدوا الأوثان قال - تعالى - « وإن إلياس لمن المرسلين » . إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين

ويقال إنه كان موجوداً في زمن الملك ، آخاب ، ملك بنى إسرائيل في

حوالى سنة ٩١٨ ق م .

١١ - إسماعيل وهو الابن الأكبر لإبراهيم - عليهما السلام .

١٢ - اليسع وهو ابن شافاط وكانت وفاته حوالى سنة ٨٤٠ ق م ودفن

بالسامرة .

١٣ - يونس وهو ابن متى أرسله الله إلى أهل نينوى من بلاد آشور

في حوالى القرن الثامن ق م .

١٤ - لوط وهو ابن هاران بن تارح فهو ابن أخى إبراهيم وكانت

رسالته إلى أهل سدوم من شرق الأردن .

وقوله : وكلا فضلنا على العالمين ، أى : وكل واحد من هؤلاء الأنبياء

المذكورين لا بعضهم دون بعض فضلنا بالنبوة على العالمين من أهل عصره .

قال الجمل : اعلم أن الله - تعالى - ذكر هنا ثمانية عشر نبياً من غير ترتيب

لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لأن الوار لا تقتضى الترتيب ، ولكن

هنا لطيفة في هذا الترتيب وهى أن الله - تعالى - خص كل طائفة من الأنبياء

بنوع من الكرامة والفضل ، فذكر أولاً نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب

لأنهم أصول الأنبياء وإليهم يرجع حسبهم جميعاً ، ثم من المراتب المعتبرة بعد

النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد أعطى الله من ذلك داود وسليمان حظاً

وافراً ، ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله

بهذه أيوب . ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف فإنه

صبر على البلاء والشدّة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب

المعتبرة في تفضيل الأنبياء كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله موسى

وهارون من ذلك بالحظ الوافر ، ومن المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا وقد

خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، ثم ذكر الله بعد هؤلاء الأنبياء

من لم يبق له أتباع ولا شيعه وهم إسماعيل والنسر ، ولوط فإذا اعتبرنا

هذه اللطيفة كان هذا الترتيب حسناً والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (١) .
ومن المعروف أن الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم على التفصيل خمسة
وعشرون نبياً . وهم هؤلاء الثماني عشرة الذين ذكروا في هذه الآيات ،
يضاف إليهم سبعة نظمهم الناظم في قوله :

حتم على كل ذي التكليف معرفة بأنبياء على التفصيل قد علموا
في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عمر ويبقى سبعة وهم
إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا ذو الكفل آدم بالختار قد ختموا
ثم ذكر - سبحانه - فضائل من يتصل هؤلاء الأنبياء الكرام فقال :
« ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، أي : ومن آباء هؤلاء الأنبياء
وذرياتهم وإخوانهم من هديناه إلى الطريق المستقيم فمن هنا للتبويض .
والجمله معطوفة على « كلا ، أي : كلا من هؤلاء الأنبياء فضلنا ، وفضلنا
بعض آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وهديناه .

وجملة « واجتبييناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ، معطوفة على « فضلنا ،
أي : فضلنا هؤلاء الأنبياء واخترفناهم وهديناهم إلى الطريق الواضح . قال
الراغب : « والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال - تعالى - فاجتباء ربه ،
واجتباء العبد تخصيصه إياه بفيض الهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلاسى من
العبد وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء ... » (٢) .
وقوله : « ذلك هدى الله يهdy به من يشاء من عباده ، أي : ذلك الهدى
إلى صراط مستقيم الذى اهتدى إليه أولئك الأخيار هو هدى الله الذى
يهdy به من يشاء هدايته من عباده وهم المستعدون لذلك .
وفي قوله « من يشاء من عباده ، من الإيهام ما يبعث النفوس على تعالبد
هdy الله - تعالى - والتعرض لنفحاته .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) مفردات القرآن ج ٨٧ للراغب الأصفهاني .

وقوله : ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، أى ، ولو فرض أن أشرك بالله أولئك المهديون المختارون لبطل وسقط عنهم ثواب ما كانوا يعملونه من أعمال صالحة فكيف بغيرهم .

قال ابن كثير : فى هذه الآية تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملاسته ، كقوله - تعالى - : ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع ، فهو كقوله ، : قل إن كان لرحمن ولد فأنا أول العابدين ، وكقوله : : لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، (١) .

وقوله : أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، اسم الإشارة فيه يعود إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشرة والمعطوفين عليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة .

وقصر بعضهم عودته على الأنبياء فحسب وإليه ذهب ابن جرير والرازي أى : أولئك المصطفون الأخيار هم الذين آتيناهم الكتاب أى جنسه المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية .

والمراد بإتيانه : التفهيم التام لما اشتمل عليه من حقائق وأحكام ، وذلك أعم من أن يكون بالإزالة لبداء أو بالإيراث بقاء ، فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين .

والحكم أى : الحكمة وهى علم الكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام . أو الإصابة فى القول والعمل . أو القضاء بين الناس بالحق .

و : النبوة ، أى : الرسالة .

وقوله : فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ، أى

فلن يكفر بهذه الثلاث التي اجتمعت فيك يا محمد هؤلاء المشركون من أهل مكة ، فلن يضرك كفرهم لأننا قد وفقنا للإيمان بها قوماً كراماً ليسوا بهم بكافرين في وقت من الأوقات وإنما هم مستمرون على الإيمان بك والتصديق برسالتك وفي ذلك ما فيه من التسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن إعراض بعض قومه عن دعوته .

والمراد بالقوم الذين وكّلوا بالقيام بحق هذه الرسالة ورفقوا بالإيمان بها أصحاب النبي - ﷺ - من المهاجرين والأنصار مطلقاً ، لأنهم هم الذين دافعوا عن دعوة الإسلام وبذلوا في سبيل إعلانها نفوسهم وأموالهم ويدخل معهم كل من سار على نهجهم في كل زمان ومكان .

وقيل المراد بهم أهل المدينة من الأنصار ، وقيل المراد بهم الأنبياء المذكورون وأتباعهم ، وقيل غير ذلك .

والذي نراه أن الرأي الأول أرجح لأن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - هم المقابلون لكفار قريش الذين كفروا بها .

وفي التكنية عن توفيقهم للإيمان بها بالتوكيل الذي أصله الحفظ للشيء ومراعاته ، إيدان بمخاطمة وعطو قدرها .

قال الإمام الرازي : ودلت هذه الآية على أن الله - تعالى - سينصر قبيح ، ويقوى دينه ، ويجعله مستعظماً على كل من عاداه ، قاهراً لكل من فازعه ، وقد وقع هذا الذي أخبر الله عنه في هذا الموضع ، فكان جارياً مجرى الأخبار عن الغيب فيكون معجزاً (١) .

ثم قال - تعالى - : أولئك الذين هدى الله فبهم اهتد ، أي : أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك - يا محمد - هم الذين هديناهم إلى الحق وإلى

الطريق المستقيم فبهدام ، أى : فبطريقتهم فى الإيمان بالله وفى تمسكهم بمكارم الاخلاق كن مقتديا ومتأسيا .

والمقصود إنما هو التامى بهم فى أصول الدين ، أما الفروع القابلة للنسخ فإنهم يختلفون فيها ويجوز عدم الاقتداء بهم بالنسبة لها قال - تعالى -
 « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .

وتكرير اسم الإشارة لئلا كيد تمييز المشار اليه ، ولما يقتضيه التذكير من الاهتمام بالخبر . وفى قوله فبهدام اقتده ، تعريض بالمشركين إذ أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ما جاء إلا على سنة الرسل كلهم وأنه ما كان بدعا منهم ، أما هم فقد اختلقوا لأنفسهم عبادات ما أنزل الله بهامن سلطان .

ثم ختم الله - تعالى - هذا السياق بقوله : « قل لا أسألكم عليه أجرا »
 أى : قل أيها الرسول الكريم لمن بعث اليهم لا أطلب منكم على ما أدعوك اليه من خير وما أبلغكم إياه من قرآن أجرا قليلا أو كثيرا .

وإن هو إلا ذكرى للعالمين ، أى : ما هذا القرآن إلا تذكرة كبيرة وموعظة للناس أجمعين فى كل زمان ومكان .

قال بعضهم : وفى الآية دليل على أنه - صلى الله عليه وسلم - كان مبعوثا إلى الجن والإنس وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .

وبعد أن بين - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وقومه من مجالات تتعلق بإثبات وحدانية الله ، وإبطال الشرك ، وحكى جانباً من النعم التى أنعم بها على خليله وعلى كل من سار على نهجه ، وأخبر بأن هذا القرآن ما هو إلا تذكرة للعالمين وأن المذكر به - لا يريد منهم أجرا على تبليغه ... بعد كل ذلك أخذ القرآن فى الرد على منكرى نزول الكتب السماوية وفى بيان عاقبتهم الوخيمة بسبب هذا الجحود

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا

مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ

بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ^طتَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ

كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ

فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي

بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

يُؤْمِنُونَ بِهِ ^طوَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ

سَأَنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ^طوَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ

وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ

تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ

مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) كلمة (قدروا) مأخوذة من القدر - بفتح فسكون - ، وأصل القدر معرفة مقدار الشيء بالسحر والحزر . يقال : قدر الشيء يقدره إذا سببه وحزره ليعرف مقداره ، ثم استعمل في معرفة الشيء على أنهم ألوجوه حتى صار حقيقة فيه .

والمعنى : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته في اللطف بعباده وفي الرحمة بهم ، بل أخذوا بحقوقه إخلالاً عظيماً ، وضلوا ضلالاً كبيراً ، إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب ، وقالوا تلك المقالة الأشنعاء ما أنزل الله على بشر شيئاً من الأشياء ، قاصدين بهذا القول الطعن في نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي أن القرآن من عند الله .

ولفظ (حق) منصوب على المصدرية ، وهو في الأصل صفة للمصدر ، أى : قدره الحق فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه . ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يلزمهم بما يحرس ألسنتهم ، وأن يرد على سلبهم العام بإثبات قضية جزئية بديهة للتسليم فقال - تعالى - : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس) أى : قل يا محمد لمؤلاؤ الزاعمين بأن الله ما أنزل على بشر شيئاً من الأشياء : قل لهم من الذي أنزل النوراة وهو الكتاب الذي جاء به موسى (نوراً وهدى للناس) أى : ضياء من ظلمة الجهالة وهداية تعصم من الأباطيل والضلالة . وكلمة (نوراً) حال من الضمير في به أو من الكتاب .

ثم بين - سبحانه - ما فعله الجاحدون بكتبه من تحريف وتغيير فقال : (تجعلونه قرطيس تبدونها وتخفون كثيراً) .

القرطيس : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق ونحوه .

أى : تجعلون هذا الكتاب الذي أنزله الله نوراً وهداية للناس أوراقاً مكتوبة مفرقة لتتمكنوا من إظهار ما تريدون إظهاره منها ، وعن إخفاء الكثير منها هل .

فالمراد من هذه الجملة الكريمة ذم المحرفين لكتب الله ، وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع ، الذى قصدوا من وراءه الطعن فى نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - والتوصل إلى ما يبخونه من مطامع وأهواء .

وقوله (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) أى : وعلمتم على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من المعارف التى لا يرتاب عاقل فى أنها تنزل ربانى .

وقوله (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) .

أى : قل أيها الرسول طوؤا الجاحدين : الله - تعالى - هو الذى أنزل الكتاب على موسى ، ثم بعد هذا القول الفصل ذرهم فى باطلهم الذى يخوضون فيه يلعبون ، وفى غيهم يعمهون حتى تأنيهم من الله اليقين .

وفى أمره - صلى الله عليه وسلم - بأن يجيب عنهم ، لإشعار بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيهه على أنهم بهتوا بحيث أنهم لا يقدرُونَ على الجواب .

وكان العطف بـ"ثم" فى قوله (ثم ذرهم ..) للدلالة على الترتيب الرقى أى : أنهم لا تنجع فيهم الحجج والأدلة فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الأولى ، وإنما كان الاحتجاج عليهم لتبكيته وقطع معاذيرهم .

هذا ، وللمفسرين لهذه الآية قولان .

الأول : أنها مكية النزول تبعاً للسورة ، وأن الذين قالوا (ما أنزل الله على بشر من شيء) مشركو مكة ، وإنما ألزمهم الله بإزالة التوراة لأنهم كانوا يعرفون ذلك ولا ينكرون أن الله قد أنزلها على موسى .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال : هنى بذلك (وما فندروا الله حق قدره) مشركو قريش . وذلك أن ذلك فى سياق الخير عنهم . فإن يكون ذلك أيضاً خيراً عنهم أشبه من أن يكون

خبراً عن اليهود ولما يجر لهم ذكر . . . وإيس ذلك بما تدين به اليهود ، بل
 المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم وموسى (. .) (١) .
 وقد تآح ابن كثير رأى ابن جرير وقال : وهذا رأى هو الأصح ،
 لأن اليهود لا ينكرون إزال الكذب من السماء . وأما كفار قريش فكأنوا
 ينكرون رساله النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه من البشر كما قال
 - تعالى - (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس
 وكذا قالوا هنا (ما أنزل الله على بشر من شيء) (٢) .

الثاني : أن هذه الآية مدنية للنزول ، وكون سورة الأنعام مكية لا يمنع
 من وجود بعض آيات منها مدنية كما نص عليه كثير من العلماء .

وبما يؤيد كون هذه الآية مدنية ماورد من آثار في أسباب نزولها ،
 ومن هذه الآثار ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس
 قال : قالت لليهود : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً فنزل قوله - تعالى -
 وما قدروا الله حق قدره . الخ (وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير
 - مرسل - قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبي
 - صلى الله عليه وسلم - فقال له النبي : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى
 هل تجد في التوراة أن الله يغيض الخبر السمين - وكان حبراً سمينا - فغضب
 وقال : هل أنزل الله على بشر من شيء) فقال له أصحابه ويحك ولا على
 موسى فأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره . .) الآية (٣) .

والذي نراه أن الآية الكريمة تصلح للرد على الفريقين فريق المشركين
 وفريق اليهود إلا أن سياقها يجعلنا نرجح أن الخطاب فيها موجه بالأصالة إلى

(١) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٧٨

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٥٦

اليهود وإلى غيرهم بالتبع ، لأنهم هم الذين جعلوا التوراة قراطيس أى أوراقا مفرقة ليظهروا منها ما يناسب أهواءهم ولا يخفوا منها ما فيه شهادة بصدق النبى ﷺ - ولأن هناك آثارا متعددة تثبت أنها نزلت فى شأهم .

وتوجيه الخطاب إلى اليهود لا يتنافى مع كونها مكية ، لأنه ليس بلازم أن يكون كل قرآن مكى خطابا لغير اليهود .

وبعد أن أبطل - سبحانه - بالدليل قول من قال : ما أنزل الله على بشر من شئ ، أتبعه ببيان أن هذا القرآن من عند الله وأنه مصدق للكتب السماوية السابقة ومهيمن عليها فقال - تعالى - .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه . . . »

والمعنى : وهذا القرآن كتاب أنزلناه على قلبك يا محمد وهذا الكتاب من صفاته أنه مبارك أى : كثير الفوائد لاشتماله على منافع الدين والدنيا . والمبارك اسم مفعول من باركه وبارك فيه ، إذا جعل له البركة ، ومعناها كثرة الخير ونماؤه .

وقدم هنا وصفه بالإنزال على وصفه بالبركة بخلاف قوله « وهذا ذكر مبارك أنزلناه » لأن الأهم هنا وصفه بالإنزال ، إذ جاء عقيب إنكارهم أن ينزل الله على بشر من شئ بخلافه هناك .

ووقعت الصفة الأولى جملة فعلية لأن الإنزال يتجدد وقتا فوقتا ، والثانية اسمية لأن الاسم يدل على الثبوت والاستقرار وهو مقصود هنا أى : أن بركته ثابتة مستقرة .

قال الإمام الرازى : العلوم إما نظرية وإما عملية ، أما العلوم النظرية فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ، ولا ترى فى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده فى هذا الكتاب ، وأما العلوم العملية فالمطلوب إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلب ، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتزكية النفس ، ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده فى هذا الكتاب .

ثم قد جرت سنة الله بأن الباحث فيه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة، (١).

وقوله : مصدق الفى بين يديه ، أى أن هذا القرآن موافق ومؤيد للكتب التى قبله فى إثبات التوحيد ونفى الشرك ، وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ .

وقوله : ولتفرد أم القرى ومن حولها ، أى : ولتفرد بهذا الكتاب أم القرى أى مكة ومن حولها من أطراف الأرض شرقا وغربا لعموم بعثته - ﷺ - قال - تعالى - : وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، وقال - تعالى - : قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ، وسميت مكة بأم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبله أهل القرى كلها ومعجمهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالنبيع لها كما يتبع الفرع الأصل ، وفى ذكرها بهذا الاسم المنبئ عما ذكر إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة :

ووجه الاختصار على مكة ومن حولها فى هذه الآية أنهم الذين جرى الكلام والجدال معهم فى قوله - تعالى - قبل ذلك : وكذب به قومك وهو الحق ، قال الألوسى : ويمكن أن يقال خصمهم بالذكر لأنهم الآحق بإنذاره - ﷺ - فهو كقولاه - تعالى - : وأنذر عشيرتلك الأقربين ، وإذا أنزل كتاب كل رسول بلسان قومه ، (٢).

وقال صاحب المنار : وزعم بعض اليهود المتقدمين وغيرهم أن المراد بمن حولها بلاد العرب فخصه بمن قرب منها عرفا ، واستدلوا به على أن بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - خاصة بقومه العرب . والاستدلال باطل وإن سلم.

اللتخصيص المذكور ، فإن لإرساله إلى قومه ينافي إرساله إلى غيرهم ، وقد ثبت عموم بعثته - صلى الله عليه وسلم - من آيات أخرى كقوله - تعالى - « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (١) .

وقوله « والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به » .

أى : والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يؤمنون بهذا الكتاب الذى أنزله الله هداية ورحمة لأن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، وحرص على العمل الصالح الذى ينفعه .

ثم ختمت الآية بهذا الثناء الجميل عليهم فقالت « وهم على صلاتهم يحافظون » أى يؤدونها فى أوقاتها مقيمين لأركانها وآدابها فى خشوع واطمئنان ، وخصت الصلاة بالذكر لكونها أشرف العبادات وأعظمها خطراً بعد الإيمان .

قال الإمام الرازى : « وبكفيها شرفاً أنه لم يقع اسم الإيمان على شئ من العبادات الظاهرة إلا عليها كما فى قوله - تعالى - « وما كان الله ليضيع إيمانكم ، أى صلاتكم ، ولم يقع اسم الكفر على شئ من المعاصى إلا على ترك الصلاة ، وفى الحديث الشريف « من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ، فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله بالذكر فى هذا المقام » (٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - مزايها هذا القرآن أتبع ذلك ببيان عاقبة الذين يفترون الكذب على الله - تعالى - ، وصور أحوالهم عند النزع الأخير . وعندما يقفون أمام ربهم للحساب بصورة ترتجف لها الأفئدة فقال - تعالى - : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شئ » . . .

(١) تفسير المنار ج ٧ ص ٦٢٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٩٣ .

والمعنى لا أحد أحد ظلمنا من اختلق الكذب على الله لجعل له شركاء من خلقه ، وأنكر ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - من هدايات وحل وحرم بهواه ما لم يأذن به الله .

والاستفهام إنكارى فهو فى معنى النفي . و د من ، اسم موصول والمراد به الجنس . أى : كل من افترى على الله كذباً وليس المراد فرداً معيناً .

د أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ، أى : قال بأن الله أوحى إلى بالرسالة أو النبوة مع أنه كاذب فى دعواه ، فإن الله ما أوحى إليه شيئاً ، وهذه يصدق على ما ادعاه مسيلة الكذاب والأسود العنسى من أنهما نبيان يوحى إليهما . ويصدق - أيضاً - على كل مدع للوحى والنبوة فى كل زمان ومكان . وهذه الجملة الكريمة معطوفة على صلة د من ، من عطف الخاص على العام ، لأن هذا القول هو نوع من أنواع افتراء الكذب .

د ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، أى : ولا أحد أظلم - أيضاً - ممن قال بأنى قادر على أن أنزل قرآناً مثل الذى أنزله الله كالذين حكى القرآن عنهم قوله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنا هذا إلا أساطير الأولين » .

وبذلك نرى أن الآية للكريمة قد توعدت بأشد ألوان الوعيد كل مقتر على الله المكذب ، وكل مدع أنه يوحى إليه شيء . وكل من زعم أنه فى قدرته أن يأتى بقرآن مثل هذا القرآن كما حدث من النضر بن الحارث وعبد الله بن سعد بن أبى سرح .

ثم بين - سبحانه - مصير كل ظالم أثم فقال : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، أى : ولو ترى أيها الرسول الكريم أو أيها العاقل حالة أولئك الظالمين وهم فى غمرات الموت أى : فى شدائده وكرباته وسكراته لرايت شيئاً عظيماً ما هائلاً ترتعد منه الأبدان ، فحساب الشيطان عذبة » .

والغمرات : جمع غمرة وهي الشدة . وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطئها ، يقال غمره الماء إذا علاه وستره ثم استعمل في الشدائد والمكاره .
وتقييد الرؤية بهذا الوقت لإفادة أنه ليس المراد مجرد الرؤية ، بل المراد رؤيتهم على حال فظيمة عند كل ناظر :

وقوله : والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم دأى والملائكة الملوكون بقبض أرواحهم باسطوا أيديهم إليهم بالإمارة والعذاب فائتلين لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم .
والأمر هنا للتعجيز أى : أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب إن استطعتم إلى ذلك سبيلا .

قال الألوسي : وذهب بعضهم إلى أن هذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح العظيمة بفعل الغريم الملاح يسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له : أخرج مالى عليك الساعة ولا أبرح مكانى حتى اقتزعه منك . وفى الكشف : أنه كناية عن العنف فى السياق والإلحاح والتشديد فى الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ولا بسط ولا قول حقيقة هناك . واستظهر ابن المنير أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية وإذا أمكن البقاء على الحقيقة فلا معدل عنها (١) .

ولعل مما يؤيد قول ابن المنير فى تعليقه على ما قال صاحب الكشف ما جاء فى آية أخرى وهى قوله - تعالى - ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، (٢) .

وقوله : واليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ،

(١) تفسير الألوسي ج ٧ ص ٢٢٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٠ .

وكنتم عن آياته تستكبرون ، هذا القول من تمة ما تقوله الملائكة لأولئك الظالمين .

أى : تقول لهم أخرجوا أنفسكم اليوم تلقون عذاب الذل والهوان لا بظلم من الرحمن ، وإنما بسبب أفكركم كنتم فى دنياكم تفترون على الله الكذب ، وبسبب أفكركم كنتم معرضين عن آياته ، مستكبرين عنها ولا تتأملون فيها ، ولا تعتبرون بها .

والمراد باليوم مطلق الزمان لا اليوم المتعارف عليه ، وهو إما حين الموت أو ما يشمله وما بعده .

والهوان معناه : الهوان والذل وفسرة صاحب الكشف ، بالهوان الشديد وقال : « وإضافة العذاب إليه كقولك ، رجل سوء يرهق العرافة فى الهوان والتمكين فيه » (١) .

ثم صور — سبحانه — حالهم عند ما يعرضون للحساب فقال : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » .

أى : ولقد جئتمونا للحساب والجزاء متعززين ومنفردين عن الأموال والأولاد وعن كل ما جمعتموه فى الدنيا من متاع ، أو منفردين عن الأصنام والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم عند الله .

وفرادى قيل هو جمع فرد ، وفريد وقيل : هو اسم جمع لأن فرداً يجمع على فرادى وقول من قال أنه جمع : أراد أنه جمع له فى المعنى .

وهذه الجملة الكريمة مستأنفة جاءت لبيان ما ستقوله الله لهؤلاء الظالمين يوم القيامة ، بعد بيان ما تقوله ملائكة العذاب عند موتهم .

وقوله : « كما خلقناكم أول مرة ، تشبيه للمجيء أريد منه معنى الأحياء بعد الموت الذي كانوا ينكرونه فقد رآه رأى العين .

أى : جئتمونا بمنزلة من كل ما كنتم تعتزون به فى الحياة الدنيا ، مجيئنا مثل مجيئكم يوم خلقناكم أول مرة حفاة عراة . قال كفافى محل نصب صفة لمصدر محذوف .

روى الشيخان عن ابن عباس قال : قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا . كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ، (١) .

ورويأ - أيضاً - عن عائشة قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « تحشرون حفاة عراة غرلا . قالت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك (٢) .

وروى الطبرى بسنده عن عائشة أنها قالت قرأت قول الله - تعالى - « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، فقالت : يا رسول الله واسوأناهم الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى سواة بعض ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعل امرئ منهم يرمئ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال ، شغل بعضهم عن بعض .

قوله : « وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، أى : تركتم ما أعطيناكم وما سكناكم فى الدنيا من أموال وأولاد وغيرهما وراء ظهوركم ولم تحملوا منه معكم فقيرا عند ما جئتمونا للحساب .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء باب قوله - تعالى - « وانخذلوا الله إبراهيم خليلاً ، وأخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق . باب كيف الحشر .

الْحَوْل : ما أعطاه الله لعباده من النعم : يقال : خوله الشيء ، تخويله ، ماله . إياه ومسكنه منه . ومنه التَّخُول بمعنى التعهد .

والجملة الكريمة تنضمن توبيخهم ، لأنهم لم يقدموا منه شيئاً في دنياهم ليكون نافعاً لهم في آخرهم ، بل جمعوه وتركوه لغيرهم دون أن ينتفعوا به في معادهم .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : يقول ابن آدم : مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفديت ، أو لبست فأبديت أو تصدقت فأفديت وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس ، (١) وقوله : وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، تقرير وتوبيخ لهم على شركهم .

أى : ما نرى وما نبصر معكم من زعمتم أنهم سيشفعون لكم عند الله من الأصنام والأوثان التي توهمتم أنهم شركاء . الله تعالى في ربوبيتكم واستحقاقه عبادتكم . وقوله : لقد تقطع بينكم ، أى : لقد تقطع الاتصال الذي كان بينكم في الدنيا واضمحل . ففاعل : تقطع ، ضمير يعود على الاتصال المدلول عليه بلفظ : شركاء ، و : بينكم ، منصوب على الظرفية .

وقرىء بالرفع أى : لقد تقطع شملكم فإن البين مصدر يستعمل في الوصل وفي الفراق بالاشتراك ؛ والأصل لقد تقطع ما بينكم وقد قرىء به أى : تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات .

ورضل عنكم ما كنتم تزعمون ، أى : وغلب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الشفعاء ، ورجاء الأنداد والأصنام . كما قال - تعالى - : إذ نبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ؛ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتروا منا كذلك يريهم الله أعظمهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ، (٢) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرفاق .

وهكذا يسوق القرآن مشهد هؤلاء الظالمين بتلك الصورة التي تهز النفوس ، وتحمل العقلاء على الإيمان والعمل الصالح .

وبعد أن ساق — سبحانه — ألواناً من الدلائل على وحدانيته ، وعلى صدق نبوته (صلى الله عليه وسلم) فيما يبلغه عن ربه ، شرع — سبحانه — في مرد مظاهر قدرته ، وكمال علمه وحكمته عن طريق التأمل في هذا الكون العجيب ، وفي بدائع مخلوقاته فقال — تعالى — :

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ^ط يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ^ط ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَإِنِّي تُوَفُّوْنَ ﴿٩٥﴾
 فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا
 ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ
 لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ^ط قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ^ط
 قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا
 مُّتَرَكَبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ
 وَالزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ^ط أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا
 أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ^ط إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

قوله : « إن الله فائق الحب والنوى » .

فائق : أى شاق ، والفلق هو الشق وقيل ، فائق بمعنى خالق وأنكر
عبد بن جرير الطبري ذلك وقال : لا يعرف في كلام العرب فلق الشيء بمعنى خلق .
والحب . ما ليس له نوى كالخنطة والشعير .

والنوى : جمع نواة وهو الموجود في داخل الثمرة ، مثل نوى
التمر وغيره .

والمعنى : إن الله وحده هو الذى يشق الحبة اليابسة كالخنطة فيخرج
منها النبات الأخضر النامى ، ويشق النواة الصلبة فيخرج منها النخلة والشجرة
النامية ، وفي ذلك أكبر دلالة على قدرة الله التى لا تحد وعلى أنه هو المستحق
للعباداة لا غيره .

هذا ، وقد أفاض الإمام الرازى وهو يتحدث عن هذه الآية في بيان
بيان قدرة الله فقال ما ملخصه :

« إذا عرفت هذا فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض
الرطبة ثم مر بها قدر من المدة أظهر الله - تعالى - فى تلك الحبة والنواة
من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا آخر ، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة
إلى الهواء ، والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض ثم إن هاهنا
عجائب .

فأحداها - أن طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضى الهوى فى عمق الأرض
فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء ؟ وإن كانت تقتضى الصعود فى
الهواء فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الأرض ؟ فلو أن لدنيا الشجرتان
مع أن الحس والعقل يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة
الأخرى - علمنا أن ذلك ليس بمقتضى للطبع والخاصية ، بل بمقتضى الإيجاد
والإبداع والتكوين .

المسلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوى فيه ، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللاطافة وبحيث لو دلكها الإنسان بإصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء ، ثم لأنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة ، والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة .
فحصل هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .

ثم قال - رحمه الله - بعد كلام طويل : فانظر أيها المسكين بعين رأسك في تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقه تلك العروق والأوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة في الأرواح البشرية ، فحينئذ يفتح لك باب من المـكاشفات لا آخر له ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله في حقك غير متناهية كما قال : د وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقه تلك الورقة من الحبة والنواة . . . (١) .

وقوله : د يخرج الحي من الميت ، أى : يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو كالنطفة والحبة .

والجملة السكرية مستأنفة مبينة لما قبلها ولذلك ترك العطف ، وقيل خبر ثان ولم يعطف لاستقلاله في الدلالة على عظمة الله - تعالى - .

وقوله : د ويخرج الميت من الحي ، أى : يخرج الميت كالحب والنوى من النبات والبيضة والنطفة من الحيوان .

قال صاحب المنار : فإن قيل إن علماء المواليد يزعمون أن في كل أصول الأحياء حياة فكل ما ينبت من ذلك ذو حياة كاملة إذا عقم بالصناعة لا ينبت قلنا : إن هذا اصطلاح لهم يسمون القوة أو الخاصية التي يكون بها الحب قابلاً للإنبيات حياة ، وليكن هذا لا يصح في اللغة إلا بضرب من التجوز وإنما حقيقة الحياة في اللغة ما يكون به الجسم متغذياً نامياً بالفعل ، وهذا أدنى مراتب الحياة عند العرب ، ولها مراتب أخرى كالإحساس والقدرة والإرادة والعلم والعقل والحكمة والنظام ، وهذا أعلى مراتب الحياة في المخلوق ، (١) وأقل بعض المفسرين عن ابن عباس أن معنى الجملتين : يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ومثله إخراج البار من الفاجر والصالح من الطالح والعالم من الجاهل وعكسه وذلك بحمله الحياة والموت على المعنوي منها كما في قوله - تعالى - «أر من كان ميتاً فأحييناه» .

ويبدو لنا أن حمل الحياة والموت هنا على المعنى المعنوي لا يناسبه سياق الآيات التي معنا ، لأنها تتحدث عن آثار قدرة الله المحسوسة ليزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم ، ويتأهل كل ذي عقل في مظاهر قدرة الله في كونه يهتدى إلى طريق الحق والصواب .

وقوله «ومخرج الميت من الحي» معطوف على ما قبله وهو قوله «يخرج الحي من الميت» لأنه إخبار بضمه وهو وضع آخر عجيب دال على كمال القدرة . وجيء بحملة «يخرج الحي من الميت» فعلية لإرادة تصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع . وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائها الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضى .

ويرى صاحب الكشف أن قوله : «ومخرج الميت من الحي» معطوف على «فائق» لا على «يخرج» لأنه بيان لفائق الحب والنوى .

قال - رحمه الله : فإن قلت : كيف قال : ويخرج الميت من الحى ،
 ويلفظ اسم الفاعل بعد قوله : : يخرج الحى من الميت ، ؟ قلت : عطفه على
 فاعل الحب والنوى لافعال الفعل ، ويخرج الحى من الميت : موقعه موقع الجملة
 المدينة لقوله : فاعل الحب والنوى ، لأن فاعل الحب والنوى بالنبات والشجر
 الناميين من جنس إخراج الحى من الميت ، لأن النامى فى حكم الحيوان
 ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ويحيى الأرض بعد موتها ، (١) .

وذا لكم الله فأتى تؤفكون ، الأفك - بفتح الهمزة - مصدر أفككه
 بأفكة من باب ضرب إذا صرفه عن مكان أو عن عمل ، ويقال أفككت
 الأرض أفككا : أى صرف عنها المطر .

والإشارة بذلكم لزيادة التمييز وللتعريض بقباوة المخاطبين والمشركون
 لغفلتهم عن هذه الدلالة على أنه هو المستحق للعبادة .

والاستفهام فى قوله : فأتى ، للتعجيب والإنكار . وبنى فعل تؤفكون
 المجهول لعدم تعيين صارفهم عن توحيد الله فهو بمجموع أشياء : وسوسة
 الشيطان ، وتضليل قادتهم وكبرائهم لهم ، وهوى أنفسهم .

والمعنى : ذلكم المتصف بما ذكر من مقتضى الحكمة البالغة والقدرة النافذة
 هو الله خالق كل شىء فكيف تصرفون عن عبادة من يخلق إلى عبادة من
 لا يخلق وتشركون معه من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ؟

قال الإمام الرازى : والمقصود منه أن الحى والميت متضادان متنافيان ،
 فحصول المثل عن المثل يوم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . أما حصول
 الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية بل لابد أن يكون
 بتقدير المقدر الحكيم والمدبر العليم ، (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٨ ص ٤٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٨ .

ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من مظاهر قدرته وحكمته فقال: فائق الإصباح وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حساباً ، .

الإصباح : مصدر سمي به الصبح ، أى : شاق ظلمة الصبح - وهى الغيش فى آخر الليل الذى يلى الفجر المستطيل الكاذب - عن بياض النهار فيضى الوجود ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده ، ويجىء النهار بضياءه ، وجملة فائق الإصباح ، خبر لمبتدأ محذوف أى : هو فائق ، أو خبر آخر لأن : وجعل الليل سكناً ، أى وجعل الليل محلاً لسكون الخلق فيه ، وراحة لهم بعد معاشهم بالنهار وسعيهم للحصول على رزقهم .

قال صاحب الكشاف : السكن : ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناساً به واسترواحاً إليه ، من زوج أو حبيب . ومنه قيل للنار سكن لأنه يستأنس بها ، ألا تراه سمرها المؤنسة ، والليل يطمئن إليه المتعب بالنهار لاستراحته فيه ويجوز أن يراد وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله : لتسكنوا فيه (١) .

والشمس والقمر حساباً ، الحسابان فى الأصل مصدر حسب - بفتح السين - كالغفران والشكران تقول حسبت المال حساباً : أى أحصيته عدداً . والمعنى : وجعل الشمس والقمر يجريان فى الفلك بحساب مقدر معلوم لا يتغير ولا يضطرب حتى ينتهى إلى أقصى منازلها بحيث تتم الشمس دورتها فى سنة ويتم القمر دورته فى شهر ، وبذلك تنظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها ، قال - تعالى - : هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، (٢) .

وقوله : ذلك تقدير العزيز العليم ، أى : ذلك الجعل والنسيير البديع الشأن

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٩ .

تقدير العزيز ، أى : الغالب القاهر الذى لا يتعاصاه شئ من الأشياء التى من جعلتها تسيرهما على الوجه المخصوص ، العليم بكل شئ . فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ماملخصه .

« لعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته . فالنوع المتقدم - أى قوله « إن الله فائق ... إلخ - كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان ، والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذاً من الأحوال الفلكية ، وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقفاً من الأحوال الأرضية ... » .

وبعد أن ساق - رحمه الله - الأدلة على ذلك قال : والعزیز إشارة إلى كمال قدرته ، والعلم إشارة إلى كمال علمه ، ومعناه : أن تقدير الأفلاك بصفاتها المخصوصة ، وهياتها المحدودة ، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة فى البطء والسرعة ، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة عتلة بجمیع الممكنات ، وعلم نافذ فى جميع المعلومات من الكليات والجزئيات ، وذلك نصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة ، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار والله أعلم ، (١) .

ثم ساق - سبحانه - نوعاً ثالثاً من الدلائل على كمال قدرته ورحمته وحكمته فقال - تعالى - « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، أى : وهو - سبحانه - وحده الذى أنشأ لكم هذه الكواكب النيرة لتهتدوا بها إلى الطرق والمسالك خلال سيركم فى ظلمات الليل بالبر والبحر حيث لا ترون شمساً ولا قمرًا .

وجملة انتهتوا بها ، بدل اشتغال من ضمير د لكم ، بإعادة العامل ، فكانه
 قيل : جعل النجوم لا هتدائكم .

د قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، أى : قد وضعنا وبيننا الآيات الدالة
 على قدرته - تعالى - ورحمته بعباده ، لقوم يعلمون وجه الاستدلال بها
 فيعملون بموجب علمهم ، ويزدادون إيماناً على إيمانهم .

فالجملة الكريمة مستأنفة للتسجيل والتبليغ وقطع معفرة من لم يؤمنوا .
 والتعريف في الآيات الاستغراق فيشمل آية خلق النجوم وغيرها .

ثم ساق - سبحانه - لونا رابعا من دلائل كمال قدرته ورحمته . فقال
 - تعالى - : د وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، .

أى : وهو - سبحانه - الذى أوجدكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم
 آدم - عليه السلام - قال - تعالى - : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم
 من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، .

وفى هذه الجملة الكريمة تذكير بنعمة أخرى من نعم الله على خلقه ، لأن
 رجوع الناس إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والتراحم والتعاطف ، وفيها
 - أيضاً - دليل على عظيم قدرته - عز وجل - .

والفاء فى قوله - تعالى - : فمستقر ومستودع ، للتفريع عن أنشأكم .

أى : أنشأكم من نفس واحدة فلكم موضع الاستقرار فى الأرحام
 أو فوق الأرض وموضع استيداع فى الأضلاب أو فى القبور .

وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس ، وقد زكاه الإمام الرازى فقال : وما
 يدل على قوة هذا القول أن النطقة الواحدة لا تبقى فى صلب الأب زمانا
 طويلا فالمستقر أقرب إلى الثبات من المستودع ، (١) .

وقيل المستقر حالة الإنسان بعد الموت لأنه إن كان سعيدا فقد استقرت
بملك السعادة ، وكذلك إن كان شقيا ، والمستودع حاله قبل الموت لأن
للكافر قد ينقلب مؤمنا .

وقيل : المستقر من خلق من النفس الأولى ودخل الدنيا واستقر فيها ،
والمستودع الذى لم يخلق بعد وسيخلق .

والذى نراه أن رأى الأول هو الصحيح لأنه رأى جمهور المفسرين ،
ولأن شواهد القرآن تؤيده كما فى قوله - تعالى - : ولكم فى الأرض مستقر
ومتاع إلى حين ، وكما فى قوله - تعالى - : ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى
أجل مسمى . .

وقرى : « فستقر » - بكسر القاف - أى : فذلكم مستقر فى الأرحام
ومنكم مستودع .

وقوله : « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » أى : قد فصلنا الآيات الدالة
على قدرتنا ووضاحتها لقوم يفقهون ما يتلى عليهم ويتدبرونه فينتفعون بذلك .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم قيل يعلمون ، مع ذكر النجوم
و « يفقهون » مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس
واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة الطيف وأدق صنعة وتديرا . فكان
ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنته وتدقيق فطره مطابقا له (١) .

وقد علق صاحب الانتصاف على كلام الزمخشري بما ملخصه : « جواب
الزمخشري صناعى ، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على
استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين .

في اللفظ ، لما في ذلك من التكرار فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسیناً للنظم واتساقاً في البلاغة ، ويحتمل وجهاً آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ولا يعتبر بمخلوقاته وكانت الآية الأولى خارجة عن أنفس الناظر ومنافية لها ، إذ النجوم والناظر فيها وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر ، ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة ، وتقلبهم في أطوار مختلفة فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها ، فإذا تمهد ذمك لجعل الإنسان بنفسه وبأحواله أبشع من جهله فالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم نفي من أبشع القبيلين جهلاً وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم ، ونفي الأدنى أبشع من نفي الأعلى درجة فنخص به أسوأ الفريقين حالاً .. وإذا قيل : فلان لا يفقه شيئاً ، كان أذم في العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئاً ، و كان معنى قولك لا يفقه شيئاً ليست له أهلية الفهم وإن فهم ، وأما قولك لا يعلم شيئاً ، فغايته نفي حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم ... (١) .

ثم ساق — سبحانه — حجة خامسة تدل دلالة واضحة على كمال قدرته وعلمه ورحمته وإحسانه إلى خلقه فقال — تعالى — :

« وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء . »

أى : وهو — سبحانه — الذي أنزل من السحاب ماء فأخرجنا بسبب ذلك كل صنف من أصناف النبات والثمار المختلفة في الكم والكيف والطعوم والألوان ، قال — تعالى — « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، »

وسمى السحاب سماء لأن العرب تسمى كل ما علا سماه ، ونزول الماء من السحاب قد جاء صريحاً في مثل قوله - تعالى - « أفرايتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » .

و«من» في قوله «من السماء» ابتدائية ، لأن ماء المطر يتكون في طبقات الجو العليا الباردة عند تصاعد البخار الأرضي إليها فيصير البخار كثيفاً وهو السحاب ثم يتحول إلى ماء ، والباء في «به» للسببية . إحيث جعل الله - تعالى - الماء سبباً في خروج النبات ، والفاء في قوله «فأخرجنا» للتفريع و«أخرجنا» عطف على «أنزل» والالتفات إلى التكلم لإظهار الكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله .

ثم شرع - سبحانه - في تفصيل ما أجمل من الإخراج فقال : «فأخرجنا منه خضراً» أي : فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له نباتاً غضاً أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ، وخضر بمعنى أخضر اسم فاعل . يقال : خضر الزرع - من باب فرح - وأخضر ، فهو خضر وأخضر . وقوله «فنخرج منه حباً متراكباً» .

أي : فنخرج من هذا النبات الخضر حباً متراكباً ، أي : متراكباً بعضه فوق بعض كما في الخنطة والشعير وسائر الحبوب ، يقال : ركب - كسمعه - ركبوا ومراكباً . أي : علاه .

وجملة «فنخرج منه» صفة لقوله «خضراً» . وعبر عنها بصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة لأن إخراج الحب المتراكب من هذا الخضر الغض يدعو إلى التأمل والإعجاب بمظاهر قدرة الله .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى فقال : «ومن النخل من طلعها قنوان دافية» .

الطلع : أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالـكيزان . وقشره يسمى الكمرى ، وما فى داخله يسمى الإغريق لبياضه .

والقنوان . جمع قنو وهو العرجون بما فيه الشماريخ ، وهو دشتاه سواء لا يفرق بينهما إلا فى الإعراب .

أى : ونخرج بقدرتنا من طلع النخل قنوان دائية القطوف ، سهلة التناول أو بعضها دان قريب من بعض لكثرة حملها .

قال صاحب الكشاف : ود قنوان ، رفع بالابتداء ، ود من النخل . خبره ود من طلوعها ، بدل منه . كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان دائية . وذكر القرينة وترك ذكر البعيدة ، لأن النعمة فيها أظهر وأدل واكتفى بذكر القرينة على ذكر البعيدة كقوله : د سراييل تفيكم الحر ، (١) ،

وقوله : (وجنات من أعناب) معطوف على (نبات كل شئ) أى : فأخرجنا بهذا الماء نبات كل شئ . وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب . وجعله : بعضهم عطفاً على (خضراً) . وقيل هو معطوف على (حباً) .

وقوله : (والزيتون والرمان) منصوب على الاختصاص أى : وأخص من نبات كل شئ الزيتون والرمان ، وقيل معطوف على (نبات كل شئ) .

قال الألوسى : وقوله : (مشتبهها وغير متشابه) إما حال من الزيتون لسبقه اكتفى به عن حال ماء عطف عليه وهو الرمان والتقدير : والزيتون مشتبهها وغير متشابه والرمان كذلك ، وإما حال من الرمان لقربه ويقدر مثله فى الأول .

وأياً ما كان فى الكلام مضاف مقدر وهو بعض . أى بعض ذلك مشتبهاً . وبعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف .

الدالة على كمال قدرة صانعها ، وحكمة منشئها ومبدعها كما قال - تعالى -
 « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » (١) .

ثم أمر الله عباده أن يتأملوا في بديع صنعه فقال : « انظروا إلى ثمره إذا
 أثمر وينعه ، أى : انظروا نظر تأمل واعتبار إلى ثمار كل واحد مما ذكرناه
 حال ابتدائه حين يكون ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به ، وحال ينعه أى :
 فضجه كيف يصير كبيراً أوجامعاً لألوان من المنافع والملاذ .
 يقال : أينعت الثمرة إذا نضجت .

وقوله « إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » ، أى : إن في ذلكم الذى
 ذكرناه من أنواع النبات والثمار ، وذلكم الذى أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة
 وجود القادر الحكيم لقوم يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه
 الثمار هو المستحق للعبادة دون ما سواه أو هو للقادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم

قال الشيخ القاسمى : قال بعضهم : القوم كانوا ينكرون البعث فاحتج
 عليهم بتعريف ما خلق ونقله من حال إلى حال وهو ما يعلمونه قطعاً
 ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج أنواع النبات والثمار
 منها . وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله - تعالى - فبين أنه - سبحانه -
 كذلك قادر على إإنشائهم من نفوسهم وأبدانهم ، وعلى البعث بإزال المطر
 من السماء ، ثم إنبات الأجساد كالنبات ، ثم جعلها خضرة بالحياة ثم تصوير
 الأعمال بصور كثيرة ، وإفادة أمور زائدة وتفرعها ، وإعطاء أطعمة مشبهة
 فى الصورة غير متشابهة فى اللذة جزاء عليها ، (٢) .

هذا وقد أفاض الإمام الرازى - رحمه الله - عنده تفسيره لهذه الآية
 فى بيان مظاهر قدرة الله وكمال رحمته وحكمته فقال ما ملخصه :

(١) تفسير الألوسى ج ٧ ص ٢٤٠

(٢) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٢٤١٩

واعلم أنه - تعالى - ذكرها هنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان . وإنما قدم الزرع على الشجر لأن الزرع غذاء وثمار الأشجار فواكه والغذاء مقدم على الفاكهة ، وإنما قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب . . . وإنما ذكر العنب عقب النخل ، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يهير منتفعاً به إلى آخر الحال . . . وأما الزيتون فهو - أيضاً - كثير النفع لأنه يمكن تناوله كما هو وبنفصل - أيضاً - عنه دهن كثير عظيم النفع . . . وأما الرمان فخاله عجيب جداً . . . واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات ، فلهذا السبب ذكر - سبحانه - هذه الأقسام الأربعة التي هي أشرف أنواع النبات ، واكتفى بذكرها تنبيهاً على البواقى .

ثم قال : وقد أمر - سبحانه - بالنظر في حال ابتداء الثمر ونضجه لأن هذا هو موضوع الاستدلال ، والحجة التي هي تمام المقصود من هذه الآية وذلك لأن هذه الثمار والأزهار تتولد في أول حدوثها عن صفات مخصوصة وعند تمامها لا تبقى على حالاتها الأولى بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة مثل أنها كانت موصوفة بلون الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أو بلون الحمرة وكانت موصوفة بالخشونة فتصير موصوفة بالخلابة ، وربما كانت في أول الأمر باردة بحسب الطبيعة فتصير في آخر أمرها حارة بحسب الطبيعة - أيضاً - فيحصل هذه المتبدلات والمتغيرات لا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والنجم والأفلاك ، لأن نسبة هذه الأحوال بأمرها إلى جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة ، والنسب المتشابهة لا يمكن أن تكون أسباباً لحدوث الحوادث المختلفة . ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع والنجم والأفلاك وجب إسناده إلى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر لهذا العالم عل وفق الرحمة والمصلحة الحكيمة ، (١) .

وبعد أن ذكر - سبحانه - تلك الدلائل الدالة على عظيم قدرته ،
وباهر حكمته ووافر نعمته . واستحقاقه الألوهية ، أنبأها بتوبيخ المشركين
والرد عليهم بما يرشدهم إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال - تعالى - :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ

شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ
لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

قوله : وجعلوا لله شركاء الجن ، أى : وجعل هؤلاء المشركون لله
- سبحانه - شركاء في الألوهية والربوبية من الجن .

وفي المراد بالجن هنا أقوال : أحدها ، أنهم الملائكة حيث عبدوهم وقالوا
لأنهم بنات الله ونسبهم جناباً لا جتناهم واستأثروا عن الأعين كالجن .
والثاني : أن المراد بالجن هنا الشياطين . ومعنى جعلهم شركاء أنهم أطاعوهم
في أمور الشرك والمأصلي كما يطاع الله - تعالى -

والثالث : أن المراد بالجن إبليس فقد عبده قوم وسموه رباً ومنهم من سماه
إله الشر والظلمة وخص الباري بالألوهية الخيرة والنور . وقد نقل هذا الرأي عن ابن
عباس وقد قال الرازي عن هذا الرأي أنه أحسن الوجوه المذكورة في هذه الآية
أما ابن كثير فقد رجح الرأي الثاني وقال : فإن قيل كيف عبدت الجن
مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة

الجن وأمرهم لهم بذلك كقوله : « إن يدعون من دونه إلا أنا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ، وكقوله « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم ، وتقول الملائكة يوم القيامة : « سبحانك أنت وإينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ، (١) .

وقال - سبحانه - « وجعلوا لله شركاء الجن ، ولم يقل : وجعلوا الجن شركاء لله . لإفادة أن محل الغرابة والنكارة أن يكون لله شركاء . ولو قال وجعلوا الجن شركاء لله لأوهم أن موضع الإنكار أن يكون الجن شركاء لله لكونهم جناً . وليس الأمر كذلك ، بل المنكر أن يكون لله شريك من أى جنس كان .

وجملة : « وخلقهم ، حال من فاعل « جعلوا ، مؤكدة لما في جعلهم ذلك من كمال القباحة والبطلان .

أى : وجعلوا لله شركاء الجن والحال أنهم قد علموا أن الله وحده هو الذى خلقهم دون الجن وإيس من يخلق كمن لا يخلق ، وعليه فالضمير فى خلقهم يعود على المشركين الذين جعلوا لله شركاء .

وقيل الضمير للشركاء . أى : والحال أنهم قد علموا أن الله هو الذى خلق الجن فكيف يجعلونه مخلون شريكاً له ؟

وقوله ، « وخرقوا له بين وبنات بغير علم ، أى : واختلفوا وافتروا له بحملهم وانطماس بصيرتهم بين وبنات من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولما كن رمية بقول عن عمى وجهالة من غير فذكر وروية . أو بغير علم بمرتبته ما قالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره . وفيه ذم لهم بأنهم يقولون ما يقولون بمجرد الرأى والهوى وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه - تعالى - إلا ما قام الدليل على صحته .

قال الراغب : « أصل الخرق قطع الشئ . على سبيل الفساد من غير تدبر

ولا تفكر ، قال - تعالى - : أخرقتها لتفريق أهلها ، وهو ضد الخلق لأن الخلق هو فعل الشيء . بتقدير ورفق . . . (١) .

ثم ختمت الآية الكريمة بتزيه الله - تعالى - عما نسبوه إليه فقال - تعالى - : « سبحانه وتعالى عما يصفون ، أى : تقدس وتنزه وتعاظم عما يصدر به هؤلاء الضالون من الأبداد والأولاد والنظراء والشركاء .
ثم ساق - سبحانه - الأدلة المبطلة لما تفوه به المشركون من مزاعم فقال - تعالى - : « بديع السموات والأرض أى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخالق كل شيء وهو بكل شيء عليم . »

أى : هو مبدعها ومنتشئها وخالقها على غير مثال سبق ، ومنه سميت البدعة بدعة لأنه لا نظير لها فيما سلف .

وقوله : « أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، أى : من أين وكيف يكون له ولد - كما زعموا - والحال أنه ليس له صاحبة يكون الولد منها ، ويستحيل ضرورة وجود الولد بلا والدة وإن أمكن وجوده بلا والد ، وأيضاً الولد لا يحصل إلا بين متجانسين ولا مجانس له - سبحانه - .

وجملة « أنى يكون له ولد ، مستأنفة لتقرير تنزهه عن ذلك ، وجملة « ولم تكن له صاحبة ، حال مؤكدة لاستحالة ما نسبوه إليه من الولد .

وقوله « وخالق كل شيء ، جملة أخرى مستأنفة لتحقيق ما ذكر من الاستحالة ، أو حال ثانيه مقررة لها .

أى : كيف يكون له ولد والحال أنه خالق كل شيء . أنتظمه التكوين والإيجاد من الموجدات التى من جملتها ما سمى ولداً له - تعالى - فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟

قال صاحب الكشف : وفي هذه الآية الكريمة إبطال لأن يكون لله ولد من ثلاثة أوجه ، أحدها : أن مبدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن توصف بالولادة . لأن الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والداً . والثاني : أن الولادة لا تكون إلا لمن له صاحبة والله - تعالى - لا صاحبة له فلم تصح الولادة . والثالث : أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء . والولد إنما يطلبه المحتاج (١) .

وجملة : وهو بكل شيء عليم ، مستأنفة مقرررة لضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة بطلان أن يكون له ولد .

أى : أنه - سبحانه - عالم بكل المعلومات ، فلو كان له ولد فلا بد أن يتصف بصفاته ومنها عموم العلم ، وهو منفي عن غيره بالإجماع .

وبعد أن أبطل - سبحانه - الشرك ونعى على معتنقيه سوء تفكيرهم ، دعا المكلفين إلى إخلاص العبودية لله وحده فقال - تعالى - :

« ذلکم الله ربکم لا إله إلا هو خالق کل شيء فاعبدوه . »
أى ذلکم الموصوف بما سمعتم من جلائل الصفات هو الله ربکم لا من زعمتم من الشركاء ، فأخلصوا له العبادة فهو - سبحانه - الخالق لكل شيء . وما عداه فهو مخلوق يجب أن يعبد خالقه .

وقوله : وهو على كل شيء وكيل ، أى وهو مع تلك الصفات الجلية رقيب على عباده حفيظ عليهم ، يدبر أمرهم ، ويتولى جميع شئونهم .

وقوله : ولا ندرکه إلا بصار ، جملة مستأنفة إمامة كدة لقوله وهو على كل شيء وكيل ، ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فيجب أن يخاف ويحذر ، وأما مؤكدة أعظم تأكيد لما تقرر قبل من تنزهه وتعالیه عما وصفه به المشركون ، ببيان أنه لا ترام إلا بصار المعبودة وهي أبصار أهل الدنيا اجلاله وكبريائه وعظمته . فكيف يمكن له ولد ؟

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٥٢

والإدراك :^(١) اللاحق والوصول إلى الشيء والإحاطة به . والأبصار جمع .
بصر يطلق - كما قال الراغب - على الجارحة الناضرة وعلى القوة التي فيها .
والمعنى : لا تحيط بعظمته وجلاله على ما هو عليه - سبحانه - أبصار
المخلوق ، أولاً تدركه الأبصار إدراك إحاطة بكنهه وحقيقته فإن ذلك محال
والإدراك بهذا المعنى أخص من الرؤية التي هي مجرد المعاينة ، فنفيه
لا يقتضى نفي الرؤية ، لأن نفي الأخص لا يقتضى نفي الأعم فأنت ترى
الشمس والقمر ولا تكنك لا تدرك كنههما وحقيقتهما .
هذا ، وهناك خلاف مشهور بين أهل السنة والمعتزلة في مسألة رؤية
الله - تعالى - في الآخرة .

أما أهل السنة فيجيزون ذلك ويستشهدون بالكتاب والسنة ، فمن
الكتاب قوله - تعالى - « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » ، ومن السنة
ما رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوساً عند النبي
(صلى الله عليه وسلم) إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم
كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن
صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ : وسبح بحمد ربك
قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

قال الإمام ابن كثير : تواترت الأخبار عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن
المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة والعرضات وفي روضات الجنات ،^(١)
أما المعتزلة فيمنعون رؤية المؤمنين لله - تعالى - في الآخرة ، واستدلوا
فيما استدلوا بهذه الآية ، وقالوا : إن الإدراك المضاف إلى الأبصار إنما
هو الرؤية ولا فرق بين أدر كته ببصرى ورأيته إلا في اللفظ .

والذي نراه أن رأى أهل السنة أقوى لأن ظهور النصوص تؤيدهم ولا
بحال هنا أبسط حجج كل فريق ، فقد تكففت بذلك كتب علم الكلام^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦١

(٢) راجع تفسير القاسمي ج ٦ ص ٢٤٤٦ وما بعدها .

وقوله ، وهو يدرك الأبصار ، أى : وهو يدرك القوة التى تدرك بها
 المبصرات . ويحيط بها علما ، إذ هو خالق القوى والحواس .
 وقوله (وهو اللطيف الخبير) أى : هو الذى يعامل عباده بالالطف
 والرافة وهو العليم بدقائق الأمور وجليلاتها .
 ثم أخذ القرآن فى تثبيت النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى تسليته . وفى
 مدح ما جاء به من هدايات فقال - تعالى - :

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَنْ أَبْصِرْ
 فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ
 نَصَرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ
 مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۚ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۚ وَمَا أَنْتَ
 عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ
 عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
 مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
 لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ
 أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا
 لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

قوله : قد جاءكم بصائر من ربكم ، البصائر : جمع بصيرة ، وهى للقلب بمنزلة البصر للعين ، فهى النور الذى يبصر به القلب ، كما أن البصر هو النور الذى تبصر به العين .

والمراد بها آيات القرآن ودلائله التى يفرق بها بين الهدى والضلالة .
أى : قد جاءكم أيها الناس من ربكم وخالفكم هذا القرآن بآياته وحججه وهذا ياتيه لىكى تميزوا بين الحق والباطل ، وتقبهوا الصراط المستقيم .

وإطلاق البصائر على هذه الآيات من إطلاق اسم المسبب على السبب .
وقوله : فن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، أى : فن أبصر الحق وعلمه بواسطة تلك البصائر وآمن به فلنفسه أبصر وإياها ففزع ، ولسعادتها ما قدم من ألوان الخير ، ومن عمى عن الحق وجهله بإعراضه عن هذه البصائر فعلى نفسه وحدها جنى وإياها ضرب بالعمى . وهذا كقوله - تعالى - : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وقوله : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) .
واختتمت الآية بقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) أى : وما أنا عليكم برفيق أحصى عليكم أعمالكم ، وأحفظكم من الضلال ، وإنما أنا على البلاغ والله وحده هو الذى يحصى عليكم أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون .

وقوله : (وكذلك نصرف الآيات) أى : وكما فصلنا الآيات الدالة على التوحيد فى هذه السورة تفصيلاً بديعاً محكماً بفصل الآيات ونبيها وتنوعها فى كل موطن لنقوم على الجاحدين الحجة ، ويزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم .
(وليقولوا درست) يقال درس الكتاب يدرسه دراسة إذا أكثر قراءته وذلكة للحفظ . وأصله من درس الحنطة يدرسها درساً ودراساً إذا داسها ، فكان التالى يدوس المكلام فيخفف على لسانه .

والمعنى : وليقولوا المشركون فى الرد عليك : إنك يا محمد قد قرأت الكتب على أهل الكتاب وتعلمت منهم ، وحفظت عن طريق الدراسة أخبار من مضى ، ثم

جئنا بعد كل ذلك نزع أن ما جئت به من عند الله ، وما هو من عند الله .
وقد حكى القرآن في مواضع كثيرة التهم الباطلة التي وجهها المشركون
إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن ذلك قوله - تعالى - :
« وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون
فقد جاءوا ظلماً وزوراً » وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه
بكرة وأصيلاً .

قال ابن عباس : (وليقولوا) يعنى : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن
(درست) يعنى : تعلمت من يسار وخير - وكافا عبيد من سبى الروم -
ثم قرأت علينا نزع أنه من عند الله .
وقال الفراء : معناه ، تعلمت من اليهود لأنهم كانوا معروفين عند أهل
مكة بالعلم والمعرفة .

وقرىء (دارست) - بالالف وفتح التاء - أى : دارست غيرك ممن يعلم
الأخبار الماضية كأهل الكتاب ، من المدارس بين الإثنين ، أى : قرأت
عليهم وقرءوا عليك .

قال تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون
إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) .

وقرىء - أيضاً - (درست) - بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء -
أى : وليقولوا مضت وقدمت وتكررت على الأسماع ، وقد حكى القرآن
أنهم قالوا أساطير الأولين قال - تعالى - (حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول
الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) .

وهذه القراءات الثلاث متواترة وهناك قراءات أخرى شاذة لا مجال
لذكرها هنا .

وقوله . (ولنبينه لقوم يعلمون) أى : ولنبين وفوضح هذا القرآن لقوم

يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه ، فهم المنتفعون به دون سواهم .
فالضمير في (ولنبيته) يعود إلى القرآن لكونه معلوما وإن لم يجر له ذكر
وقيل يعود إلى الآيات لأنها في معنى القرآن .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : أي فرق بين اللامين في (وليقولوا)
و (لنبيته) ؟ قلت : الفرق بينهما أن الأول مجاز والثانية حقيقة ، وذلك لأن
الآيات صرفت للنبيين ولم تصرف ليقولوا درست ، ولكن لأنه حصل هذا
القول بتصريف الآيات كما حصل للنبيين شبه به فسيق مساقه (١) .

ثم أمر الله تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يستمر في دعوته
دون أن يعول على تعنت المشركين فقال - تعالى - (اتبع ما أوحى إليك
من ربك لا إله هو وأعرض عن المشركين) .

أي عليك يا محمد أن تداوم على تبليغ رسالتك ، متبعا في ذلك ما أوحاه
إليك ربك الذي لا إله إلا هو من آيات وهدايات ، معرضا عن المشركين
الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون .

وجملة لا إله إلا هو ، معترضة لتأكيد إيجاب الاتباع ، أو حال
مؤكد لقوله من ربك ، بمعنى : منفردا في الألوهية .

ثم هون عليه أمر إعراضهم فقال - تعالى - ، ولو شاء الله ما أشركوا ،
أي : ولو شاء الله عدم إشرائهم لما أشركوا ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ
ذلك لأنه جرت سنته برعاية الاستعدادات .

قال الألوسي : وهذا دليل أهل السنة على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر
لكن لا بمعنى أنه يمنعه عنه مع توجهه إليه ، ولكن بمعنى أنه - تعالى -

لا يريد منه سوء اختياره الناشئ من سوء استعداده ، (١) .

وقوله : وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل ، أى :
وما جعلناك عليهم حفيظا يحفظ عليهم أعمالهم لتعاسبهم وتجازيهم عليها
وما أنت عليهم بوكيل تدبر عليهم أمورهم وتتصرف فيها ، وإنما أنت وظيفتك
التبليغ قال - تعالى - : فإن تولوا فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، وقال
- تعالى - : فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ، .

ثم أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، فنهام عن سب آلهة
المشركين حتى لا يقابلهم المشركون بالمثل فقال - تعالى - :

« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله . . . »

السب : الشتم الوضع وذکر مساوى . الغير لمجرد التحقير والإيمامة .
وعدوا : مصدر بمعنى العدوان والظلم والتجاوز من الحق إلى الباطل وهو
مفعول مطلق « تسبوا » من معناه ، لأن السب عدوان ، وقيل هو حال من
ضمير « يسبوا » مؤكدة لضمون الجملة وكذلك قوله « بغير علم » .
والمعنى : ولا تسبوا أيها المؤمنون آلهة المشركين الباطلة فيرتب على ذلك
أن يسب المشركون معبودكم الحق جهلا منهم وضلالا .

قال الألوسى : ومعنى سبهم لله - تعالى - إفضاء كلامهم إليه كشتمهم له
- صلى الله عليه وسلم - ولما يأمره وقد فسر « بغير علم » بذلك أى :
فيسبوا الله - تعالى - بغير علم أنهم يسبونه وإلا فالقوم كانوا يقرون بالله
- تعالى - وعظمته وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعا لهم عنده
- سبحانه - فكيف يسبونه ؟ ويحتمل أن يراد سبهم له - عز وجل -
صراحة ولا إشكال بناء على أن الغضب والغبط قد يحملهم على ذلك ، ألا

تروى أن المسلم قد تحمله شدة غيظة على التكلم بالكفر ، وما شاهدناه أن بعض جملة العوام رأى بعض الرافضة يسب الشيخين - أبا بكر وعمر - فغاضبه ذلك جداً فسب علياً - كرم الله وجهه - فمثل عن ذلك فقال : ما أردت إلا إغاضتهم ولم أر شيئاً يغيظهم مثل ذلك فاستنيب عن هذا الجمل العظيم ، (١) . وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما رواه معمر عن قتادة قال . . كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيسب الكفار الله عدواً بغير علم فنزلت ، (٢) .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : سب الآلهة الباطلة حق وطاعة فكيف صح النهى عنه وإنما يصح النهى عن المعاصي ؟ قلت رب طاعة علم أنها تؤدي إلى مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة . كالنهي عن المنكر هو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ووجب النهى عن ذلك كما يجب النهى عن المنكر ، (٣) .

وقال الشيخ القاسمي : قال ابن الفرس في الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن لم يحز أن يسبوا الهتهم ولا دينهم ، وهذا أصل في سد الذرائع . .

وقال السيوطي : وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى وكذا كل مفعول مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه . .

وقال الخاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين : أحدهما أنها جاد لا ذنب

(١) تفسير الألوسي ج ٧ ص ٤٥١

(٢) د ابن كثير ج ٢ ص ١٦٤

(٣) د الكشاف ج ١ ص ٥٦

لها . والثاني : أن ذلك يؤدي إلى المعصية بسب الله - تعالى - . والذي يجب علينا إنما هو بيان بغضها وأنه لا يجوز عبادتها ، وأنها لا تنفع ولا تنفع ، وأنها لا تستحق العبادة ، وهذا ليس بسب . ولهذا قال أمير المؤمنين علي - يوم صفين - : لا تسبوا ولا تكن اذكروا قبيح أفعالهم (١) .

وقال بعض العلماء : ووجه النهي عن سب أصنامهم هو أن السب لا تقرب عليه مصلحة دينية ، لأن المقصود من الدعوة هو الاستدلال على إبطال الشرك وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله - تعالى . فذلك الذي يتميز به الحق من المبطل ، فأما السب فإنه مقدر للمحق وللمبطل فيظهر بمظهر المساوي بينهما ، وربما استطاع المبطل بوقاحته وفحشه مالا يستطيعه الحق ، فيلوح للناس أنه تغلب على الحق . على أن سب آلهتهم لما كان يحصى غيظهم ويزيد تصلبهم صار منافياً لمراد الله من الدعوة فقد قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : وجادلهم بالتي هي أحسن ، . وأصبح هذا السب متمحضاً للفسدة وليس مشوباً بمصلحة ، وليس هذا مثل تغيير المنكر إذا خيف إفضاؤه إلى مفسدة ، لأن تغيير المنكر مصلحة بالذات وإفضاؤه إلى المفسدة بالعرض . وذلك مجال تفرّد فيه أنظار العلماء المجتهدين بحسب الموازنة بين المصالح والمفاسد قوة وضعفاً وتحققاً واحتمالاً ، وكذلك القول في تعارض المصالح والمفاسد كلها (٢) .

وهذه الآية الكريمة ليست منسوخة بآية السيف - كما قيل - وإنما هي محكمة ولذا قال القرطبي : قال العلماء : حكمها باق في هذه الأمة على كل حال فتنى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي (صلى الله عليه وسلم) أو الله - تعالى - فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا كنانهم ،

(١) تفسير القاسمي ج ٦ ص ٢٤٦٣

(٢) تفسير التتبع ج ١ ص ١٠٠

ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك ، لأنه بمنزلة البحث على المعصية ، (١) .

وقوله : كذالك زيننا لكل أمة عملهم .

التزيين تعجيل من الزين وهو الحسن .

والمعنى : مثل ذلك التزيين الذى حمل المشركين على للدفاع عن عقائدهم الباطلة جهلا منهم وعدوانا ، زيننا لكل أمة من الأمم عملهم ، من الخير والشر والإيمان والكفر ، فقد مضت سننا فى أخلاق البشر أن يستحسنوا ما تعودوه ، وأن يتملقوا بما ألفوه .

وقيل : المراد بكل أمة أمم الكفر لأن الكلام فيهم . والمراد بعملهم .
شروهم ومفاسدهم . والمشبه به تزيين سب الله - تعالى - لهم .

أى : كما زيننا لهؤلاء المشركين سوء أعمالهم زيننا لكل أمة من الأمم المماضية على الضلال عملهم السيء .

قال الألوسى : وقد استدل بالآية على أنه - تعالى - هو الذى زين للكافر كفره كما زين للمؤمن إيمانه . وأنكر ذلك المعتزلة فتناولوا الآية بما لا يخفى ضعفه .

وقال صاحب المنار : فظهر بهذا التزيين أثر لأعمال إختيارية لا جبر فيها ولا إكراه وليس المراد به أن الله خلق فى قلوب بعض الأمم تزيينا للكفر والشر ، وفى قلوب بعضها الآخر تزيينا للإيمان والخير خلقا ابتدائيا من غير أن يكون لهم عمل إختيارى نشأ عنه ذلك ، إذ لو كان الأمر كما ذكر لمكان الإيمان والكفر والخير والشر من الغرائب الخلقية التى تعد الدعوة إليها والفرغيب فيها وما يقابلهما من النهى والترهيب عنها من العبث الذى يتنزه الله

عن إرسال الرسل وإزالة الكتب لأجله . . . وقد غفلت الممثلة عن هذا التحقيق فأول بعضهم الآية بأنها خاصة بالمؤمنين الذين زين الله في قلوبهم بالإيمان وبعضهم بغير ذلك . . . (١) .

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقول : « ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » أى : ثم إلى ربهم أمورهم ورجوعهم ومصيرهم بعد البعث ، فيخبرهم من غير تسويق أو تأخير بما كانوا يعملونه في الدنيا ، ويجازيهم هل ذلك بما يستحقونه . وفي هذه الجملة الكريمة تهدد وتوبيخ لأولئك المشركين الذين تجاسروا على مقام الله ، وزين لهم سوء أعمالهم فأروه حسنا .

ثم حكى القرآن بعض المقترحات المتعنتة للى كان يقترحها المشركون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم في الجهد : الوسع والطاقة من جهد نفسه يجهدوا في الأمر إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها فيه . وهو مصدر في موضع الحال .

أى : وأقسم أولئك المشركون بالله مجتهدين في إيمانهم ، مؤكدين لإياها بأقصى ألوان التأكيد ، مدعين أنهم لن جاءتهم آية من الآيات الكونية التى اقترحوها عليك يا محمد ليؤمنن بها أما من عند الله وأنت صادق فيما تبليغه عن ربك .

وقد لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الرد المفحم لهم فقال : « قل إنما الآيات عند الله . . .

أى : قل لهم يا محمد إن هذه الآيات التى اقترحتوها تعنتا وعنادا مردها إلى الله ، فهو وحده القادر عليها والمتصرف فيها حسب مشيئته وحكمته ، إن شاء أنزلها وإن شاء منعها ، أما أنا فليس ذلك لى .

أخرج ابن جرير — بسنده — عن محمد بن كعب القرظى قال : كلم نفر من قريش رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . فقالوا له ، يا محمد ، نخبرنا أن موسى كان معه عصا ضرب بها الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقه فأتنا بآية من هذه الآيات حتى نصدقك ، فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أى شيء تحبون أن آتيكم به » ؟ قالوا ، تجعل لنا الصفا ذهباً ، فقال لهم : « فإن فعلت تصدقون » ؟ قالوا نعم . والله لئن فعلت لاتبعنك أجمعون فقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدعو لجامه جبريل فقال ، إن شئت أصبح الصفا ذهباً على أن يعذبهم الله إذا لم يؤمنوا ، وإن شئت فأنركم حتى يتوب تائبهم ، فقال — صلى الله عليه وسلم — بل أنركم حتى يتوب تائبهم ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بل يتوب تائبهم ، فأنزل الله — تعالى — قوله . « وأقسموا بالله جهد أيمانهم . . . إلى قوله . « ولكن أكثرهم يجهلون » (١) .

وقوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » .

أى : وما يدريكم أيها المؤمنون الراغبون فى إنزال هذه الآيات طمعاً فى إسلام هؤلاء المشركين أنها إذا جاءت لا يؤمنون أى : إذا جاءت هذه الآيات فأننا أعلم أنهم لا يؤمنون وأنتم لا تعلمون ذلك ولذا توقعتم إيمانهم ورجبتهم فى نزول الآيات .

فالخطاب هنا المؤمنين ، والاستفهام في معنى النفي ، وهو إخبار عنهم بعدم العلم وليس للانكار عليهم .

أى : إنكم أيها المؤمنون ليس هتكم شئ . من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبي الذي لا يعلمه إلا هلام الغيوب وهو أنهم لا يؤمنون إن جاءتهم الآيات التي يقترحونها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تعنتا وجهلا .

قال صاحب الكشاف : وما يشعركم وما يدريكم ، أنها أى الآية التي تقترحونها ، إذا جاءت لا يؤمنون ، يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأتم لا تدرن بذلك ، وذلك أن المؤمنين كانوا يطعمون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها ، فقال - عز وجل - وما يدريكم أنهم لا يؤمنون وقيل أنها ، بمعنى : اهل ، من قول العرب : أنت السوق أنك تشتري حماراً . وقال امرؤ القيس .

هو جا على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خدام
أى : اعلنا نبكى الديار .

وقرىء بكسر الهمزة على أن الكلام قد تم قبله بمعنى : وما يشعركم ما يكون منهم ؟ ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال : إنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة (١) . وقوله : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، معطوف على : لا يؤمنون ، وداخل معه في حكمه ، وما يشعركم ، مقيد بما قيد به . أى : وما يشعركم أنا فنقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه ، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، كشأنهم في عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من آيات وهدايات على لسان - رسول الله صلى الله عليه وسلم - قبل أن يقترحوا عليه تلك المقترحات الباطلة .

إنكم أيها المؤمنون لا تدرن ذلك ولا تشعرون به لأن علمه عند الله وحده .

قال الآلوسی : وهذا التقلب ليس مع توجه الأفئدة والأبصار إلى الحق واستعدادها له ، بل لـلكال نبو ما عنه وإعراضها بالكلية . ولذلك أخذ ذكره عن ذكر عدم إيمانهم لإشعارنا بأصالتهم في الكفر وحسبنا لتوهم أن عدم إيمانهم ناشى من تقلبيه - تعالى - مشاعرهم بطريق الإيجاب ، (١) .
وقوله ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ، معطوف على « لا يؤمنون » .
والعمه : الفرد في الأمر مع الحيرة فيه . يقال : عمه - كفرح ومنع -
عما إذا تردد وتخير .

أى : ونتركهم في تجاوزهم الحد في العصيان يترددون متحيرين ،
لا يعرفون لهم طريقا ، ولا يهتدون إلى سبيل .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين الذين يزعمون أنهم لو جاءتهم آية
ليؤمنن بها كاذبون في إيمانهم الفاجرة ، فقال - تعالى - :

وَلَوْ أَنَّنَا

نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِي وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا
مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

والمعنى : ولو أننا يا محمد لم نفتصر على إيتاء ما اقترحه هؤلاء المشركون من آيات كونية ، بل أضفنا إلى ذلك أننا نزلنا عليهم الملائكة يشهدون بصدقك وأحيينا لهم الموتي فشهدوا بحقيقة الإيمان ، وزدنا على ذلك فجعلناهم جميع الخلائق مقابلة ومعاينة حتى يواجهوهم بأنك على الحق ، لو أننا فعلنا كل ذلك ما استقام لهم الإيمان لسوء استعدادهم وفساد فطرهم ، وانطماس بصيرتهم ، فإن قوما يمرون على تلك الآيات الكونية التي زخر بها هذا الكون والتي استعرضتها هذه السورة فلا تنفتح لها بصائرهم ، ولا تتحرك لها مشاعرهم ، ليسوا على استعداد لأن يخاطب الإيمان شغاف قلوبهم ، والذي ينقصهم إنما هو القلب الحى الذى يتلقى ويتأثر ويستجيب وليس الآيات التي يقترحونها فإن أمامهم الكثير منها ، واقتراحتهم إنما هى نوع من العبث السخيف ، والتعننت المرذول الذى لا يستحق أن يهتم به .

و « قبلا » - بضم القاف والباء - حال من كل شيء ، وفيه أوجه الأول أنه جمع قبيل بمعنى كفيل مثل قليب وقلب ، أى : وحشرنا عليهم كل شيء من المخلوقات ليكونوا كفلاء بصدقك .

والثانى : أنه مفرد كقبل الإنسان ودبره فيكون معناه المواجهة والمعاينة ومنه آتيك قبلا لا دبرا أى آتيك من قبل وجهك والمعنى . وحشرنا هليهم كل شيء مواجهة وعيانا ليشهدوا بأنك على الحق .

والثالث : أن يكون قبلا جمع قبيل لكن بمعنى جماعة جماعة أو صنفاً صنفاً والمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء فوجاً فوجاً ونوعاً نوعاً من سائر المخلوقات ليشهدوا بصدقك .

وجملة « ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » جواب لو .
أى : لو فعلنا لهم كل ذلك ما كانوا ليؤمنوا في حال من الأحوال بسبب غلوهم في التمرد والمصيان ، إلا في حال مشيئة الله إيمانهم فيؤمنوا ، لأنه - سبحانه - هو القادر على كل شيء .

وقوله ، ولكن أكثرهم يجهلون ، .

أى . ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أنهم لو أنوا كل آية لم يؤمنوا فهم لذلك يخافون الإيمان المغلظة بأنهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها . أويجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا يخوارق العادات .

وقيل الضمير يعود على المؤمنين فيكون المعنى . ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمان أولئك المشركين عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئة الله - تعالى - لإيمانهم ، فيتمنون مجيء الآيات طمعاً في إيمانهم .

قال الشيخ القاسمى : فى قوله ، إلا أن يشاء الله ، حجة واضحة على المعتزلة لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة الله - تعالى - حتى الإيمان والكفر . وقد اتفق سلف هذه الأمة وحلة شريعتها على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . والمعتزلة يقولون ، إلا أن يشاء الله مشيئة قسر وإكراه ، (١) .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه عن تعنت المشركين وتماديهم فى الباطل ببيان أن كل نبي كان له أعداء يسيئون إليه ويقفون عقبة فى طريق دعوته فقال :

وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن . . .

والمعنى . ومثل ما جعلنا لك يا محمد أعداء بخالفوك وبما فدوك جعلنا لكل نبي من قبلك - أيضاً - أعداء ، فلا يحزنك ذلك ، قال - تعالى - وما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم (٢) . وقال - تعالى - وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً (٣) .

(١) تفسير القاسمى ج ٧ ص ٢٤٧١ (٢) سورة فصلت الآية ٤٣ .

(١) سورة الفرقان الآية ٣١ .

والمراد بشياطين الإنس والجن ، المردة من النوعين . والشيطان : كل
حات متمرد من الإنس والجن .

وجملة : وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا الخ ، مستأنفة لتسليية النبي
— صلى الله عليه وسلم — عما يشاهده من عداوة قريش له ، والكاف في محل
نصب على أنها نعت لمصدر مؤكد لما بعده .

وجعل ينصب مفعولين أو لهما عدوآء ، وثانيهما : لكل نبي ، والشياطين ،
بدل من المفعول الأول ، وبعضهم أعرب : شياطين ، مفعولا أولا وعدوآء
مفعولا ثانيا ، وليس كل نبي ، حالا من : عدوا ، .

وقوله : : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، .

الوحى : الإعلام بالآشياء من طريق خفي دقيق سرّيع . زخرف القول :
باطله الذي زين بموه بالكذب . وأصل الزخرف . الزينة المزوقة ، ومنه
قيل للذهب : زخرف وأكمل شيء حسن بموه زخرف .

والغرور : الخداع والأخذ على غرة وغفلة .

والمعنى : يلقى بعضهم إلى بعض بطرق خفية دقيقة القول المزين المموه
الذي حسن ظاهره وقبح باطنه لكي يخدعوا به الضعفاء ويصرفونهم عن
الحق إلى الباطل .

والجملة مستأنفة لبيان إحكام عداوتهم ، أو حال من الشياطين وقد ورد
أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أتباعه أن يستعينوا بالله من شياطين الإنس
والجن ، فعن أبي ذر قال : أنبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس
قد أطلال فيه الجلوس فقال : يا أبا ذر هل صليت ؟ قلت : لا يا رسول الله .
قال : قم فاركع ركعتين قال : ثم جئت فجلست إليه فقال : يا أبا ذر ، هل
تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس ؟ قال : قلت لا يا رسول الله وهل
للإنس من شياطين ؟ قال نعم : هم شر من شياطين الجن ، .

وقد ساق الإمام ابن كثير عدة روايات عن أبي ذر في هذا المعنى ، ثم قال في نهايتها : « فلهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته ، (١) وقوله : « ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » .

أى : ولو شاء ربك ألا يفعل هؤلاء الشياطين ما فعلوه من معاداة الأنبياء ومن الإيحاء بالقول الباطل لهم ذلك ، لأنه - سبحانه - هو صاحب المشيئة النافذة ، والإرادة التامة ولكنه - سبحانه - لم يشأ أن يجبرهم على خلاف ما زيفته لهم أهواؤهم باختيارهم ، لكي يميز الله الخبيث من الطيب . فدعهم يا محمد وما يفترون من الكفر وغيره من ألوان الشرور ، فسوف يعلمون سوء عاقبتهم .

وقوله : « ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة . . . معطوف على « غروراً » ، فيكون علة أخرى للإيحاء ، والضمير في « إليه » يعود إلى زخرف القول .

وأصل الصغى : الميل . يقال : صغى يصغى وصغوا ، وصغى يصغى صغاً أى : مال ، وأصغى إليه مال إليه يسمعه ، وأصغى الإناء : أماله . ويقال : صغت الشمس والنجوم صغوا : مالت إلى الغروب .

والمعنى : يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول ليغروا به الضعفاء ، ولتيل إلى هذا الزخرف الباطل من القول قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لموافقة لأهوائهم وشهواتهم .

وخص عدم إيمانهم بالآخرة بالذكر - مع أنهم لا يؤمنون بأمر آخرى - يجب الإيمان بها - لأن من لم يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يمشى دائماً وراء شهواته وأهوائه ولا يتبع إلا زخرف القول وباطله .

ثم بين - سبحانه - تدرجهم السىء في هذا العمل الأثيم فقال : « وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون » .

أى : وليرضوا هذا الفعل الخبيث لأنفسهم بعد أن مالت إليه قلوبهم .

وليقتروا ما هم مقترفون أى : وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الأعمال السنية
فإن الله - تعالى - سيجازيهم عليها بما يستحقونه .

وأصل القرف والاقتراف . قشر اللحاء عن الشجر ، والجلدة من
الجرح . واستعير الاقتراف للاكتساب مطلقا ولكنه فى الإساءة أكثر .
فيقال : قرفته بكذا إذا عبته واتهمته .

قال أبو حيان : وترتيب هذه المفاعيل فى غاية الفصاحة ، لأنه أولا
يكون الخداع ، فيكون الميل ، فيكون الرضا ، فيكون الاقتراف ، فكل
واحد مسبب عما قبله (١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يصرح
المشركين بأن الله وحده هو الحكم الحق ، وإن كتابه هو الآية الكبرى
الدالة على صدقه فيما يبلغه عنه فقال - تعالى - :

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ

الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ
يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾
وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنْ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

(١) تفسير أبى حيان ج ٤ ص ٤٠٨

روى أن مشركي مكة قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجعل بيننا
حكما من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم
من أمرك فنزل قوله - تعالى - د أفغير الله أبتغى حكما . . الآية، (١).
وقوله : د أفغير الله أبتغى حكما ، كلام مستأنف على إرادة القول ،
والهمزة الإنكار ، والفاء للدطف على مقدر يقتضيه المقام .

والحكم - بفتحين - هو من يتحاكم إليه الناس ويرضون بحكمه ،
وقالوا : إنه أبلغ من الحاكم ، وأدل على الرسوخ ، كما أنه لا يطلق إلا على
العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم .
والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، أأميل إلى زخارف الشياطين ،
فأطلب معبودا سوى الله - تعالى - ليحكم بيني وبينكم ، ويفصل
الحق منها من المبطل .

وأسند (صلى الله عليه وسلم) الابتغاء لنفسه لا إلى المشركين ،
لإظهار كمال النصفة أو لمرأاة قولهم : لجعل بيننا وبينك حكما .
و دغير مفعول ولا بتغى ، ود حكما ، إما أن يكون حالا تغير أو تميزا
له . وجملة د وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، حالية مؤكدة للإنكار
أى : أفغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم ، والحال أنه - سبحانه - هو
الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، أى مبينا فيه الحق والباطل ، والحلال
والحرام ، والخير والشر ، وغير ذلك من الأحكام التى أنتم فى حاجة إليها
فى دينكم ودنياكم ، وأسند الإنزال إليهم لاستمالتهم نحو المنزل
واستدعائهم إلى قبول حكمه ، لأن من نزل الشئ من أماله ، من الواجب
عليه أن يتقبل حكمه .

ثم ساق - سبحانه - دليلا آخر على أن القرآن حق فقال : والذين
آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق .

أى : والذين آتيناكم الكتاب أى التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أى هذا القرآن منزل عليك من ربك بالحق . لأنهم يجدون فى كتبهم البشارات التى تبشر بك ، ولأن هذا القرآن الذى أنزله الله عليك مصدق لكتبهم ومهيمن عليها .

فهذه الجملة الكريمة تقرير لكون القرآن منزلا من عند الله ، لأن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيقته وأنه منزل من عند الله .

وقوله : فلا تكونن من الممترين ، أى : فلا تكونن من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق ، لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مرده إلى الحسد والجحود وهذا النهى إنما هو زيادة فى التوكيد ، وتثبيت لليقين ، لئلا يدخل فى خاطره طائف من التردد فى هذا اليقين .

قال ابن كثير : وهذا كقوله - تعالى - : فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، قال : وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : لا أشك ولا أسأل ، (١) .

وقيل : الخطاب لكل من يتأتى له الخطاب على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه فلا ينبغي أن يشك فى ذلك أحد .

وقيل : الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمقصود أمته ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - حاشاه من الشك .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الكتاب كامل من حيث ذاته بعد أن بين كماله من حيث إضافته إليه - تعالى - بكونه منزلاً منه بالحق فقال - تعالى - : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) وقرىء (كلمات ربك) . والمراد بها - كما قال قتادة وغيره - القرآن .

أى : كمل كلامه - تعالى - وهو القرآن ، وبلغ الغاية في صدق أخباره ومواعيده ، وفي عدل أحكامه وقضاياه .

وصدقا وعدلا مصدران منصوبان على الحال من (ربك) أو من (كلمة) وقبلهما منصوبان على التمييز .

وجملة (لا مبدل لحكماته) مستأنفة لبيان فضل هذه الكلمات على غيرها أثر بيان فضلها في ذاتها .

أى : لا مغير لها بخلاف في الأخبار ، أو نقض في الأحكام ، أو تحريف أو تبديل كما حدث في التوراة والإنجيل ، وهذا ضمان من الله - تعالى - لكتابه بالحفظ والصيانة ، قال - تعالى - (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . ثم ختمت الآية بقوله (وهو السميع العليم) أى : هو - سبحانه - السميع لكل ما من شأنه أن يسمع ، العليم بكل ما يسرون وما يعلنون .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته وصدق نبيه - صلى الله عليه وسلم - أتبع ذلك بنبيه - صلى الله عليه وسلم - عن الالتفات إلى جهالات أعدائه فقال - تعالى - : وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله .

أى : وإن تطع أكثر من في الأرض من الناس الذين استجبوا للعمى على الهدى يضلوك عن الطريق المستقيم ، وعن الدين القويم الذى شرعه الله لعباده ، لأن هؤلاء المجادلين ما يتبعون في جدالهم وعقائدهم وأصالحهم إلا الظن الذى تزينه لهم أهواؤهم ، وما هم إلا بهرصون أى : يكذبون .

وأصل الخرص : اللقول بالظن . يقال : خرصت النحل خرصاً - من باب قتل - حذرت ثمره وقدرته بانظن والتخمين . واستعمل في الكذب لما بداخله من الظنون الكاذبة ، فيقال : خرص في قوله - كنهصر - أى : كذب .

قال صاحب المنار : (وهذا الحكم القطعى بضلال أكثر أهل الأرض ظاهر بما بينه به من اتباع الظن والخرص ولا سيما في ذلك العصر - تؤيده قوارىخ الأمم كلها ، فقد اتفقت على أن أهل الكتاب كانوا قد تركوا هداية أنبيائهم وضلوا ضلالاً بعيداً ، وكذلك أمم الوثنية التي كانت أبعد عمداً عن هداية رسلهم وهذا من أعلام نبوته - صلى الله عليه وسلم - وهو أمر لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا شيئاً يسيراً من شئون المجاورين لبلاد للعرب خاصة (١) .

وقوله - سبحانه - (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) تقرير للآية السابقة ، وتأكيده لما يفيد مضمونها ، أى : إن ربك الذى لا تخفى عاينه خافية هو أعلم منك ومن سائر خلقه بمن يضل عن طريق الحق وهو أعلم منك ومن سائر الخلق - أيضاً - بالمهتدين السالكين صراطه المستقيم ، فعليك - أيها العاقل - أن تكون من فريق المهتدين لتسعد كما سعدوا واحذر أن تركز إلى فريق الضالين ، فتشقى كما شقوا .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد قررت أن الله وحده هو الحكم العدل ، وأن كتابه هو المهيمن على الكتب السابقة ، وأن أهل الكتاب يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، وأنه - سبحانه - قد تمكّل بحفظ كتابه من التغير والتبدل ، وأن الطبيعة الغالبة في البشر هي اتباع الظنون والآهواء ، لأن طلب الحق متعب ، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتحصيل ، والقليلون هم الذين يقعون اليقين في أحكامهم ، والله وحده هو الذى يعلم الضالين والمهتدين من عباده .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته وكمال قدرته . وسعة علمه ورد على الشبهات التي أثارها المشركون حول الدعوة الإسلامية بما يخرس السفتهم . وأثبت - سبحانه - أنه هو الحكم الحق ، وأن كتابه هو الكتاب الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن أكثر أهل الأرض يتبعون الظن في أحكامهم .. بعد كل ذلك انتقل القرآن إلى الكلام في مسألة أكثر فيها الجدل بين المسلمين والمشركون ، وهي مسألة الذبائح ما ذكر عليه اسم الله منها وما لم يذكر فقال - تعالى - :

فَكُلُوا مِمَّا

ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : أتى ناس إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا يا رسول الله إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله - فأنزل الله - فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . . إلى قوله : وإن أطعتموهم لإنكم مشركون ، (١) .

وذكر الواحدى أن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها فقال - ﷺ - الله قتلها . قالوا . فتزعم أن ما قتل أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر أو الكلاب حلال وما قتل الله حرام فأنزل الله - تعالى - قوله : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، الآية (٢) .
والخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين الذين ضايقتهم جدال المشركين لهم في شأن الذبائح .

والمعنى كلوا أيها المؤمنون مما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه واتركوا ما ذكر عليه اسم غيره كاللاوثان أو ما ذبح على النصب ، أو ما ذكر اسم مع اسمه - تعالى - أو ما مات حتف أنفه ، لا تضرركم مخافتكم للمشركين في ذلك فإنهم ما يتبعون في عقائدهم ومآكلهم وأعمالهم إلا تقاليد الجاهلية وأوامها التي لا ترتكز على شيء من الحق .

والفاء في قوله : فكلوا . . ، يرى الزمخشري أنها جواب لشرط مقدر والتقدير : إن كنتم محققين في الإيمان فكلوا ، ويرى غيره أنها معطوفة على عذوف والتقدير : كونوا على الهدى فكلوا ، .

وقوله : إن كنتم بآياته مؤمنين ، أى . إن كنتم بآياته التي من جملتها الآيات الواردة في هذا الشأن مؤمنين ، فإن الإيمان بها يقتضى استباحة ما أحله سبحانه واجتناب ما حرمه ،

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأضاحى - باب ذبائح أهل الكتاب - حديث رقم ٢٨١ طبعة فؤاد هيد الباقي .

ثم أنكر - سبحانه - عليهم ترددهم في أكل ما أحله الله من طعام لأنهم لم يتعدوه قبل ذلك فقال : وما لكم أن لا تأكلوا بما ذكر اسم الله عليه .

أى : أى مانع يمنعكم من أن تأكلوا بما ذكر اسم الله عليه ، وأى فائدة تعود عليكم من ذلك ؟ فلا تفهموا لإنكار أن يكون هناك شىء يدعوهم إلى اجتناب الأكل من الذبائح التى ذكر اسم الله عليها سواء أكانت تلك الذبائح من البحار أو السواحب أو غيرها مما حرمه المشركون على أنفسهم بدون علم .

وقوله : وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، جملة حالية مؤكدة للإنكار السابق أى والحال أن الله - تعالى - قد فصل لكم على لسان رسوله - ﷺ - ما حرمه عليكم من المطاعم ، وبين لكم ذلك فى كتابه كما فى قوله - تعالى - : قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم بطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم .

إذا فمن الواجب عليكم أيها المسلمون أن تأكلوا وأنتم مطعمون من جميع المطاعم التى أحلها الله لكم وذكر اسمه عليها ولو خالفتم فى ذلك المشركين وأن تتجنبوا أكل ما حرمه الله عليكم ولو كان ذلك مما يستبيحه المشركون .

وقوله : إلا ما اضطررتم إليه ، استثناء مما حرم الله عليهم أكله .

أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات بسبب شدة الجوع فى هذه الحالة يباح لكم أن تأكلوا من هذه المحرمات ما يحفظ عليكم حياتكم . هذا هو حكم الله الذى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر فعليكم أن تتبعوه ، والا تلقوا بالا إلى أوامر المتعصرين وأصحاب اللظنون الباطلة .

ثم نعى على المشركين جهالاتهم فقال : « وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم
بغير علم » .

قرأ الجمهور « يضلون » بضم الياء ، والمعنى عليه : « وإن كثيرا من
الكفار يضلون غيرهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام بسبب أهوائهم
الزائفة وشهواتهم الباطلة » ، دون أن يكون عندهم أى علم مقتبس من
وحي الله أو مستنبط من عقل سليم .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب « يضلون » بفتح الياء ، والمعنى
عليه : « وإن كثيرا من الكفار لينحرفون عن الحق ويقعون في الضلال بسبب
إغواءهم لأهوائهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .

وقراءة الجمهور « أبلغ في الذم لأنها تتضمن قبح فعلهم حيث ضلوا في
أنفسهم وأضلوا غيرهم » .

وقوله : « بغير علم » متعلق بمحذوف وقع حالا أى : يضلون
مصابين للجهل .

وقوله « إن ربك هو أعلم بالمعتدين » أى : أعلم منك يا محمد ومن كل
مخلوق بالمتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل والحلال والحرام .

ففي الجملة الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول
— صلى الله عليه وسلم — .

قال الإمام الرازى : وقد دلت هذا الآية على أن القول في الدين بمجرد
التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية
دلت على أن ذلك حرام (١) .

ثم أمر الله عباده أن يتركوا ما ظهر من الآثام وما استتر فقال :
« وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، أى اتركوا جميع المعاصي ما كان منه
سرا وما كان منها علانية ، أو ما كان منها بالجوارح وما كان منها بالقلوب
لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شئ » .

ثم بين - سبحانه - عاقبة المرتكبين للآثام فقال : « إن الذين يكسبون
الإثم سيجزون بما كانوا يفترون ، أى : إن الذين يعملون المعاصي ويرتكبون
القبائح الظاهرة والباطنة لن ينجو من المحاسبة والمؤاخضة بل سيجزون بما
يستحقونه من عقوبات بسبب اجتراحهم للسيئات » .

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالأكل بما ذكر اسم الله عليه ، نهام صراحة
عن الأكل بما لم يذكر اسم الله عليه أشدة العناية بهذا الأمر فقال - تعالى - :
« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، أى : لا تأكلوا أيها المسلمون
من أى حيوان لم يذكر عليه اسم الله عند ذبحه ، بأن ذكر عليه اسم غيره ،
أو ذكر اسم مع اسمه - تعالى - ، أو غير ذلك مما سبق بيانه من
المحرمات » .

وقوله « وإنه لفسق » جملة حالية والضمير يعود على الأكل الذى لم
يذكر اسم عليه ، أى : وإن الأكل من ذلك الحيوان المذبح الذى لم يذكر
اسم الله عليه لخروج عن طاعة الله - تعالى - وابتعاد عن الفعل الحسن
إلى الفعل القبيح ، وفى ذلك ما فيه من تنفيرهم من أكل ما لم يذكر
اسم الله عليه » .

ثم كشف للمسلمين عن المصدر الذى يمد المشركين بمادة الجدل حول
هذه المسألة فقال : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوك » .
أى : وإن إبليس وجنوده ليوسوسون إلى أوليائهم الذين اتبعوهم من

المشركين ليجادلوكم في تحليل الميتة وفي غير ذلك من الشبهات الباطلة ، وإن أطعتموهم ، في استحلال ما حرمه الله عليكم ، لأنكم لمشركون .

قال ابن كثير : أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشره إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك ، كقوله — تعالى — « اتخذوا أحياءهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، الآية » ، وقد روى الترمذى في تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم فقال : « بلى لهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فابعوهم فذلك عبادتهم إياهم » (١) .

هذا ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلما ، وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال .

فمنهم من قال لا تحل الذبيحة التى يترك ذكر اسم الله عليها سواء كان للترك عمدا أو سهوا ، وإلى هذا رأى ذهب ابن عمر و نافع وعامر الشعبي ومحمد ابن سيرين ، وداود الظاهري وفي رواية عن الإمامين مالك وأحمد بن حنبل .

واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية التى وصفت ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه بأنه فسق ، كما احتجوا بقوله — تعالى — « فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه » ، وبالأحاديث التى وردت فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديث عدى بن حاتم وفيه « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكر اسم الله عليه فكل » (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧١ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب « الذبائح والصيد » حديث رقم ١٤١ طبعة

محمد فؤاد عبد الباقي .

وحديث رافع بن خديج وفيه : ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه
فمكروه (١) .

أما الرأي الثاني فيرى أصحابه أن التسمية ليست شرطاً بل هي مستحبة ،
وتركها عن عمد أو نسيان لا يضر ، وقد حكى هذا المذهب عن ابن عباس
وأبي هريرة وعطاء . وهو مذهب الشافعي وأصحابه وفي رواية عن الإمامين
ومالك وأحمد بن حنبل .

وحجتهم أن هذه الآية : ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ...
واردة فيما ذبح لغير الله بأن يذكر على الذبيحة اسم الصنم كما كان يفعل
المشركون عند ذبائحهم .

واحتجوا أيضاً بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال : إذا ذبح
المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله (٢) .

أما الرأي الثالث فيرى أصحابه أن ترك التسمية نسياناً لا يضر أما عمداً
فلا تحمل الذبيحة ، وإلى هذا المذهب ذهب علي وابن عباس وسعيد بن المسيب
والحسن البصري وهو المشهور من مذهب أحمد بن حنبل وعليه أبو حنيفة
وأصحابه .

واحتجوا لمذهبهم بأحاديث منها ما رواه عبد الله بن عمرو عن النبي
— صلى الله عليه وسلم — أنه قال : إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان
وما استكرهوا عليه (٣) .

ولعل هذا المذهب أقرب المذاهب إلى الصواب ، لأن المتعمد هو الذي
يؤاخذ على عمله أما الناسي فليس مؤاخذاً .

(١) أخرجه البخاري في كتاب : الذبائح والصيد .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٠ .

وقد تواتر بعض كتب التفسير بـ ط الأقوال في هذه المسألة فليرجع إليها من شاء (١) .

ثم ضرب الله مثلا لحال المؤمن والكافر فقال :
« أو من كان ميتاً فأحييناه ... »

الهمزة للاستفهام الإنكارى ، وهى داخلة على جملة محذوفة للعلم بها من الكلام السابق .

والتقدير : أأنتم أيها المؤمنون مثل أولئك المشركين الذين يجادلونكم بغير علم وهل يعقل أن من كان ميتاً فأعطيناه الحياة وجعلنا له نوراً عظيماً يمشى به فيما بين الناس آمناً كن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها .
فالآية الكريمة تمثيل بليغ للمؤمن والكافر لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين بعد أن نهام صراحة عن طاعتهم قبل ذلك فى قوله « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

فمثل المؤمن المبتدى إلى الحق كمن كان ميتاً هالـ كما أحياه الله وأعطاه نوراً يستضيء به فى مصالحه ، ويهتدى به إلى طريقه . ومثل الكافر الضال كمن هو منغمس فى الظلمات لا خلاص له منها فهو على الدوام متحير لا يهتدى فكيف يستويان ؟ .

والمراد بالنور : القرآن أو الإسلام ، والمراد بالظلمات : الكفر والجهالة وعمى البصيرة . فهو كقوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات . »
وقوله : « كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ، أى : مثل ذلك التزيين الذى تضمنته الآية - وهو تزيين نور الهدى للمؤمنين وظلمات الشرك للضالين قد زين للكافرين ما كانوا يعملونه من الآثام كعداوة النبى - ﷺ - وذبح القرابين لغير الله - تعالى - وتحايل الحرام ، وتحريم الحلال وغير ذلك من المنكرات .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦٨ وما بعدها وتفسير الأعرابي

ج ٨ ص ١٤ وما بعدها

وجمهور المفسرين يرون أن المثل في الآية عام لكل مؤمن وكل كافر وقيل إن المراد بمن أحياء الله وهداه عمر بن الخطاب ، والمراد بمن بقى في الظلمات ليس بخارج منها عمرو بن هشام ، فقد أخرج ابن أبي الشيخ أن الآية نزلت فيهما ، وقيل نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل ، وقيل في حمزة وأبي جهل . والذي نراه أن الآية عامة في كل من هداه الله إلى الإيمان بعد أن كان كافراً ، وفي كل من بقى على ضلاله مؤثراً للكفر على الإيمان وبدخل في ذلك هؤلاء المذكورون دخولا أولياً .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه - ﷺ - ببيان أن المترفين في كل زمان ومكان هم أعداء الإصلاح ، وأن ما لقيه - ﷺ - من أكابر مكة ليس بدعا بل هو شيء رآه الأنبياء قبله على أهدى أمثال هؤلاء المترفين فقال - تعالى - :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا إِنَّا تُومِنُ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١١٣﴾ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٤﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١١٥﴾

أكابر : جمع أكبر ، وهم الرؤساء والعظماء في الأمم . والمجرمون : جمع مجرم ، من أجرم إذا اكتسب أمراً قبيحاً ، ومنه الجرم والجريمة للذنب والإثم .

والمعنى : وكما جعلنا في قريتك مكة رؤساء دعاة إلى الكفر وإلى عداوتك جعلنا في كل قرية من قرى الرسل من قبلك رؤساء من المجرمين مثلهم ليمكروا فيها ، ويتجهروا على الناس ، ثم كانت العقوبة للرسل ، فلا تقتبس يا محمد مما يصيبك من زعماء مكة فتلك طبيعة الحياة في كل عصر ، أن يكون زعماء الأمم وكبرأؤها أشد الناس عداوة للرسل والمصلحين .

قال الجمل : وقوله : «أكابر» مفعول أول لجعل ، وأكابر مضاف ومجرمها مضاف إليه ، و «في كل قرية» المفعول الثاني لجعل ، ووجب تقديمه ليصح عود الضير عليه ، فهو على حد قوله :

كذا إذا عاد عليه مضمراً مما به عنه مبيناً يخبر

هذا أحسن الأعراب (١) وهناك أوجه أخرى للأعراب لا تخطو من مقال .

وخص الأكابر بالمكر ، لأنهم هم الحاملون لغيرهم على الضلال ، وهم الذين يتبعهم الضعفاء في كفرهم وفجورهم .

قال ابن كثير : والمراد بالمكر هنا دعاؤهم غيرهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله - تعالى - إخباراً عن قوم نوح «ومكروا مكراً كباراً» ، وكقوله : «ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين» قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتمن مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل

مكر الليل والنهار إذ قامرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا . . الآية ، (١) .
وقوله — سبحانه — « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » .

أى وما يمكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل والمصلحين
فى كل وقت إلا بأنفسهم ، حيث يعود ضرره عليهم وخدمهم فى الدنيا والآخرة
ولكنهم لا نظماس بهدیرتهم ، لا يشعرون بأن مكروهم سيعود عليهم ضرره ،
بل يتوهمون أنهم سيزجون فى مكروهم بخیرهم من الأنبياء والمصلحين .

فالجلة الكريمة بیان لسنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن المکر السیء
لا یحقق إلا بأهله ، وفى ذلك تسلية للنبی (صلی الله علیه وسلم) عما یصیبه منهم .
وبشاره له ، ولأصحابه بالنصر علیهم ، ووعد لأولئك الماکرین بسوء المصیر

وجملة « وما يشعرون » ، حال من ضمیر یمكرون ، وهى تسجل علیهم
بلاهمهم وجمالتهم حیث فقدوا الشعور بما من شأنه أن یعترف به كل عاقل .

ثم حکى القرآن لونا من ألوان مكروهم فقال : « وإذا جاءتهم آية قالوا :
« لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » .

أى : « وإذا جاءت أولئك المشركین الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم « لن
جاءتهم آية لیؤمنن بها ، حجة قاطعة تشهد بصدفك یا محمد فیما تبلغه عن ربك ،
قالوا حسدا لك ، لن نؤمن لك یا محمد حتى نعطى من الوحى والرسالة مثلاً
أعطى رسل الله ، وأضافوا الإبتاء إلى رسل الله ، لأنهم لا یعترفون بما أوتیه
(صلی الله علیه وسلم) من الوحى والرسالة .

روى أن الولید بن المغيرة قال للنبی (صلی الله علیه وسلم) لو كانت النبوة حقاً
لكننت أولى بهامنك لأنى أكبر منك سناً وأكثر مالا فأفزل الله هذه الآية .

وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال : زاحمتنا بنو عبد المطلب في الشرف حتى إذا صرنا كغرسى رهان قالوا : منا نبي يوحى إليه ، والله لا نؤمن به ولا نقبضه أبداً إلا أن يأتينا وحتى كأيأتيه فأنزل الله هذه الآية ، (١) .

وقد رد الله - تعالى - على هؤلاء الحاسدين رداً حاسماً فقال : والله أعلم حيث يجعل رسالته ، أى : الله - سبحانه - أعلم منهم ومن كل أحد بالموضع الصالح للرسالة فيضعها فيه فهو - سبحانه - يختار لها بحكمته وعلمه من يستحقها وينمض بها . ويهب نفسه لها ، وينسى في سبيلها ذاته .

قال الإمام الرازى : وقوله - تعالى - : والله أعلم حيث يجعل رسالته ، أى : ان للرسالة موضوعاً مخصوصاً لا يصلح وضعها إلا فيه ، فمن كان مخصوصاً موصوفاً بتلك الصفات لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولاً وإلا فلا ، والعالم بتلك الصفات ليس إلا الله - تعالى - ثم قال : وفي هذه الجملة الكريمة تنبيه على دقيقة أخرى وهى أن أقل ما لابد منه فى حصول النبوة والرسالة البراءة عن المكر والغدر والغفل والحسد ، وقوله : ان نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، عين المكر والغدر والغفل والحسد فكيف يعقل حصول النبوة والرسالة مع هذه الصفات ، (٢) .

وهذه الجملة حجة لأهل الحق على أن الرسالة هبة من الله يختص بها من يشاء من عباده ، ولا يتأهلها أحد بكسبه ولا بملكائه ولا بنفسه .

ولذا قال الإمام الآروسى : وجملة : والله أعلم .. الخ . استئناف بياني ، والمعنى : أن منصب الرسالة ليس بما ينال بما يزعمونه من كثرة المال والولد ، وتعاضد الأسباب والعدد ، وإنما ينال بفضائل نفسانية ، ونفس قدسية أفاضها

الله - تعالى - بمحض الكرم والجود على من كمل استعدادة (١) . . .

هذا . وقد وردت أحاديث كثيرة تحدث النبي - صلى الله عليه وسلم - فيها عن اصطفاء الله له وفضله عليه ، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن واثلة ابن الأسقع قال : « قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الله - عز وجل - اصطفى من ولد إبراهيم لإسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى من بنى هاشم محمدا - صلى الله عليه وسلم - » (٢) .

وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبي وداعة عن العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيرونا ، فجعلنى فى خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا » (٣) .

ثم بين - سبحانه - عاقبة أولئك الماكرين الحاسدين للنبي - صلى الله عليه وسلم - على ما آناه الله من فضله فقال : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يكرهون » .

قال القرطبي ما ملخصه : الصغار : الضمير والذل والهوان . والمصدر الصغر بالتحريك - وأصله من الصغر دون الكبر فكان الذل يصغر إلى المرء نفسه وقيل : أصله من الصغر وهو الرضا بالذل . والصاغر : الراضى بالذل . وأرض مصغرة : نبتها صغير لم يطفى . ويقال : صغر - بالكسر - يصغر صغراً وصغاراً فهو صاغر إذا ذل وهان (٤) . .

(١) تفسير الألوسى ج ٨ ص ٢١ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل .

(٣) المسند للإمام أحمد ج ١ ص ٢١٠ طبعة الحلبي .

(٤) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٨٠ .

والمعنى : سيصيب الذين أجرموا بعد تكبرهم وغرورهم ونطاوهم ذل عظيم وهوان شديد ثابت لهم عند الله في الدنيا والآخرة ، وبسبب مكرم المستمر ، وعدائهم الدائم لرسول الله وأوليائه .

والجمله الكريمه استئناف آخر ناع على أولئك الماكرين ماسيلقونه من ألوان العقوبات بعد مانعى عليهم حرمانهم مما أنكره من إبتائهم مثل ما أوتى رسول الله ، والسين لنا كيد .

والعنديه في قوله : عند الله ، مجاز عن حشرهم يوم القيامة ، أو عن حكمه سبحانه - وقضائه فيهم بذلك ، كقولهم : ثبت عند فلان القاضى كذا أى : فى حكمه ، ولذا قدم الصغار على العذاب لأنه يصيهم فى الدنيا .

قال ابن كثير : ولما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحداً . وجاء فى الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ينصب لكل غادر لواء » عند إسته يوم القيامة فيقال : هذه غدره فلان بن فلان ، والحكمة فى ذلك أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس ، فبوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل (١) ،

ثم بين - سبحانه - حال المستعد لهداية الإسلام ، وحال المستعد

للضلال فقال :

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . . .

أى : فن يرد الله أن يهديه الإسلام ، ويوفقه له ، يوسع صدره لقبوله ، ويسم له بفضله وإحسانه .

وشرح الصدر : توسعته ، يقال : شرح الله صدره فأنشرح ، أى : وسعه فأنسع ، وهو مجاز أو كناية عن جعل النفس مهيأة للحلول الحق فيها . مصفاة عما يمنعه وينافيه .

روى عبد الرازق أن النبى - ﷺ - سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره ؟ فقال : نور يقذف فينشرح له وينفسح ، قالوا : فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت (١) .

وقوله : « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، أى : ومن يرد أن يضله لسوء اختياره ، وإيثاره الضلالة على الهداية يصير صدره ضيقا متزايدا الضيق لا منفذ فيه الإسلام .

والحرج : مصدر حرج صدره حرجا فهو حرج ، أى : ضاق ضيقا شديدا . وصف به الضيق للمبالغة ، كأنه نفس الضيق ، وأصل الحرج مجتمع الشيء ويقال : للحديقة الملتفة الأشجار التى يصعب دخولها حرجة .

وقرىء حرجا - بكسر الراء - صفة لقوله : ضيقا .

روى أن جماعة من الصحابة قرءوا أمام عمر - رضى الله عنه - « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، بكسر الراء » فقال عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم ؟ قال الحرجة فيما الشجرة تكون بين الأشجار التى لا تصل إليها راعية ولا وحشية . فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٤ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٨ ص ٢٢ .

وقوله : كأنما يصعد في السماء ، استئناف ، أو حال من ضمير الوصف ،
أو وصف آخر لقلب الضال ، والمراد المبالغة في ضيق صدره حيث شبه بمن
يزاول ما لا يقدر عليه . فإن صعود السماء مثل فيها هو خارج عن دائرة الاستطاعة .

أى : كأنما إذا دعى إلى الإسلام قد كلف الصعود إلى السماء وهو لا يستطيعه
بحال . ويصعد أى : يتصعد ، بمعنى يتكاف الصعود فلا يقدر عليه .
وفيه إشارة إلى أن الإيمان بمتنع منه كما يمتنع منه الصعود .

وقوله : كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ، أى : مثل
جعل الصدر ضيقا حرجا بالإسلام ، يجعل الله الرجس . أى : العذاب ،
أو الخذلان ، أو اللغة في الدنيا على الذين لا يؤمنون بالإسلام .

ثم بين - سبحانه - أن طريق الإسلام هو الطريق الحق المستقيم فقال :
وهذا صراط ربك مستقيما ، أى : وهذا البيان الذى جاء به القرآن ،
أو سبيل التوحيد ، وإسلام الوجه إلى الله ، هو طريق ربك الواضح المستقيم
الذى ارتضاه لعباده ، والذى لا ميل فيه إلى إفراط أو تفريط في الاعتقادات
والأخلاق والأعمال .

و مستقيما ، حال مؤكدة لصاحبها وعاملها محذوف وجوبا مثل : هذا
أبوك عطوفا ، وقتل حال مؤسسة والعامل فيها معنى الإشارة أو (ها)
التي للتنبيه .

وقوله : فصلنا الآيات لقوم يذكرون ، أى : جعلناها بينة واضحة
مفصلة لقوم يذكرون ما فيها من هدايات وإرشادات فيعملون بها لينالوا
السعادة في الدنيا والآخرة .

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ
 وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجَنِّ
 قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمِعْ
 بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ
 خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ
 نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجَنِّ
 وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ
 لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

أى : أن هؤلاء المذكرين المتقين لهم جنة عرضها السموات والأرض .
 فى جوار ربهم وكفالتهم ، وهو - سبحانه - وليهم ، أى : متولى إصالح
 الخير لآلهم ، أو محبهم أو ناصرهم بسبب أعمالهم الصالحة . وسميت الجنة
 بدار السلام ، لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة من جميع المكاره .

قال الجمل : وقوله « عند ربهم » ، فى المراد بهذه العندية وجوه : أحدها
 أنها معدة عنده كما تكون الحقوق معدة مهياة حاضرة كقوله « جزاؤهم عند
 ربهم » . وثانيها : أن هذه العندية تشعر بأن هذا الأمر المدخر موصوف
 بانقرب من الله بالشرف والرتبة لا بالمكان والجهة لتفرضه - تعالى - عنهما .
 وثالثها : هى كقوله - تعالى - فى صفة الملائكة « ومن عنده لا يستكبرون عن
 عبادته » . وقوله : أنا عند المنكسرة قلوبهم وأنا عند ظن عبيدى فى (١) ، -

ثم بين - سبحانه - جانباً من أحوال الظالمين يوم القيامة عند ما يقفون أمام ربهم للحساب فقال : د ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكبرتم عن الإِانس .

ففي هذه الآيات عرض مؤثر زاخر بالحوار والاعتراف والمناقشة والحكم تحكيه السورة الكريمة وهي تصور مشاهد المجرمين يوم القيامة .

وقوله : د ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكبرتم من الإِانس .

المعشر : الجماعة الذين يعاشر بعضهم بعضاً أو الذين يربطهم أمر مشترك بينهم والمراد بالجن شياطينهم ومردتهم .

والمعنى : واذكر يا محمد - أو أيها العاقل - يوم نحشر الضالين والمضالين جميعاً من الإِانس والجن ، فنقول للمضالين من الجن : قد استكبرتم من الإِانس ، أى : قد أكثرتم من إغوائكم الإِانس وإضلالكم لإِياهم ، أو قد أكثرتم منهم بأن جعلتموهم أتباعكم . وأهل طاعتكم ، ووسوستهم لهم بالمعاصي حتى غررتموهم وأوردتموهم هذا المصير الآليم .

و د يوم منصوب على الظرفية والعامل فيه مقدر ، أى : اذكر يوم نحشرهم جميعاً . والضمير المنصوب في د نحشرهم ، لمن يحشر من الثقلين . وقيل للكفار الذين تحدث عنهم هذه الآيات .

ووجه الخطاب إلى معشر الجن ، لأنهم هم الأصل في إضلال أتباعهم من الإِانس ، وهم السبب في صدهم عن السبيل القويم .

والمقصود من هذا القول لهم توبيخهم وتقريعهم على ما كان يصدر

وهنا يحكى القرآن رد الضالين من الإنس على هذا التوبيخ فيقول :
« وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى
أجلت لنا » .

أى : وقال الذين أطاعوهم وانقادوا لهم من الإنس يا ربنا ، لقد
استمتع بعضنا ببعض .

أى : انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على المفاسد وما يوصل إليها ،
وانتفع الجن بالإنس ، حيث أطاعوهم واستجابوا لوسوستهم ، وخالفوا
أمر ربهم .

وقال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت
وعملت الإنس . أى : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت ، والإنس
بوسوستهم تمتعوا بإبشار الشهوات الحاضرة على اللذات الغائبة .

وقيل : استمتع الإنس بالجن معناه أن الرجل فى الجاهلية كان إذا
سافر فنزل بأرض فقراء خاف على نفسه من الجن فيقول . أعوذ بسيد هذا
الوادى من شر سفهاء قومه ، فيبيت فى جوارهم . وأما استمتاع الجن
بالإنس فهو أنهم قالوا . سدننا الإنس حتى عاذوا بنا ، فيزدادون بذلك
شرقا فى قومهم وعظما فى أنفسهم .

وقيل : استمتع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف
والسحر والكهانة ، واستمتع الجن بالإنس هو طاعة الإنس لهم فيما يزينون
لهم من المعاصى فصاروا كالرؤساء لهم .

والذى نراه . أن استمتع الجن والإنس بالإنس بالجن يتناول كل
ذلك ، حيث انتفع كل فريق من صاحبه باللذة العاجلة التى أوردته إلى سوء المصير .

وقولهم هذا ، هو تحسر منهم على حالهم ، إذ قالوه اعترافاً بما فعلوه من
طاعة للشياطين وإتباع الهوى ، وتكذيب أمر البعث .

وإنما قال الأنبياء من الإنس هذا القول مع أن الخطاب موجه إلى
المتبوعين من شياطين الجن ، للإبذان بأن شياطين الجن قد أفحموا . ولم
يستطيعوا أن ينطقوا أو يجيبوا . ثم أتبعوا تحسرهم هذا بتحسر آخر وهو
خولهم : د وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ، .

أى : هانحن ياربنا قد استمتع بعضنا ببعض في الدنيا عن طريق
الشهوات المحرمة . واللذات العانية القبيحة ، وهانحن قد وصلنا بعد استمتاع
بعضنا ببعض إلى الأجل الذي حددته لنا ، وهو يوم القيامة والجزاء .
ونحن في أفبح صورة وأسوأ عيش .

وهنا يأتيهم الرد الحاسم . والحكم النافذ من الله العلي الكبير . حيث
يقول — سبحانه — د قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله .

مثواكم : الثواء مع الإقامة مع الاستقرار . يقال : ثوى يثوى ثواء
أى : استقر ، والثوية مأوى الغنم .

والمعنى : قال الله — تعالى — لهؤلاء الظالمين المترفين على أنفسهم
جارتك الموبقات : النار منزل لكم ومحل إقامتكم الدائمة . فأنتم خالدون فيها
في كل وقت إلا في وقت مشيئة الله بخلاف ذلك ، لأن الأمور كلها متروكة
إليه ، وخاضعة لمشيئته .

والأرجح أن المراد بهذا الاستثناء وبظائره في آيات آخر ، المبالغة
في الخلود .

أى : أنه لا يبتغي في وقت ما إلا وقت مشيئته . تعالى — وهو سبحانه
لا يشاء ذلك . فقد أخبر في آيات متعددة من كتابه أن هؤلاء الكفار
الايخرجون من النار أبدا .

وفي إيراد هذا المعنى بملك الصرورة ، بلاغ للناس بأن مرد الأمور كلها
على مشيئة الله ، وأن الله كافي بالعلم والقدرة بمحض مشيئته .

ولو شاء غير ذلك ما خلدوا ، وفيه إلى جانب ذلك تمثيل آخر بهؤلاء
الاشقياء لانهم قد صاروا في حيرة دائمة من أمرهم . تجعلهم مشنتين بين
الطمع في الخروج مما هم فيه ، واليأس منه .

وهذا التفسير للجملة الكريمة هو الذي نختاره ونرجحه ، وهناك وجود
أخرى في تفسيرها منها ما ذهب إليه الزمخشري حيث قال :

وقوله : « خالدين فيها إلا ما شاء الله ، أى : يخلدون في عذاب النار
الأبد كله إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير
فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من
بعض ، فيتعاونون ويطلبون الرد إلى الجحيم ، أو أن يكون من قـوله
الموتور - أى المظلوم - الذي ظفر بوائره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد
طلب أن ينفس عن خنقه . أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت » ،
علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنت والتشديد .
فيكون قوله إلا إذا شئت من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه فيه .
صورة الاستثناء الذي فيه إطماع (١) .

ومنها : ما نقل عن ابن عباس أنه - تعالى - استثنى قرماً قد سبق في علمه
أنهم يدخلون في الإسلام ، وهو مبني على أن الاستثناء . ليس من المحكم .
وأن « ما » بمعنى « من » .

ومنها : أنهم تفتح لهم أبواب الجنة ويخرجون من النار فإذا قوجروا
للدخول أغلقت في وجوههم استهزاء بهم . فهم فيها إلا الوقت الذي
يخرجون منها متجهين إلى الجنة حيث تقفل في وجوههم ليكون ذلك أعظم
في حسرتهم .

ومنها : أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أى : إلا وقت مشيئة الله فناءها وزوال عذابها . وهى مسألة خلافية بين العلماء .

وهناك أقوال أخرى لا مجال لذكرها . والقول الذى ترجحه ونعتمده هو الذى سبقناه أولا كما أشرنا إلى ذلك من قبل لأنه قول المحققين من العلماء . ولأنه يتناسب مع ما يليق بذات الله من كمال قدرته . ونفاذ إرادته .

وجملة : إن ربك حكيم عليم ، تسلية لبيان ما تقتضيه حكمته وإرادته . أى : إن ربك حكيم فى التعذيب والإثابة وفى كل أفعاله . عليم بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من جزاء .

ثم يعقب القرآن على هذا الاستمتاع المتبادل بين الضالين والمضلين من الجن والإنس فيقول : . وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون .

نولى : من الولاية بمعنى القرابة ، والنصرة ، والمخالفة وما إلى ذلك من أنواع الاتصال .

أى : ومثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس وإضلالهم لما بينهم من التناسب والمشاكلة ، نولى بعض الظالمين من الإنس بعضا آخر منهم بأن نجعلهم يزينون لهم السيئات ، ويؤثرون فيهم بالإغواء . بسبب ما كانوا مستمرين على اكتسابه من الكفر والمعاصي .

قال الإمام الرازى : . لأن الجنسية علة الضم ، فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما يشاكلها فى الخبث . وكذا القول فى الأرواح الطاهرة ، فكل أحديهم بشأن من يشاكله فى النصرة والمعونة والتقوية .. ثم قال : والآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فأنه - تعالى - يساط عليهم ظلما مثلهم . فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم ، (١) .

وقال ابن كثير : معنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوئهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم ، (١) .

وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم . فقف وانظر فيه متعجبا .

فالآية الكريمة تصور لنا مشهدا واقعا في حياة الأمم ، وهو أن الظالمين من الناس يوالى بعضهم بعضا ، ويناصر بعضهم بعضا ، بسبب ما بينهم من صلات في المشارب والأهداف والطباع وأن الأمة التي لا تمسك بمبدأ العدالة بل تسودها روح الظلم والاعتداء يكون حكامها عادة على شاكلتها لأن الحاكم الظالم لا يستطيع البقاء عادة في مجتمع أفراده تسودهم العدالة والشجاعة في الحق .

والآية في الوقت ذاته تهدد الظالمين ، وتوعدهم بسوء المصير إذا لم يقلعوا عن ظلمهم ، ويشوبوا إلى رشدهم ، وبقيدوا أنفسهم بمبدأ العدالة ورعاية الحق ثم بعد هذا التعقيب بتلك الآية التي بينت طبيعة الأشرار يعود القرآن إلى سؤال الإنس والجن فيقول : يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟

قال الإمام ابن جرير : وهذا خبر من الله - جل ثناؤه - عما هو قاتل يوم القيامة ، لهؤلاء العادلين به من مشركي الإنس والجن ، يخبر أنه - تعالى - يقول لهم : يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي يقول : يخبرونكم بما أوحى إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججى ، وتعريفى لكم أدلتى على توحيدى وتصديقى أنبيائى والعمل بأمرى والانتفاء

إلى حدودي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، يقول : يحذرونكم لقاء عذاب في يومكم هذا وعقاب على معصيتكم إياي فتذموا عن معاصي ، وهذا من الله - تعالى - تقرير لهم وتوبيخ على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي ومعناه ، قد أتاكم رسل منكم ينذرونكم على خطأ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة ، ويتذرونكم وعيد الله ، فلم تقبلوا ولم تتذكروا ، (١) .

وقوله : رسل منكم ، استدل به من قال إن الله قد أرسل رسلا من الجن إلى أبناء جنسهم إلا أن جمهور العالماء يخالفون ذلك ويرون أن الرسل جميعا من الإنس ، وإما قبل رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما ، كقوله : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، وإنما يخرجان من أحدهما وهو الماء المالح دون العذب .

قال أبو السعود : والمعنى : ألم يأنكم رسل من جملتكم : لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً بل من الإنس خاصة ، وإنما جعلوا منهما إما لتأكيد وجوب اتباعهم ، والإيذان بتقاربهما ذاتا ، واتحادهما تسكيفا وخطابا . كأنهما من جنس واحد ، ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر ، وإما لأن المراد بالرسل ما يعهم رسل الرسل ، وقد ثبت أن الجن استمعوا إلى النبي ﷺ - وأنذروا بما سمعوه . اقوامهم ، إذ حكى القرآن عنهم أنهم : ولوا إلى قومهم منذرين ، وأنهم قالوا لهم : : إنا سمعنا قرآنا عجبا (٢) .

وقال صاحب المنار ، وجملة القول في الخلاف أنه ليس في المسألة نص قطعي ، والظواهر التي استدل بها الجمهور يحتمل أن تكون خاصة برسل الإنس ، لأن الكلام معهم ، وليست أقوى من ظاهر ما استدل به من قال إن

(١) تفسير ابن جرير ج ٨ ص ٢٧ .

(٢) تفسير أبو
Made searchable using ScribeTools.com

الرسول من الفريقين . وللمجن عالم غيبي لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص . وقد دل القرآن وكذا السنة على رسالة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إليهم ، فنحن نؤمن بما ورد ونفوض الأمر فيما عدا ذلك إلى الله - تعالى - (١) .

ثم يحكى القرآن أنهم قد شهدوا على أنفسهم بالكفر فقالوا : شهدنا على أنفسنا ، أن الرسول قد بشرنا وأنذرونا ، ولم يقصروا في تلبيةنا وإرشادنا .

وقوله - سبحانه - : وغرهم الحياة الدنيا ، أى غرهم متاع الحياة الدنيا من الشهوات والمال والبجاه وحب الرياسة ، فاستحبوا العمى على الهدى ، وباهوا آخرتهم بدنيهم . وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، أى : شهدوا على أنفسهم عندما وقفوا بين يدي الله للحساب في الآخرة أنهم كانوا كافرين في الدنيا بما جاءتهم به الرسل .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما لهم مقرين في هذه الآية - على أنفسهم بالكفر - جاحدين في قوله : والله ربنا ما كنا مشركين ، ؟ قلت . يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة فتارة يقرون وأخرى يحدون ، وذلك يدل على شدة خوفهم واضطراب أحوالهم ، فإن من عظم خوفه كثر الاضطراب في كلامه . أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم . فإن قلت : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم ؟ قلت : الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ، والثانية : ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقله نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة وكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر ،

سورة الأنعام

والامتثال لهم ، واستيعاب عابه ، وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم (١) ، .

هذا ، وإنك لتقرأ هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي تصور مشهداً من مشاهد يوم القيامة فيخيل إليك أنك أمام مشهد حاضر أمام عينيك ترى فيه الظالمين وحسراتهم ، والضالين والمضلين وهم يتبادلون النهم وذلك من إعجاز القرآن الكريم وأنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ثم يحدثنا القرآن بعد ذلك عن عدالة الله في أحكامه ، وعن سعة غناه ورحمته ، وعن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء مصير الكافرين فيقول :

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ

رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴿١٢٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنْ مَا تُوعِدُونَ لِآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢٥﴾ قُلْ يَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٦﴾

قال الألوسي : ذلك، إشارة إلى إتيان الرسل ، أو السؤال المفهوم من
 « ألم يأتكم ، ، أو ما قص من أمرهم أعني شهادتهم على أنفسهم بالكفر
 وهو إما مرفوع على أنه خير مبتدأ مقدر أى : الأمر ذلك ، أو مبتدأ خبره
 مقدر ، أو خبره قوله - سبحانه - « إن لم يكن ربك مهلك القرى ، بخلاف
 اللام على أن ، أن ، مصدرية ، أو مخففة من أن وضمير الشأن لإسمها .
 وإما منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر كخذ ذلك ، أو فعلنا ذلك .
 وفي قوله « بظلم ، متعلق بمهلك أى : بسبب ظلم . أو بحذوف وقع
 حالا من القرى أى : ملتبسة بظلم . . . (١) .

والمعنى : ذلك الذى ذكرناه لك يا محمد من إتيان الرسل يقصون على
 الأمم آيات الله ، سببه أن ربك لم يكن من شأنه ولا من سنته فى تربية
 خلقه أن يهلك القرى من أجل أى ظلم فعلوه قبل أن ينهوا على بطلانه ،
 وينهوا عنه بواسطة الأنبياء والمرسلين ، فربك لا يظلم ، ولا يعذب أحداً
 وهو غافل لم ينذر قال - تعالى - « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »
 وقال - تعالى - « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

فآية الكريمة صريحة فى أن - سبحانه - قد أعذر إلى الثقيلين بإرسال
 الرسل ، وإزال الكتب ، وتبيين الآيات ، وإلزام الحجج « رسلاً مبشرين
 ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

ثم بين - سبحانه - أن الدرجات إنما هى على حسب الأعمال فقال -
 تعالى - « ولكل درجات مما عملوا ، أى : ولكل من المكافئين جنأ كانوا
 أولئها درجات أى منازل ومراتب « مما عملوا ، أى : من أعمالهم صالحة
 كانت أو سيئة أو من أجل أعمالهم إذا الجزاء من جنس العمل والعمل متروك
 للناس يتسابقون فيه ، والجزاء ينتظرهم عادلاً لا ظم فيه .

« وما ربك بغافل عما يعملون ، بل هو عالم بأعمالهم ومحصيا طيعهم »
لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

ثم صرح — سبحانه — بغناه عن كل عمل وعن كل عامل ، وبأنه هو صاحب الرحمة الواسعة ، والقدرة النافذة فقال : « وربك الغنى ذو الرحمة » .
أى : وربك يا محمد هو الغنى عن جميع خلقه من كل الوجوه : وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، وهو وحده صاحب الرحمة الواسعة العامة التى شملت جميع خلقه .

والجمله المكرمة تفيد الحصر . وقوله : وربك مبتدأ ، والغنى خبره ،
وقوله « ذو الرحمة » خبر بعد خبر . وجوز أن يكون هو الخبر والغنى صفة لربك .

وفى هذه الجملة تنبيهه إلى أن ما سبق ذكره من إرسال الرسل وغيره ،
ليس لنفعه — سبحانه — ، بل لترحمه على العباد ، وتمهيد لقوله بعد ذلك :
« إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء » أى : أنه — سبحانه —
إن يشأ لإذهابكم أيها الناس بالإهلاك لفعل ذلك فهو قدير على كل شيء .
وعلى أن ينشئ بعد لإذهابكم ما يشاء من الخلق الذين يعملون بطاعته ،
ولا يكونون أمثالكم .

والكاف فى قوله : « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » فى موضع نصب
والمعنى : إن الله — تعالى — قادر على أن يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلاقاً
مثل ما أنشأكم من ذرية قوم آخرين . ونظيره قوله — تعالى — « إن
يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً » وقوله
« يأبى الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » . إن يشأ يذهبكم
ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز .

ثم بين — سبحانه — أن أمر البعث والحساب كائن لا ريب فيه فقال :
« إن ما توعدون »

أى : وإن ما وعدون من أمر القيامة والحساب ، والعقاب والثواب لواقع لاشك فيه ، وما أقم بمعجزين ، أى : بما عليه عاجزا عنكم ، غير قادر على إدراككم . من أعجزه بمعنى جملة عاجزا . أو : بفائتين العذاب ، من أعجزه الأمر . إذ فانه . أى لا مهرب لكم من عذابنا بل هو مدر ككم لا محالة .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن ينفض يده من هؤلاء المشركين ، وإن يتركهم لأنفسهم . وأن ينذرهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا في كفرهم فقال - تعالى - : قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون . من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون .

أى : قل يا محمد هؤلاء المصيرين على كفرهم اعملوا على غاية تمكينكم من أمركم ، وأقصى استطاعتكم . مصدر مكن - ككرم - مكانة ، إذا تمكن أبلغ التمكين وأفراه ، أو المعنى اعملوا على جهتكم وأثبتوا على كفركم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم . مكان ومكانة كقام ومقامة .

قال الزمخشري : يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة مكانتك يا فلان أى : أثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه .

والأمر للتهديد والوعيد ، وإظهار ما هو عليه (صلى الله عليه وسلم) في غاية التصلب في الدين ، ونهاية الوثوق بأمره ، وعدم المبالاة بأعدائه أصلا . وقوله : إني عامل فسوف تعلمون ، أى : إني عامل على مكانتى ، ثابت على الإسلام لا أترشح عن الدعوة إليه ، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى في هذه الدنيا .

وقوله : فسوف تعلمون ، بجانب إفادته للإنذار ، فيه إنصاف في المقال ، وحسن أدب في الخطاب ، حيث لم يقل - مثلاً - العاقبة لنا ، وإنما فوض الأمر إلى الله ، فهو كقوله - تعالى - : وإنا أربابكم لعل هدى أو في ضلال مبين ، وفيه تنبيه على وثوق المنذر بأنه على الحق .

قال الجمل - وسوف لنا كيد مضمون الجملة ، وهذه الجملة . تعليل لما قبلها والعلم عرفان ، ومن استفهامية معلقة لفعل العلم محلاً الرفع على الابتداء وخبرها جملة تكون ، وهي مع خبرها في محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون . أى : فسوف تعلمون أننا نكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله هذه الدار لها ، ويجوز أن تكون موصولة فيكون محلها النصب على أنها مفعول لتعلمون . أى : فسوف تعلمون الذى له عاقبة الدار ، (١) .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - « إنه لا يفلح الظالمون ، أى : لن يظفروا بمطلوبهم بسبب ظلمهم ، وقيل المراد بالظلم هنا الكفر ، ووضع الظلم موضع الكفر ، لإدناؤنا بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم ، فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراد .

قال ابن كثير ، وقد أنجز الله مواعده لرسوله - صلى الله عليه وسلم - فمكن له في البلاد ، وحكمه في نواصى مخالفه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب . وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأقاليم والأمصار بعد وفاته . قال - تعالى - « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٢)

ثم تبدأ السورة بعد ذلك حديثاً مستفيضاً عن أوهام المشركين وجمالاتهم التى تتعلق بما كلفهم ، ومشاربهم ، وفنودهم ، وذبايحهم ، وعاداتهم البالية ، وتقاليدهم الموروثة ، فتناقشهم في كل ذلك مناقشة منطقية حكيمة ، وترشد عليهم فيما أحلوه وحرموه بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وترشدهم إلى الطريق السليم الذى من الواجب عليهم أن يسلكوه . . . استمع إلى سورة الأنعام وهى تحكى كل ذلك في بضع عشرة آية بأسلوبها البليغ المؤثر فنقول :

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٩٣

(٢) تفسير ابن كثير

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا

لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصُلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ

يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيلْبِسُوا عَلَيْهِمْ

دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ

أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ

ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ

بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا

وَمَحْرَمٍ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ

وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ

سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا

كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

لقد حكمت هذه الآيات الكريمة بعض الرذائل التي كانت متفشية في المجتمع الجاهلي ، أما الرذيلة الأولى فلخصها أنهم كانوا يجعلون من زروعهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً لله ونصيباً لأنفسهم ، فيشركونها في أموالهم

فَمَا كَانَ اللَّهُ صَرْفَهُ إِلَى الضَّيْفَانِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَمَا كَانَ لِلْأَوْثَانِ أَنْفَقُوهُ عَلَيْهَا
وَعَلَى سِدْنَتِهَا فَإِذَا رَأَوْا مَا جَعَلُوهُ اللَّهُ أَزْكَى بَدَلُوهُ بِمَا لِلْأَوْثَانِ ، وَإِذَا رَأَوْا
مَا جَعَلُوهُ لِلْأَوْثَانِ أَزْكَى تَرَكُوهُ لَهَا .

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : « وجعلوا
لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » .

ذرأ ، بمعنى خلق . يقال : ذرأ الله الخلق ذرؤهم ذرأ أي : خلقهم وأوجدهم
وقبل . الذرأ الخلق على وجه الاختراع .

أي : وجعل هؤلاء المشركون مما خلقه الله - تعالى - من الزروع
والأنعام نصيباً لله يعطونه للمساكين وللضيوف وغيرهم ، وجعلوا لأصنامهم
نصيباً آخر يقدمونه لسدنتها ، وإنما لم يذكر النصب الذي جعلوه لأصنامهم
اكتفاءً بدلالة ما بعده وهو قوله : « فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا » .
أي : فقالوا في القسم الأول : هذا الله نتقرب به إليه ، وقالوا في الثاني :
وهذا لشركائنا نتوسل به إليهما .

وقوله - تعالى - في القسم الأول : « هذا الله بزعمهم » ، أي : بتقولهم
ووضعهم الذي لا علم لهم به ولا هدى .

قال الجمل : ومن المعلوم أن الزعم هو الكذب ، وإنما نسوا الكذب
في هذه المقالة مع أن كل شيء لله ، لأن هذا الجمل لم يأمرهم به الله وإنما هو
مجرد اختراع منهم (١) .

وقال أبو السعود : وإنما قيد الأول بالزعم للتنبيه على أنه في الحقيقة
جعل لله - تعالى - غير مستمتع بشيء من الثواب كالتطوعات التي يتغنى
بها وجه الله - لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه ، فإن ذلك
مستفاد من الجمل ولذلك لم يقيد به الثاني ، ويجوز أن يكون ذلك تمهيداً
لما بعده على معنى أن قولهم هذا الله مجرد زعم منهم لا يعملون بمقتضاه

الذى هو اختصاصه — تعالى — به (١) .

ثم فصل - سبحانه - ما كانوا يعملونه بالنسبة للقسم فقال : « فما كان
لشركائهم فلا يصل الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » .

أى : « فما كان من هذه الزروع والأنعام من القسم الذى يتقرب به إلى
شركائهم ، فإنهم يهرمون الضيفان والمساكين منه ولا يصل إلى الله منه شيء ،
وما كان منها من القسم الذى يتقرب به إلى الله عن طريق إكرام الضيف
والصدقة ، فإنهم يحورون عليه ويأخذون منه ما يعطونه لخدمة الأصنام وخدامها .
فهم يجعلون قسم الأصنام لخدمتها وأتباعها وحدهم ، بينما القسم الذى
جعلوه لله بزعمهم ينتقصونه ويضعون الكثير منه في غير موضعه ، ويقولون :
إن الله غنى وإن آلهتنا محتاجة .

وقد عقب القرآن على هذه القصة الجائرة بقوله : « ساء ما يحكمون ، أى :
ساء وقبح حكمهم وقسمتهم حيث آثروا مخلوقا عاجزا عن كل شيء ، على
خالق قادر على كل شيء ، فهم يحاربون عملهم الفاسد من أساسه لم يعدلوا في القصة -
هذه هي الرذيلة الأولى من رذائلهم ، أما الرذيلة الثانية فهي أن كثير منهم
كانوا يقتلون أولادهم ، ويشدون بناتهم لأسباب لا تمت إلى العقل السليم
بصلة وقد حكى القرآن ذلك في قوله .

وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم
ويلبسوا عليهم دينهم » .

أى : ومثل ذلك التزيين في قصة الزروع والأنعام بين الله والأوثان ،
زين للمشركين شركائهم من الشياطين أو السدنة قتل بناتهم خشية العار
أو الفقر فأطاعوهم فيما أمروهم به من المعاصي والآثام .

والتزيين : التحسين ، فعنى تزيينهم لهم أنهم حسنوا لهم هذه الأفعال
القبیحة ، وحضوهم على فعلها .

سموا شركاء. لأنهم اطاعوهم فيما امروهم به من قتل الأولاد، فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم ، أو سموا شركاء لأنهم كانوا يشاركون الكفار في أموالهم التي منها الحرث والأنعام .

و د شركاؤهم ، فاعل د ثين ، وآخر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدم واهتماما به ، لأنه موضع التعجب .

وقوله : د ليردوهم ، أى ليهلكوهم ؛ من الردى وهو الهلاك . يقال ردى - كرضى - أى : هلك .

وقوله : د وليلبسوا عليهم دينهم ، معطوف على ليردوهم ، أى : ليختلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسماعيل - عليه السلام - حتى زالوا عنه إلى الشرك . ويلبسوا مأخوذ من اللبس بمعنى الخلط بين الأشياء التي يشبه بعضها بعضاً وأصله الستر بالثوب ، ومنه اللباس ، ويستعمل في المعاني فيقال : لبس الحق بالباطل يلبسه ستره به . ولبست عليه الأمر . خلطته عليه وجهته مشتبه حتى لا يعرف جمته ، فانت ترى أن شركاءهم قد حسنوا لهم القبيح من أجل أمرين : لإهلاكهم وإدخال الشبهة عليهم في دينهم عن طريق التخليط والتلبيس . ثم سلى الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم - وهدد أعداءه فقال : د ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، .

أى : ولو شاء الله ألا يفعل الشركاء ذلك الاتيين أو المشركون ذلك القتل لما فعلوه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات بسبب ما يفعلونه ، بل دعمهم وما يفترونه من الكذب ، فإنهم أسوء استعدادهم آثروا الضلالة على الهداية .

والفاء في قوله د فذرهم ، فصيحة . أى : إذا كان ما قصصناه عليك بمشيئة الله ، فدعهم وافتراءهم ولا تقبال بهم ، فإن فيما يشاؤه الله حكماً بالغة .

ثم حكى القرآن رذيلة ثالثة من رذائلهم الممعددة ، وهى أن أوهاهم الجاهلية وضلالاتها - ساقطهم إلى نفس من أهوالهم لتكذبهم على آلهتهم بحيث

لا ينتفع بها أحد سوى سدنتها ، ثم عمدوا إلى قسم من الأنعام فحرموا ركوبها وعمدوا إلى قسم آخر فحرموا أن يذكر اسم الله عليها عند ذبحها أو ركوبها إلى آخر تلك الأوهام المفتراة .

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول : وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم . ، ، .

حجر : بمعنى المحجور أى : الممنوع من التصرف فيه ، ومنه قيل للعقل حجر - يكون الإنسان في منع منه عما تدعوه إليه نفسه من اثم .

أى : ومن بين أوهام المشركين وضلالاتهم أنهم يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها ويقولون : هذه الأنعام وتلك الزروع محجورة علينا أى : محرمة ممنوعة ، لا يأكل منها إلا من نشاء يعنون : خدم الأوثان والرجال دون النساء أى : لا يأكل منها إلا خدم الأوثان والرجال فقط . وقوله : ، بزعمهم ، متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قالوا . أى : قالوا ذلك متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة .

وقوله : ، وقالوا هذه الإشارة إلى ما جعلوه لألهتهم ، والتأنيث باعتبار الخير وهو قوله : أنعام وحرث وقوله ، حجر ، صفة لأنعام وحرث ، وقوله ، لا يطعمها ، صفة ثانية لأنعام وحرث .

هذا هو النوع الأول الذى ذكرته الآية من أنواع ضلالاتهم ، أما النوع الثانى فهو قوله - تعالى - ، وأنعام حرمت ظهورها ، أى : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام حرمت ظهورها فلا تتركب ولا يحمل عليها ، يعنون بها البحائر والسوائب والوصائل والحوامى (١) التى كانوا

(١) البحيرة : الناقة التى تلد خمسة أبطن آخرها ذكر كانوا يشقون أذننها ويتركونها لألهتهم والسائبة : اسم للناقة التى يتركها صاحبها فلا تنحر لأنها نجت فى الحرب أو نذرها الأصنام .

والوصيلة : اسم للناقة التى تلد أول ما تلد أنثى ثم تشئ بأنثى كانوا يتركونها للأصنام والحام : اسم للفحل إذا فحق ولدوله قالوا حمى ظهره فلا يركب ويترك حتمه ، يموت

يزعمون أنها تعشق وتقضى لأجل الآلهة . فقوله « وأنعام » خير لمبتدأ محذوف
والجمله معطوفة على قوله (هذه أنعام) وأما النوع الثالث من أنواع اختراعاتهم
الذى ذكرته الآية فهو قوله : (وأنعام لا بد كرون اسم الله عليها) .
أى : وقالوا أيضاً هذه أنعام لا بد كرون اسم الله عليها عند الذبح ، وإنما
يفكر عليها أسماء الأصنام لأنها ذبحت من أجلها .

وقد عقب - سبحانه - على تلك الأقسام الثلاثة الباطلة بقوله : (افتراء
عليه) أى فعلوا ما فعلوا من هذه الأباطيل وقالوا ما قالوا من تلك المزاعم من
أجل الافتراء على الله وعلى دينه ، فإنه - سبحانه - لم يأذن لهم فى ذلك
ولا رضىه منهم .

ثم ختمت الآية بهذا التهديد الشديد حيث قال : - سبحانه - (سيجزيهم
بما كانوا يفترون) أى : سيجزيهم الجزاء الشديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح
ثم يحكى القرآن الرذيلة الرابعة من رذائلهم وملخصها : أنهم زعموا أن
الأجنة التى فى بطون هذه الأنعام المحرمة ، ما ولد منها حياً فهو حلال
للرجال ومحرم على النساء ، وما ولد ميتاً اشترك فى أكله الرجال والنساء .
استمع إلى القرآن وهو يفضح زعمهم هذا فيقول : (وقالوا ما فى بطون
هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم
فيه شركاء) ومرادهم بما فى بطون هذه الأنعام أجنة البهائم والسواكن .
أى : ومن فتون كفرهم أنهم قالوا ما فى بطون هذه الأنعام المحرمة إذا
نزل منها حياً فأكله حلال للرجال دون النساء ، وإذا نزل ميتاً فأكله
حلال للرجال والنساء على السواء .

وفى رواية العوفى عن ابن عباس أن المراد بما فى بطونها اللبن ، فقد
كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكراهم وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً
ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ،
وإن كانت ميتة ففردوها . (سورة الانعام ١٤١)

قال بعضهم : « ومن مباحث اللفظ في الآية أن قوله دخالة ، فيه وجوه :
أحدها أن التاء قيد للمبالغة في الوصف كراوية وداوية فلا يقال إنه غير
مطابق للمبتدأ على القول بأنه خبر . وثالثها : أن المبتدأ وهو داني بطون هذه
الأنعام ، مذكر اللفظ مؤنث المعنى ، لأن المراد به الأجنة فيجوز تذكير
خبره باعتبار اللفظ وتأنينه باعتبار المعنى . وثالثها : أنه مصدر فتكون
العبارة مثل قولهم : عطاؤك عافية ، والمطر رحمة والرخصة نعمة . ورابعها : أنه
مصدر مؤكد أو حال من المستكن في الظرف وخبر المبتدأ ذلك كورنا ، (١) .
وقوله : « سيجزيهم وصفهم » إنه حكيم عليم ، تهديد لهم أي : سيجزيهم
بإمام أهله من العذاب المهيئ جزاء وصفهم أو بسبب وصفهم الكذب على الله
في أمر التحليل والتحرير على سبيل التحكيم والتمجيم بالباطل على شرعه .
لأنه - سبحانه - حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من
خير أو شر وسيجازيهم عليها .

قال الألوسي : ونصب وصفهم - على ما ذهب إليه الزجاج - لوقوعه
موقع مصدر « يجزيهم » ، فالكلام على تقدير مضاف . أي : جزاء وصفهم .
وقيل : التقدير . سيجزيهم العقاب بوصفهم أي : بسببه فلما سقطت الباء
نصب وصفهم .

ثم قال . وهذا كما قال بعض المحققين من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم
يقولون ، كلامه يصف الكذب إذا كذب ، وعينه تصف السحر ، أي
ساحرة ، وقده يصف الرشاقة ، بمعنى رشيق . مبالغة ، حتى كان من سمعه
أورآه وصف له ذلك بما يشرحه له ، (٢) .

وإلى هنا تكون الآيات الأربعة التي بدأت بقوله - تعالى - وجعلوا
قته مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . الخ ، قد قصت علينا أربع رذائل
من أفعال المشركين وأقوالهم .

(١) تفسير المنار ج ٨ ص ١٢٩

(٢) تفسير الألوسي ج ٨ ص ٢٦

وإن العاقل ليعجب وهو يستعرض هذه الضلالات - التي حكمتها الآيات - يعجب لما تحملوه في سبيل ضلالتهم من أعباء مادية وخسائر وتضحيات ، يعجب للعقيدة الفاسدة وكيف تكلف أصحابها الكثير ومع ذلك فهم مصرون على اعتنائها ، وعلى التقيد بأغلالها ، وأوهامها ، وتبعاتها لكان القرآن وهو يحكي تلك الرذائل وما تحمله أصحابها في سبيلها يقول لأنبأه - من بين ما يقول - إذا كان أصحاب العقائد الفاسدة قد ضحوا حتى بفلذات أكبادهم لإرضاء لشركائهم .. فأولى بكم ثم أرى أن تضحوا في سبيل عقيدتكم الصحيحة ، وملتكم الخنيقة السمحاء بالأنفس والأموال . هذا وقد عذب القرآن الكريم بعد إيراده لتلك الرذائل بقوله .

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله أفترأ على الله » .

قال الإمام ابن كثير : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا على أنفسهم في أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم . وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكنزهم على الله وافترائهم ، (١) .

والتعبير بخسر بدون ذكر مفعول معين يقع عليه الفعل الإشارة إلى أن خسارتهم خسارة مطلقة من أى تحديد ، فهي خسارة دينية وخسارة دنيوية - كما قال ابن كثير .

وقرأ ابن عامر « قتلوا ، بالشديد . أى : فعلوا ذلك كثيراً ، إذالتضعيف يفيد التكثير .

و « سفهاً ، منصوب على أنه علة لقتلوا أى : لخفة عقولهم وجهلهم قتلوا أولادهم . أو منصوب على أنه حال من الفاعل في قتلوا وهو ضمير الجماعة .

والسفه : خفة في النفس لنقصان العقل في أمور الدنيا أو الدين .

وقوله : وحرموا ما رزقهم الله ، أى من البحائر والسوائب ونحوهما ، وهو معطوف على « قتلوا » .

ثم بين - سبحانه - نتيجة ذلك القتل والتحريم فقال : « قد ضلوا وما كانوا مهتدين ، أى : قد ضلوا عن الصراط المستقيم بأقوالهم وأفعالهم القبيحة وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب .

قال الشهاب ، وفي قوله وما كانوا مهتدين ، بعد قوله قد ضلوا مبالغة في نفي الهداية عنهم ، لأن صيغة الفعل تقتضى حدوث الضلال بعد أن لم يكن . فلذا أردف بهذه الحال لبيان عراقتهم في الضلال ، وإنما ضلّاهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض ، (١) .

روى البخارى عن ابن عباس قال : إذا حرك أن تعلم جهل العرب فافراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) (٢) .

ثم بين - سبحانه - أنه هو الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بأرائهم الفاسدة ، وأن من الواجب عليهم أن يستعملوا نعم الله فيها خلقت له فقال - تعالى - :

(١) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٢٥٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨١

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ
 وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ
 كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ وَلا تَسْرِفُوا
 إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنْهَا
 رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾
 ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِنَ الصَّانِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ أَثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدَ الْكَرِيمِ
 حَرَّمَ أُمَ الْأَنْثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ
 إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدَ الْكَرِيمِ
 حَرَّمَ أُمَ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ
 إِذْ وَصَّيَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ
 النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله - تعالى - وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، -
 أنشأ : أى أوجد وخلق . والجنات : البساتين والمكروم الملتفة الأشجار .
 ومعروشات : أصل العرش فى اللغة شيء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه
 عروش ، يقال عرشت الكرم أعرضه عرشاً من بابى - ضرب ونهر - ،
 وعرشته تعريشاً إذا جعلته كهية السقف . فالمادة تدل على الرفع ومنها عرش
 الملك . قال ابن عباس :

الزروع مما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه ، كالكرم والبطيخ والقرع ونحو ذلك . وغير المعروشات ما قام على ساق واستغنى باستوائه وقوة ساقه عن التعريش كالنخل والشجر .

وقيل المعروشات وغير المعروشات كلاهما في الكرم خاصة ، لأن منه ما يعرش ومنه مالا يعرش بل يبقى على وجه الأرض منبسطة .

وقيل المعروشات ما غرسه الناس في البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم أو غيره ، وغير المعروشات : هو ما أنبته الله في البراري والجبال من كرم وشجر . أى : وهو - سبحانه - الذى أوجد لكم هذه البساتين المختلفة التى منها المرفوعات عن الأرض ، ومنها غير المرفوعات عنها ، فخصوه وحده بالعبادة والتخضوع . وقوله : « والنخل والزروع مختلفا » كله ، عطف على جنات ، أى : أنشأ جنات ، وأنشأ النخل والزروع ، والمراد بالزروع جميع الحبوب التى يقات بها . وإنما أفردهما مع أنهما داخلان في الجنات لما فيهما من الفضيلة على سائر ما ينبت في الجنات .

و « مختلفا » كله ، أى ، ثمره وحبه في اللون والطعم والحجم والرائحة . والضمير في « كله » راجع إلى كل واحد منهما . أى : النخل والزروع والمراد بالأكلاكل المأكول أى ، مختلف المأكول في كل منهما في الهيئة والطعم .

قال الجمل : وجملة . « مختلفا » كله ، حال مقدرة ، لأن النخل والزروع وقت خروجه لا أكل منه حتى يكون مختلفا أو متفقا ، فهو مثل قولهم : مررت برجل معه صقرا فآذله غدا .

وقوله : « والزيتون والرمان متشابه » ، أى : وأنشأ الزيتون والرمان متشابه في المنظر وغير متشابه في الطعم أو متشابه بعض أفرادهما في اللون أو الطعم أو الهيئة « وغير متشابه في بعضها .

قال القرطبي : وفيه أدلة ثلاثة ، أحدها : ما تقدم من قيام الدليل على أن

المتغيرات لابد لها من مغير ، الثاني : على المنة منه — سبحانه — علينا ، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء ، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم ، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى ، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء ، لأنه لا يجب عليه شيء .

الثالث : على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها ، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها ، وثمر خارج من صفته : الجرم الوافر ، واللون الزاهر ، والجنى الجديد ، والطعم اللذيذ ، فأين الطبائع وأجناسها وأين الفلاسفة وأسسها ، هل هي في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان أو ترتب هذا الترتيب العجيب . كلا ، لا يتم ذلك في العقول إلا لحي قادر عالم مرید ، وسبحان من له في كل شيء آية ونهاية .

ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب . وأشركوا معه وحلوا وحرموا دلهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء ، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم ، (١) .

ثم ذكر — سبحانه — المقصود من خلق هذه الأشياء فقال : «كلوا من ثمره إذا أثمر ، أى : كلوا من ثمر تلك الزروع والأشجار التي أنشأناها لكم ، شاكرين الله على ذلك . والأمر بالإباحة . وفائدة التقييد بقوله «إذا أثمر» إباحة الأكل قبل النضوج والإدراك .

وقيل فائدته : الترخيص للمالك في الأكل من قبل أداء حق الله تعالى . لأنه لما أوجب الحق فيه ربما يتبادر إلى الأذهان أنه يحرم على المالك تناول شيء منه لمكان شركة المساكين له فيه ، فأباح الله له هذا الأكل .

ثم أمرهم - سبحانه - بأداء حقوق الفقراء والمحتاجين مما رزقهم فقال :

« وآتوا حقه يوم حصاده ، أى ، كلوا من ثمر ما أنشأنا لكم ، وأدوا حق الله فيه للفقراء والمحتاجين يوم حصاده .

ويرى بعض العلماء أن المراد بهذا الحق الصدقة بوجه عام على المستحقين لها ، بأن يوزع صاحب اللزوع منه عند حصاده على المساكين والبائيس ما يسد حاجتهم بدون إسراف أو تقتير .

وأصحاب هذا رأى فسروا هذا الحق بالصدقة الواجبة من غير تحديد للمقدار وليس بالزكاة المفروضة لأن الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة . وهم يرون أن هذا الحق لم ينسخ بالزكاة المفروضة ، بل على صاحب اللزوع أن يطعم منه المحتاجين عند حصاده .

ويرى بعض آخر من العلماء أن المراد بهذا الحق ما فصلته السنة النبوية من الزكاة المفروضة وهذه الآية مدنية وإن كانت السورة مكية .

ويبدو لنا أن للرأى الأول أرجح ، لأنه لا دليل على أن هذه الآية مدنية ولأن فرضية الزكاة لا تمنع إعطاء الصدقات ، وفي الأمر بإيتاء هذا الحق يوم الحصاد ، مبالغة في العزم على المبادرة إليه .

والمعنى : اعزموا على إيتاء هذا الحق واقصدوه ، واهتموا به يوم الحصاد حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء .

وقيل . إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفاً على أصحاب اللزوع حتى لا يحسب عليهم ما أكل قبله .

ثم ختمت الآية بالنهى عن الإسراف فقالت ، « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . أى لا تسرفوا فى أكلكم قبل الحصاد ولا فى صدقاتكم ولا فى أى شأن من شئونكم ، لأنه — سبحانه — لا يحب المسرفين .

وقال ابن جريج ، نزلت فى ثابت بن قيس ، قطع نخلاً له فقال . لا يألفنى لليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فنزلت هذه الآية . وقال عطاء ، نهوا عن السرف فى كل شئ .

وقال إياي بن معاوية ، ماجاوزت به أمر الله فهو مرف .

ثم بين - سبحانه - حال الأنعام ، وأبطل ما تقولوه عليه في شأنها بالتحريم والتحليل فقال . « ومن الأنعام حمولة وفرشا ، .

الحمولة ، هي الأنعام الكبار الصالحة للحمل . والفرش هي صغارها الدانية من الأرض ، مثل الفرش المفروش عليها .

وقيل الحمولة كل ما حمل عليه من إبل وبقر وبغل وحمار . والفرش ما اتخذ من صوفه ووبره وشعره ما يفرش .

أى : وأنشأ لكم - سبحانه - من الأنعام حمولة وهي ما تحملون عليه أنقالكم ، كما أنشأ لكم منها فرشا وهي صغارها التى تفرش للذبائح من الضأن والمعز والإبل والبقر .

والجملة معطوفة على جنات ، والجهة الجامعة بينهما إباحة الانتفاع بهما .
وقوله « كالأما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، .

أى : كلوا مما رزقكم الله من هذه الثمار والزرع والأنعام وغيرها ، وانتفعوا منها بسائر أنواع الانتفاع المشروعة ، ولا تتبعوا وساوس الشيطان وطرقه في التحريم والتحليل كما اتبعها أهل الجاهلية ، إذ حرموا ما رزقهم الله افتراء عليه ، إن الشيطان عدوته ، ظاهرة واضحة لكم ، فهو بمنعكم ما يحفظ روحكم ، ويظهر قلوبكم ، فالجملة الكريمة « إنه لكم . . . » تعليل للذى عن اتباع خطوات الشيطان .

ثم بين القرآن بعد ذلك بعض ما كان عليه الجاهليون من جهالات ، ونافسهم فيما أحلوه وحرموه مناقشة منطقية حكيمة فقال :

وقوله — سبحانه — « ثمانية أزواج ، بدل من دحمولة وفرشا ، بناء على كونهما قسمين لجميع الأنعام على الراجع ، وقيل أن لفظ ثمانية منصوب بفعل مضمَر أَى : وأنشأ لكم ثمانية أزواج ، أو هو مفعول به لفعل «كَلُوا» وقوله « ولا تتبعوا . . الخ » معترض بينهما .

والزوج يطلق على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه يزوجه ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الإثنين فهو مشترك والمراد هنا الإطلاق الأول والمعنى : ثمانية أصناف خلقها الله لكم ، لتتفكروا بها أكلًا ورَكوبًا وحملًا وحلبًا وغير ذلك .

ثم فصل الله - تعالى - هذه الأزواج الثمانية فقال : « من الضأن اثنين ، أَى . من الضأن زوجين اثنين هما السكبش والنعجة ، « ومن المعز اثنين ، أَى . ومن المعز زوجين اثنين هما التيس والعنز .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يبيحهم على جهلهم فقال « قل الذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، .

أَى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والزامهم الحجة . أحرم الله الذكركين و أحدهما من الضأن والمعز أم الأنثيين و أحدهما ، أم الأجنة التي اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين كليهما سواء . أكانت تلك الأجنة ذكورا أم إناثا ؟

وقوله : « نبتوني بعلم إن كنتم صادقين ، أَى : أخبروني بأمر معلوم من جهته - تعالى - جاءت به الأنبياء ، يدل على أنه - سبحانه - قد حرم شيئاً مما حرمتهم وإن كنتم صادقين في دعوى التحريم .

والأمر هنا للعجز لأنهم لا دليل عندهم من العقل أو النقل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض .

وقوله - تعالى - « ومن الإبل اثنين ، عطف على قوله « من الضأن اثنين ، أَى : وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة « ومن البقر اثنين ، هما الثور وأنثاء البقرة .

وقل، إباحاماً في أمر هذين النوعين أيضاً، أليذكربن حرم، الله - تعالى -
 منهما ، دام الاثنيان أما اشتملت عليه أرحام الاثنيين ، من ذينك النوعين ؟
 قال الألوسي : والمعنى - كما قال كثير من أجلة العلماء : إنكار أن الله
 - تعالى - حرم عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم في ذلك
 وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمباغة في الرد عليهم
 بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد اقترانهم ، فإنهم كانوا يجرمون ذكور
 الأنعام تارة ، وإناثها تارة . وأولادها كيفما كانت تارة أخرى ، مسندين
 ذلك كله إلى الله - سبحانه - .

ثم قال : وإنما لم يل المنكر - وهو التحريم - الهمزة ، والجاري في
 الاستعمال أن ما فـنـكـر وإيها لأن ما في النظم للسكريم أبلغ .
 وبيانه - على ما قاله السكاكي - أن إثبات التحريم يستلزم إثبات محله
 لا محالة ، فإذا انتفى محله وهو الماراد الثلاثة لزم انتفاء التحريم على وجه
 برهاني . كانه وضع الكلام موضع من سلم أن ذلك قد تم طالبه ببيان محله
 كي يتبين كذبه ، وبقتضخ عند الحاجة .

وإنما لم يورد - سبحانه - الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة ،
 بأن يقال : قل أليذكور حرم أم الإناث أما اشتملت عليه أرحام الإناث ،
 لما في التكرير من المباغة أيضاً في الإلزام والتبكيك ، (١) .
 وقوله - تعالى - (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) تكرر
 للإباحام والتبكيك .

أى : أكنتم حاضرين حين وصاكم الله وأمركم بهذا التحريم ؟ لا ،
 ما كنتم حاضرين فن أين لكم هذه الأحكام الفاسدة ؟
 فالجلة السكريمة تبكيكم غاية التبكيك على جهالاتهم واقترانهم الكذب
 على الله ، والاستفهام في قوله - تعالى - (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً

ليضل الناس بغير علم (للنفي والإنكار .

أى : لا أحد أشد ظلماً من هؤلاء المشركين الذين يفترون على الله الكذب بنسبتهم إليه - سبحانه - تحريم ما لم يحرمه الحكى يضلوا الناس عن الطريق القويم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وقوله ، (بغير علم) متعاقب بمحذوف حال من فاعل افترى ، أى : افترى عليه - تعالى - جاهلاً بصدور التحريم .

وإنما وصف بعدم العلم مع أن المفترى عالم بعدم الصدور ، لإدانة مخروجه في الظلم عن الحدود والنهايات ، لأنه إذا كان المفتى بغير علم يعد ظالماً فكيف بمن يفترى الكذب وهو عالم بذلك .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أى لا يهديهم إلى طريق الحق بسبب ظلمهم ، وإيثارهم طريق الغى على طريق الرشده . هذا ، والمتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين يراهما قد ردتا على المشركين بأسلوب له - مع سهولته وتأثيره - الطابع المنطقي الذي يزيد المؤمنين إيماناً بصحة هذا الدين ، وصدق هذا القرآن ، ويقطع على المعارضين والملحدين كل حجة وطريق .

وتقرير ذلك - كما قال بعض العلماء - أن تطبيق قاعدة (السبر والتفسييم) فيقال ، إن الله - تعالى - خلق من كل صنف من المذكورات نوعين : ذكراً وأنثى ، وأنتم أيها المشركون حرمتهم بعض هذه الأنعام ، فلا يخلو الأمر في هذا التحريم من :

١ - أن يكون تحريماً معللاً بعلة .

٢ - أو أن يكون تحريماً تعبدياً ملقى من الله - تعالى - .

ولاجاز أن يكون تحريماً معللاً ، لأن العلة إن كانت هي (الذكورة) فأنتم أبغتم بعض الذكور وحرمتهم بعضاً ، فلم تجعلوا الأمر في الذكورة مطرداً وإن كانت العلة هي (الأنوثة) فكذلك الأمر : حيث حرمتهم بعض الإناث أو حرمتهم بعضاً ، فلم تطرد العلة ، ومثل هذا يقال إذا جمعت العلة هي اشتغال

لأنهم من الأنبياء على النوعين ، لأنها حينئذ تقتضى أن يكون الكل حراما فلماذا أحلوا بعضه .

وهذا كله يؤخذ من قوله - تعالى - « قل الذكركم حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين » .
فبطل إذن أن يكون التحريم معللا .

ولا جاز أن يكون التحريم تعبديا لا يدعى له علة ، أى : مأخوذ عن الله ، لأن الأخذ عن الله إما بشهادة توصيته بذلك وسماع حكمه به ، وقد أنكر هذا عليهم بقوله : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، وإما أن يكون برسول أبلغهم ذلك ، وهم لم يأمرهم رسول بذلك ، وفي هذا يقول - جل شأنه - متحديا لهم « نبتوني بعلم إن كنتم صادقين » ، « فن أظلم من افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » .

وإذن فما قالوه من التحريم إنما هو افتراء وضلال ، (١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بعد إلزام المشركين وتبكيهم ، وبيان أن ما يتقولونه في أمر التحريم افتراء محض - بعد كل ذلك أمره بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال :

(١) سورة الانعام والاهداف الأولى للإسلام ص ٨٣ لفضيلة

قُلْ لَا أَجِدُ

فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ
أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا
حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا
مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ
بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١١٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾

أى : قل ، يا محمد لهؤلاء المفسرين على الله الكذب فى أمر التحليل والتحرير
وغيرهما ، لا أحد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه ، .
أى : لا أحد فيما أوحاه الله إلى من القرآن طعاما محرما على آكل يريد
أن يأكله من ذكر أو أنثى رداً على قولهم د محرم على أزواجنا ، .
والجملة الكريمة تفيد أن طريق التحريم والتحليل إنما هو الوحي وليس
بجرد الهوى والنشوى ، وأن الأصل فى الأشياء الحل إلا أن يرد نص بالتحريم .
و د محرما ، صفة لموصوف محذوف ، أى : شيئاً محرماً ، أو طعاماً
محرماً ، وهو المفعول الأول لأجد ، أما المفعول الثانى فهو د فيما أوحى
إلى ، قدم للاهتمام به .
وقوله د يطعمه ، فى موضع الصفة لطاعم جىء به قطعاً للمجاز كما فى قوله
د ولا طائر يطير بجناحيه ، .

ثم بين - سبحانه - ما حرمه فقال: «إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا
أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا ، أهل لغير الله به .

أى : لا أجد فيما أوحاه الله إلى الآن شيئا محرما من المطاعم إلا أن
يكون هذا الشيء أو ذلك الطعام ، ميتة ، أى : بهيمة مانت حتف أنفها .

« أو دما مسفوحا ، أى : دما صبوا بأسا فلا كالدّم الذى يخرج من المذبوح
هذه ذبحة ، لا الدم الجامد كالكبِد والطحال ، والسفح ، الصب والسيلان .

« أو لحم خنزير فإنه ، أى اللحم لأنه المحدث عنه ، أو الخنزير لأنه الأقرب
أو جميع ما ذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير .

« رجس ، أى : نذر خبيث تعافه الطباع السليمة وضار بالآبدان
« أو فسقا أهل لغير الله به ، أى : خروجا عن الدين ، لكونه عند ذبحة قد
ذكر عليه غير اسمه - تعالى - من صنم أو وثن أو طاغوت أو نحو ذلك .

والإهلال : رفع الصوت عند رؤية الهلال ، ثم استعمل لرفع الصوت
مطلقا ، ومنه إهلال الصبى ، والإهلال بالحج ، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا
ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموها عليها أسماءها - كالكلات والعزى - ورفعوا بها
أصواتهم ، وسمى ذلك إهلالا .

وإنما سمي « ما أهل به لغير الله ، فسقا ، لتوغله فى باب الفسق ، والخروج
عن الشريعة الصحيحة ، ومنه قوله - تعالى - « ولأننا كلوا مما لم يذكر اسم
الله عليه وإنه لفسق » .

ثم بين - سبحانه - حكم المضطر فقال : « فمن اضطر ، :

أى : فمن أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء مما ذكر ، بأن ألقى -
يا كراه أو جوع مهلك - مع فقد الحلال - إلى أكل شيء من هذه المحرمات
التي كانوا فى الجاهلية - لا يفحش عليه فأكلا .

واضطرب : مأخوذ من الاضطراب وهو الاحتياج إلى الشيء ، يقال : اضطربه إليه ، أى أحوجه والجهاء فاضطر .

ثم قيد - سبحانه - حالة الاضطراب بقوله : غير باغ ولا عاد ، :
أى : فمن أصابته ضرورة قاهرة ألجأه إلى الأكل من هذه الأشياء المحرمة حالة كونه غير باغ فى أكله ، أى غير طالب للحرم وهو يجد غيره . أو غير طالب له لذته ، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيها عن الآخر .

أو حالة كونه - أيضاً - غير عاد فيما يأكل ، أى : غير متجاوز سد الجوعة فلا إثم عليه فى هذه الأحوال .

وباغ : مأخوذ من البغاء وهو الطلب تقول : بغيته بغاء وبغى بغية وبغية أى : طلبته .

وعاد : اسم فاعل بمعنى متعد ، تقول : فلان عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد ، ومنه قوله - تعالى - ذل أنتم قوم عادون .
وقوله : فإن ربك غفور رحيم ، أى : فإن ربك واسع المغفرة والرحمة لا يؤاخذ المضطرين ، ولا يكلف الناس بما فوق طاقتهم ، وإنما هو رءوف رحيم بهم يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر .

والجئة الكريمة جواب الشرط باعتبار لازم المعنى وهو عدم المؤاخذة .
وقيل جواب الشرط محذوف : أى فمن اضطرب ، فلا مؤاخذة عليه وهذه الجملة تعليل له .

هذا ، والآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه بغير علم من البحائر والسوائب وغيرها .

قال ابن كثير : الغرض من سبيل هذه الآية الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وبحو ذلك . فأمر - تعالى - بحوله أنه لا يحد فيه أرحاء الله إليه أن ذلك محرم ، وإن الذي حرمه هو الميتة وما ذكر معها وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ! ومن أين حرمتهم ولم يحرمه الله - تعالى - ! وعلى هذا فلا ينفي تحريم أشياء أخر فيها بعد هذا . كما جاء النهي عن الحر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير ، (١) .

وقال القرطبي : والآية مكية ، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وغير ذلك ، وحرم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخالب من الطير ، وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال : الأول ، ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية وكل محرم حرمه رسول الله أوجاء في الكتاب مضموم إليها ، فهو زيادة حكم من الله على لسان نبيه . على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر والفقه والأثر ، (٢) . والخلاصة : أن الآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات في هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين ، وذلك أن الكفار - كما قال الإمام الشافعي - لما حرموا ما أحل الله واحلوا ما حرمه الله وكانوا على المضادة والمحاددة جاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكانه قال - سبحانه - لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحلناهموه ، فإلا منزلة من يقول : لا نأكل اليوم حلاوة . فنقول : لا آكل اليوم إلا الحلاوة ، والغرض المضادة لا التقي والإثبات على الحقيقة .

فهو - تعالى - لم يقصد حل ما وراء الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، إذ القصد لإثبات التحريم لا لإثبات الحل .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨٤

(٢) تفسير الز - Made searchable using ScribeTools.com - سورة الأنعام

قال إمام الحرمين : وهذا في غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك - رضي الله عنه - في حصر المحرمات فيها ذكرته الآية ، (١) .

وفي حكم هذه الآية وتأويلها أقوال أخرى بسطاء العلماء فارجع إليهم إذا شئت (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حرمه الله على اليهود بسبب ظلمهم وبغيتهم فقال - تعالى - : وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر .

فقوله - تعالى - وعلى الذين هادوا حرمنا ، بيان لما حرمه الله - تعالى - على بني إسرائيل جزاء ظلمهم ، وفي هذا البيان رد على اليهود ، وتكذيب لهم ، إذ زعموا أن الله لم يحرم عليهم شيئاً ، وإنما هم حرموا على أنفسهم ما حرمه لإسرائيل على نفسه ، فجاءت هذه الآية الكريمة لتبين بعض ما حرمه الله عليهم من الطيبات - التي كانت حلالاً لهم - بسبب فسقهم وطغيانهم .

والمراد بقوله تعالى وكل ذي ظفر ، ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير ، كالإبل والنعام والأوز والبط ، كما روى عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة .

قال الإمام الرازي : قوله - تعالى - : وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، يفيد تخصيص هذه الحرمة بهم من وجهين : الأول : أن قوله - تعالى - وعلى الذين هادوا حرمنا كذا وكذا يفيد الحصر في اللغة . لنقدم المعمول على عامله .

الثاني : أنه لو كانت هذه الحرمة ثابتة في حق الكل لم يبق لقوله وعلى الذين هادوا حرمنا فائدة . . . (٣) .

(١) الإتيان في علوم القرآن ج ١ ص ٨٤ للسيوطي

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٧ ص ١١٥ وما بعدها وتفسير المنار

ج ٨ ص ٢٤٩ وما بعدها

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ١٦

ثم بين - سبحانه - ما حرم عليهم من ذوى الظفر فقال - تعالى - :
(ومن البقر والغنم حرمتنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ،
أو ما اختلط بعظم) .

والشحم : هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان وبها يكون لحمه سمياً
والعرب تسمى سنام البعير ، وبيض البطن شحماً ، وغالب إطلاق الشحم
على ما يكرن فوق أمعاء الحيوان .

والحوايا : - كما قال ابن جرير - جمع حاوياة وحاوية ، وحاوية وهى
ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار ، وفسرت بالمباعر ، والمرابض التى هى
يجتمع الأمعاء فى البطن (١) .

واللهنى : كما حرمتنا على اليهود كل ذى ظفر ، فقد حرمتنا عليهم كذلك
من البقر والغنم شحومها الزائدة التى تنزع بسهولة ، إلا ما استثنيناه من
هذه الشحوم وهو ما حملت ظهورهما أو ما حملت حواياهما ، أو اختلط
من هذه الشحوم بعظمها . فقد أحللتنا لهم .

ثم بين - سبحانه - أن هذا التحريم كان نتيجة لعظايتهم فقال تعالى :
(ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) أى . هذا الذى حرمتنا على الذين
هادوا من الأنعام والطير ومن البقر والغنم ، وهذا النصييق الذى حكمنا به
عليهم ، إنما ألزمتناهم به ، بسبب بغيهم وظلمهم ، وتعديهم حدود الله تعالى
قال قتادة : إنما حرم الله عليهم ما ليس بخبيث عقوبة لهم وتشديداً
عليهم) .

ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود ، من الأنباء التى لم يكن النبى (صلى الله
عليه وسلم) وقومه يعلمون عنها شيئاً لأميتهم ، وكان تكذيب اليهود له بأن الله

لم يحرم ذلك عليهم عقوبة لهم ، لما كان الأمر كذلك ، أكد الله هذا النبأ بقوله : « وإنا لصادقون ، . أى : وإنا لصادقون - يا محمد - فيما أخبرناك به ، ومن بينه ما أعلمناك عنه بما حرّمناه على اليهود من الطيبات وهم الكاذبون فى زعمهم أن ذلك إنما حرّمه لإسرائيل على نفسه ، وأنهم إنما حرّموه لنحرّم لإسرائيل إياه على نفسه .

ومع أن الشحوم جميعها باستثناء ما أحله لهم منها محرمة عليهم ، فإنهم تحايّلوا على شرع الله ، وأخذوا يبيعونها ويستعملونها فى شئونهم المختلفة أو يبيعونها ويأكلون ثمنها ، ولقد لعنهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بسبب هذا التحايل فى أحاديث متعددة .

من ذلك ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان قاهداً خلف المقام ، فرفع بصره إلى السماء وقال : « لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها ، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شئ - إلا حرم عليهم ثمنه ، (١) .

وعن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول عام الفتح (إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقبل يارسول الله أرايت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود ، وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس ، فقال : (لا . هو حرام) ثم قال رسول الله (ﷺ) عند ذلك (قاتل الله اليهود) ، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوها . أى : أذابوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها (٢) .

ثم حذرهم الله من الكفر والطغيان ، فقال - تعالى - : « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، أى : فإن كذبك - يا محمد - هؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين ، فيما أخبرناك عنه من أنا

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨٥

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨٥

حرمانا على هؤلاء اليهود بعض الطيبات عقوبة لهم ، فقل لهم . إن الله - تعالى - ذو رحمة واسعة حقاً ورحمته وسعت كل شيء ، ومن مظاهر رحمته أنه لا يعاجل من كفر به بالعقوبة ، ولا من عصاه بالنقمة ، ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأمره ، أو يمنع عقابه عن القوم المصرين على إجرامهم المستعربين على افتراء المنكرات ، وارتكاب السيئات .

فالآية الكريمة قد جاءت لتزجرهم عن البغى والكفران ، حتى يعودوا إلى طريق الحق . إن كانوا ممن يفتنع بالذكرى ، ويعتبر بالموعظة . ثم حكى القرآن بعد ذلك شبهة من الشبهات الباطلة التي تمسك بها المشركون في شركهم ووجهالاتهم ورد عليها بما يبطلها ويخرس السنة قائلها أو المنتذرين بها فقال :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ

شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلْ شُهِدَ آءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

إن هذه الآيات الكريمة تعرض لشبهة قديمة جديدة : قديمة لأن كثيرا من مجادلي الرسل من قبلهم كانوا دائما يتأود كثيرا من

المتمسكين بالأوهام في سبيل إرضاء نزواتهم من المتع الباطلة والشهوات المحرمة
لأنهم يقولون عند ما يرتكبون القبائح والمنكرات : هذا أمر الله ،
وهذا قضاءه ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء
لما فعلناها وإذا كان الله قد قضى علينا بها فما ذنبنا ؟ ولماذا يعاقبنا عليها ،
إلى غير ذلك من اللغو الباطل ، والكلام العاثر الذي يريدون من وراءه
التحليل من أوامر الله ونواهيه .

ولنتدبر سوياً أيها القارئ الكريم - هذه الآيات ، وهي تحكى تلك
الشبهات الباطلة ، ثم نقذفها بالحق الواضح ، والبرهان القاطع ، فإذا هي زاهقة
يقول - سبحانه - سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا
ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . . .

أى : سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله - تعالى - ألا نشرك به وألا
يشرك به آباؤنا من قبلنا ، لنفدت مشيئته ، ولما أشركنا نحن ولا آباؤنا .
ولو شاء كذلك ألا نحرم شيئاً مما حرمناه من الحرث والأنعام وغيرها
لنمت مشيئته ولما حرمنا شيئاً مما حرمنا .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه في العبادة
هذه الأصنام ، وأن نحرم ما نحرم من الحرث والأنعام وقد رضى لنا ذلك
فلماذا تطالبنا يا محمد بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا إلى الدخول في دينك
الذى لم يشأ الله دخولنا فيه ؟

قال الألوسى ما ملخصه : . . . وهم لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن
ارتكاب القبيح ، لأنهم لم يعتقدوا قبح أفعالهم وهى أفعى لهم . . . وإنما
مرادهم من هذا القول الاحتجاج على أن ما ارتكبوه - من الشرك والتحرير -
حق ومشروع ومرضى عند الله ، بناء على أن المشيئة والإرادة تساق
الأمر وتستلزم الرضا ، فيكون حاصل كلامهم .

إن ما ارتكبه من الشرك والتحرير وغيرهما تعلقت به مشيئة الله وإرادته ،

حوكل ما تعلقت به مشيئة الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنده . فينتج أن ما تركبه من الشرك والتحریم مشروع ومرضى عند الله ، (١) .

وقد حكى القرآن في كثير من آياته ما يشبه قولهم هذا ، ومن ذلك قوله - تعالى - وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء - نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم . . . (٢) .

وقوله - تعالى - وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون ، (٣) . وقد رد القرآن على قولهم بما يبطله فقال : كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، .

أى : مثل هذا التكذيب من مشركى مكة للرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إبطال الشرك ، قد كذب الذين من قبلهم لرسولهم ، واستمعوا في تكذيبهم لهم حتى أنزلنا على هؤلاء المكذبين عذابنا ونقمتنا .

ومن مظاهر تكذيب هؤلاء المشركين لرسولهم ، أنهم عندما قال لهم الرسل عليهم السلام - اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا - كذبوهم واحتجوا عليهم بأن ما هم عليه من شرك واقع بمشيئة الله ، وزعموا أنه ما دام كذلك فهو مرضى عنده - سبحانه - فكان الرد عليهم بأنه لو كان هذا الشرك وغيره من قبائحهم مرضيا عنده - سبحانه - : لما أذاق أسلافهم المكذبن الذين قالوا لرسولهم مثل قولهم : عذابه ونقمته . ولما أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

قال الألوسى ما ملخصه : وحاصل هذا الرد أن كلام المشركين يتضمن

(١) تفسير الألوسى ج ٨ ص ٥٠ .

(٢) سورة النحل الآية ٢٥ .

(٣) سورة الزمر

تكذيب الرسل وقد دلت المعجزة على صدقهم ، ولا يخفى أن المقدمة الأولى
وهي أن كل شيء بمشيئة الله : لا تكذيب فيها ، بل هي متضمنة لتصديق ما نطابق
فيه العقل والشرع من كون كل شيء بمشيئة الله ، وامتناع أن يجري في ملكة
خلاف ما يشاء . فحشاً التكذيب هو المقدمة الثانية ، وهي أن كل ما تعلقت به
مشيئة الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنه ، لأن الرسل عليهم السلام :
يدعونهم إلى التوحيد ويقولون لهم : إن الله لا يرضى لعباده الكفر ديناً ولا
يأمر بالفحشاء ، فيكون قولهم : إن ما تركبه مشروع ومرضى عنده سبحانه :
تكذيب لقول الرسل . وحيث كان فساد هذه الحجة باعتبار المقدمة الثانية
تعين أنها ليست بصادقة ، وحينئذ يصدق نقيضها وهي أنه ليس كل ما تعلقت به
المشيئة والإرادة بمشروع ومرضى عنده : سبحانه : بناء على أن الإرادة
لا تساقط الأمر (١) .

ثم بعد هذا الرد المفهم للمشركين أمر الله : تعالى : رسوله أن يطالبهم
بدليل على مزاعمهم فقال : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » .
أي : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتعجيز : هل عندكم من علم ثابت
تعتمدون عليه في قولكم « لو شاء الله ما أشركنا ... » ، إن كان عندكم هذا
العلم فاخرجوه لنا لننباحث معكم فيه ، ونعرضه على ما جئتمكم به من آيات بينة
ودلائل ساطعة . فإن العاقل هو الذي لا يتكلم بدون علم ، ولا يحيل على
مشيئة الله التي لا ندري عنها شيئاً .

و « من » في قوله « من علم » زائدة ، وعلم مبتدأ ، وعندكم خبر مقدم .
وقوله : « فتخرجوه » منصوب بأن المضمر بعد فاء السببية الواقعة بعد
الاستفهام الإنكاري .

ثم بين حقيقة حالهم فقال : « إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » .

أى : أنتم لستم على شيء ما من العلم ، بل ما تتبعون في أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم إلا الظن الباطل الذى لا يغنى من الحق شيئا وما أنتم إلا تخرون أى تكذبون على الله فيما ادعينه .

وأصل الخرص : القول بالظن . يقال : خرصت النخل خرصا - من باب قتل - حررت ثمره وقدرته بالظن والتخمين ، واستعمل في الكذب لما بداخله من الظنون الكاذبة ، فيقال : خرص في قوله - كنصر - أى كذب .

وبعد أن نفى - سبحانه - عنهم أدنى ما يقال له علم وحصر ما هم عليه من دين في أدنى مراتب الظن مع أن أعلاها لا يغنى من الحق شيئا ، ووصفهم بالكذب فيما يدعون ، بعد كل ذلك أثبت لذاته - سبحانه - في مقابلة ذلك الحجة العليا التى لا تعلموها حجة فقال :

قل فله الحجة البالغة ، فلو شاء هداكم أجمعين ، .

الحجة : كما قال الراغب في مفرداته : الدلالة المبينة للمحجة . أى : المقصد المستقيم .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين الذين بنوا أقواعد دينهم على الظن والكذب بعد أن عجزوا عن الإثبات بأدنى دلائل على مزاعمهم ، قل لهم : لله وحده الحجة البالغة .. أى البينة الواضحة التى بلغت أعلى درجات العلم والقوة والمتانة ، والتى وصلت إلى أعلى درجات الكمال في قطع عند المجحوج وإزالة الشكوك عن تدبرها وتأملها .

وقوله . . فلو شاء هداكم أجمعين ، أى : لو شاء - سبحانه - هدايتكم جميعا لفعل ؛ لأنه لا يعجزه شيء ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء هداية البعض لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وشاء ضلالة الآخرين ، لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلك طريق الباطل .

ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعاً فنقول
لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله .
نحن معكم في أنه لا يقع في ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه ، فالطائع تحت
المشيئة والعاصي تحت المقيضة ، ولكن المنيعة لم تجبر أحداً على طاعة أو معصية
وقضاء الله وقدره هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون ، وليس العلم صفة
تأثير وجبر .

ولقد شاء الله - تعالى - أن يجعل في طبيعة البشر الاستعداد للخير
والشر ، ووجههم العقل ليهتدوا به وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم
وسن لهم شريعة لتكون مقياساً ثابتاً لما يأخذون وما يدعون ، كي لا يتركهم
لعقولهم وحدها .

وإذن فمشيئة الله متحركة حسب سنته التي ارتضاها مختاراً - وهو قادر على
اختيار غيرها وعلى تغييرها وتبديلها - متحركة سواء اتخذ العبد طريقه إلى
الهدى أو إلى الضلال ، وهو مؤاخذ إن ضل وما جور إذا اهتدى . غير أن سنة
الله اقتضت أن من يفتح عينه ببصر النور ، ومن يغمضها لا يراه ، كذلك من
يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى . ومن يحجب قلبه عنها يضل ،
سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وإذن فزعم الزاعمين بأن الله يشاء هذا على معنى أنه أجبرهم عليه فهم
لا يستطيعون عنه فكاً ، إنما هو زعم باطل لا سند له من العلم والتفكير
الصحيح فإن المشيئة الإلهية لها سنة تقيد بها ، وهذه السنة هي أنه لا جبر
على طاعة ولا قسر على معصية .

وتقرر ذلك يؤخذ من قوله - تعالى - « قل فله الحجة البالغة فلو شاء
لهداكم أجمعين ، أي : فلو شاء أن يكرهكم ويفرض هدايتكم بقدرته
وقدرته لهداكم ، ولكنه لم يشأ إجباركم على الضلالة ، فهي مشيئة المنع

والتيسير وليفت مشيئة الإلجاء والنسخير قال - تعالى - : فأما من أعطى
واققى وصدق بالحسنى فسنيسره للبسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب
بالحسنى فسنيسره للعسرى .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يطالب
المشركين بإحضار من يشهد لهم بأن الله قد حرم عليهم ما زعموا تحريمه من
الحرث والأنعام وغيرها فقال :

« قل لهم شهداء كم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . »

هلم : لفظ يقصد به الدعوة إلى الشئ . وهى اسم فعل بمعنى أقبل . إذا
كان لازماً ، وبمعنى أحضر وائت إذا كان متعدياً كما هنا ، ويستوى فيه
الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث فى لغة الحجازيين .

أى : أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم عليكم هذا الذى
زعمتم تحريمه ، وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم .

والمقصود من إحضارهم تفضيهم وإلزامهم بالحجة ، وإظهار أنه لا متمسك
لهم كقائدين ، ولذلك قيد للشهداء بالإضافة ، ووصفوا بما يدل على أنهم
شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصر مذهبهم .

ثم قال - سبحانه - : « فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، أى : فإن فرض إحضار
هؤلاء اليهود الذين عرفوا بضلالهم فلا تصدقهم ولا تقبل شهادتهم ولا تسلموا
لهم بالسكوت عليها فإن السكوت عن الباطل فى مثل هذا المقام كالشهادة به
ولما عليك أن تبين لهم بطلان زعمهم بواسطة ما آتاك الله من حجج وبيّنات .
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين
يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرماً ثم أمره بأن لا يشهد معهم ؟ قلت : أمره
باستحضارهم وهم شهداء لباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ، ويظهر للمشهود
لهم بانقطاع الشهادتهم . الشاهدين والمشهد لهم »

لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به . وقوله : فلا تشهد معهم ،
يعنى فلا تسلم لهم ماشدوا به ولا تصدقهم ، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهيد
معه مثل شهادتهم وكان واحدا منهم (١) .

ثم قال - سبحانه - ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، أى : ولا تتبع
أهواء هؤلاء الناس الذين كذبوا بآياتنا التى أنزلها الله عليك لتكون هداية ونورا
لقوم يعقلون ، فإن شهادتهم - إن وقعت - فإنما هى صادرة عن هوى وضلال .
ولم يقل - سبحانه - ولا تتبع أهواءهم بل قال : ولا تتبع أهواء الذين كذبوا ،
فوضع الظاهر موضع الضمير لبيان أن المكذب بهذه الآيات والحجج الظاهرة لإمعانا
في التمسك بقوله الباطلة ، إنا هو صاحب هوى وظن لا صاحب علم وحجة .
وقوله : والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ، عطف على
الموصوف قبله لتعدد صفاتهم القبيحة .

أى : ولا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبين الكفر
بالآخرة ، وبين جعلهم لله عديلا أى شريكا مع أنه - سبحانه - هو الخالق
لكل شئ ، لأن هذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة حق ، ولا للنفقة بهم ، وإلما
للاحتقار في الدنيا ، واسوء العذاب في الآخرة

والى هنا تكون السورة الكريمة قد حكمت في بضع عشرة آية جانباً من رذائل
المشركين وسخف تقايدهم وعبث أهوائهم وفساد معاذيرهم وبطلان شبهاتهم
وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويبطل حججهم ، فيما أحلوه وحرموه في شأن
النذور والذبائح والمطاعم والمشارب وغير ذلك مما حكته الآيات الكريمة .

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى أفق أرحب وأوسع ، وإلى ميدان أفسح
وأشمل فتناديهم بأسلوب مؤثر بليغ ليستمعوا إلى ما حرم الله عليهم فيجتنبوه
وإلى ما كلفهم به فيعملوه ، تناديهم ليتدبروا في الأصول الكلية التى تقوم
عليها العقيدة السليمة ، ويسعد بها المجتمع ، ويحيا في ظلها الأفراد والجماعات

فى امان واطمئنان . تناديهم لىسمعوا البيان الصحيح الحق فيها أجل الله
وحرم من الافعال والاقوال لىسمعوه من له وحده الحق فى أن يقوله ،
وفى أن يتلقى عنه تناديهم فتقول :

قُلْ تَعَالَوْا أَنُؤْتِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقِي تَحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ
وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ
بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

إن المتأمل فى هذه الآيات يراها قد رسمت الإنسان علاقته بربه علاقة
ينال بها السعادة والثواب ، ورسمت له علاقته بأمرته بحيث تقوم على المودة
والحبة وسدت فى و

والأموال والأعراض ، وقد أطلق العلماء على هذه الآيات الكريمة إسم
« الوصايا العشر » نظراً لتذليل آياتها الثلاث بقوله - تعالى - « ذلكم وصاىكم به »
روى الترمذى - بسنده - عن ابن مسعود أنه قال : من سره أن
ي نظر إلى وصية محمد النبى عليها خاتمة فليقرأ هذه الآيات « قل تعالوا أتت
إلى قوله : لعلمكم تتقون .

وروى الحاكم وصححه ، وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال : قال
رسول الله (ﷺ) : أياكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ، ثم تلا قوله
- تعالى - : « قل تعالوا أتت . . حتى فرع منها ثم قال : من وفى بهن فأجره
على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن
آخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله ، إن شاء الله أخذه ، وإن شاء عفا عنه ، (١).

وروى البيهقى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : لما أمر الله
نبيه (ﷺ) أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى منى وأفا وأبو
نكر معه ، فوقف رسول الله (ﷺ) على منازل القوم ومضاربهم . فسلم عليهم
وردوا السلام ، وكان فى القوم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة والمثنى
ابن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو أغلب القوم
لساناً وأفصحهم بياناً ، فالتفت رسول الله (ﷺ) عليه وسلم وقال له :

إلام تدعوا يا أخا قريش ؟ فقال النبى (ﷺ) ادعوكم إلى شهادة أن
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله ، وإن تؤمنونى وتمنعونى
وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به ، فإن قريشاً تظاهرت على أمر الله
وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

فقال له مفروق : وإلام تدعوا أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول (ﷺ)
« قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم . . . إلى آخر الآيات الثلاث ، .

فقال له مفروق : وإلا تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه . فتلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. الآية » .

فقال له مفروق : دعوت واقع يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وقال هانيء بن قبيصة : قد سمعت مقاتلك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، ويعجبني ما تكلمت به ، فبشرهم الرسول — إن آمنوا — بأرض فارس وأنهار كسرى . فقال له النعمان : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ثم نهض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . »

هذا جانب من فضائل هذه الآيات الثلاث ، وذلك هو تأثيرها في نفوس العرب ، والآن فلنبداً في التفسير التحليلي لها فنقول :
لقد بدئت الآيات بقوله — تعالى — « قل تعالوا أتق ما حرم ربكم عليكم » .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين حللوا وحرّموا حسب أهوائهم ، تعالوا إلى وأقبلوا نحوى لأبين أمكم ما حرمه ربكم عليكم ، ولا تلو على مسامعكم ما أمركم به ، وما نهاكم عنه خالقكم ومربيكم ، فإنكم إن أقبلتم نحوى وأطعتموني سعدتم في دينكم ودنياكم .

وفي تصدير هذه الوصايا بكلمة « قل » ، إشعار من أول الأمر بأن هذا بيان إلهي ، ليس الرسول فيه إلا ناقلاً مبلغاً ، وفيه — أيضاً — دلالة على أن المأمور به يحتاج إلى مزيد عناية واهتمام وقد سبق أن بينا أن سورة الأنعام خاتمة هذا الأسلوب

والأصل في كلية د تعالى ، أن يقولها من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم اتسع فيها حتى عمت ، وهي تتضمن إرادة تخليص المخاطبين ورفعهم من انحطاطهم فيه إلى علو يراد لهم ويدعون لإياه ، وتتضمن كذلك أن المتكلم يريد منهم أن يلتفتوا من حوله لتتحد وجهتهم ، ولا تتفرق بهم الأهواء والسبل .

وفي قوله د أقل ، إيماء قري بأن المتكلم يقدر المخاطبين ، ويرتفع بهم إلى درجة أهم لا يحتاجون في الإرشاد إلا لأن يتلو عليهم ما يريد أن يعملوه ثم هم بعد ذلك سيمثلون لحسن استعدادهم لقبول الحق .

— وإنه لأسلوب قد بلغ الغاية في اللطف وفي التكريم وفي حسن الموعظة وتوجيه الخطاب .

— وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا قد اشتملت على المحرمات وعلى غيرها لأن سياق الآيات قبل ذلك كان منصبا على كشف ما اخترعه المشركون من تحريم في الحوث والنسل ما أنزل الله به من سلطان ، ولأن بيان أصول المحرمات يستلزم حل ما عداها لأنه الأصل .

وفي نسبة التحريم إلى الرب الذي هو منبع الخير والإحسان . حضهم على التدبر والاستجابة . لأن الذي حرم عليهم ذلك هو مربيهم ، فليس معقولا أن يحرم عليهم ما فيه منفعة لهم ، وإنما هو بمقتضى ربوبيته قد حرم عليهم ما فيه ضررهم .

— وقوله د أقل ، جواب الأمر ، أي : إن تأتوني أقل . و داء في قوله د ما حرم ، موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف أي : أقرأ الذي حرمه ربكم عليكم ، وهي في محل نصب مفعول به ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، أي أقل

تحريم ربكم ، ونفس التحريم لا يتلى وإنما هو مصدر واقع موقع المفعول به ،
 أى : أئبل محرم ربكم الذى حرمه هو . و د عليكم ، متعلق بحرم أو بائتل .
 قال بعض العلماء : وهذه العبارة التى قدمت بها الوصايا - وهى دقل تعالوا
 أئتل ما حرم ربكم عليكم - فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التى قام عليها الجدل
 فى السورة قد أصبحت واضحة . لا مفر من قبولها والبناء عليها ، فاته - تعالى -
 يأمر رسوله بأن يبلغهم ، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل الرسل ، وهناك
 رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله ، وهناك محرمات وردت من المصدر الذى
 يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب وما حرم ربكم ، ثم هناك لازم عقلى لهذا
 التحريم هو أن من تعداه وانتهكه كان مغضباً للرب الذى قرره . مستحقاً
 لعقوبته ، وإذن فهناك دار للجزاء (١) ، . ولننظر بعد ذلك فى الوصايا .
 الوصية الأولى : د أن لا تشركوا به شيئاً . أى : أوصيكم ألا تشركوا
 مع الله فى عبادتكم آلهة أخرى . بل خصوه وحده بالعبادة والخضوع
 والطاعة فإنه هو الخالق لكل شىء .

وصدر - سبحانه - هذه الوصايا بالنهى عن الشرك ، لأنه أعظم
 المحرمات وأكبرها إفساداً للفطرة ، ولأنه هو الجريمة التى لا تقبل المغفرة
 من الله ، بينما غيره قد يغفره - سبحانه - قال - تعالى - : وإن الله لا يغفر
 أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . .

وقد سبق القرآن مئات الآيات التى تدعو إلى الإيمان وتنفرد عن الشرك
 وتقيم الأدلة الساطعة ، والبراهين الدامغة على وحدانية الله - عز وجل - .
 هذا ، وقد ذكر الشيخ الجليل فى إعراب هذه الجملة الكريمة ألا تشركوا
 به شيئاً عدة آراء منها :

(١) سورة الانعام والأهداف الأولى للإسلام ص ٩١ لفضيلة الاستاذ

محمد المدنى - رحمه الله - (سورة الانعام)

١ - أن "أن" تفسيرية ، لأنه تقدم ما هو بمعنى القول لأحرفه ،
ولا نافية ولا تنكر كوا مجزوم بها .

٢ - أن تكون " أن " ناصبة للفعل بعدها ، وهي وما في حيزها في
على نصب بدلان ، " أحرم " ، ولا زائدة لئلا يفسد المعنى كزيادتها في
قوله : " ألا تسجد ، وألا يعلم " .

٣ - تكون " أن " ناصبة وما في حيزها منصوب على الإغراء بعلبيكم
ويكون الكلام قد تم عند قوله " ربكم " ، ثم ابتداء فقال : عليكم ألا تشركوا
أبى الزموا نفي النكر .

٤ - أنها وما في حيزها في محل نصب أوجر على حذف لام العلة ،
والتعدير تمالوا أنل " أحرم ربكم " ، أيكم لئلا تشركوا به شيئاً .

٥ - أن تكون هي وما بعدها في محل نصب بإضمار فعل تقديره :
أوصيكم ألا تشركوا .

ونكتفي بهذا القدر من وجوه الإعراب التي توسع فيها النجاة توسعاً
كبيراً ، بسبب ورود بآخر هذه الوصايا بصيغة النهي ، وبعضها بصيغة
الأمر ، مع تقام فعل التحريم على جميعها (١) .

أما الوصية الثانية في قوله - تعالى - " وبالوالدين إحساناً ، أى :
احسنوا بهما إحساناً كلاً لا إسامة معه .

وقد قرئ - سبحانه - هذه الوصية بالوصية الأولى التي هي توحيدية وعدم
الإشراك به ، في هذه الآية وفي غيرها ، الإشعار بعظم هذه الوصية وللتنبية إلى
مغنى واحد - يجمعها مع الأولى وهو أن المنعم يجب أن يتذكر : فالوالدان سبب
في حياة الولد فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما ، والله - تعالى - هو الخالق
المنعم فيجب أن يشكر ويفرد بالعبادة والطاعة .

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٠٧ وتفسير الألوسي ج ٨ ص ٧٥٥ .

— قال بعض العلماء : وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى عن المحرم وهو الإساءة ، سموا بالإحسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكأن الإساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها ، ولأن الخير المنتظر من هذه الوصية وهو تربية الأبناء على الاعتراف بالنعمة وشكر المنعمين عليها إنما يتحقق بفعل الواجب ، وهو الإحسان لا بمجرد ترك المحرم وهو الإساءة . لهذا وذاك قال - سبحانه - وبالوالدين إحسانا .

— والإحسان يتعدى بحرفي الباء وإلى ، فقال : أحسن به ، وأحسن إليه ، وبينهما فرق واضح ، فالباء تدل على الإلصاق ، وإلى تدل على للغاية والإلصاق يفيد اتصال الفعل بمدخول الباء ، دون انفصال ولا مسافة بينهما ، أما للغاية فتفيد وصول الفعل إلى مدخول إلى ، ولو كان منه على بعد أو كان وبينهما واسطة ، ولا شك أن الإلصاق في هذا المقام أبلغ في تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين ، ومن هنا لم يعد الإحسان بالباء في القرآن إلا حيث أريد ذلك للتأكيد ، وقد جاءت جميع آيات القرآنية التي توحى بالإحسان بالوالدين على هذا الأسلوب ، (١) .

ثم جاءت الوصية الثالثة وهي قوله — تعالى — ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم .

الإملاق : الفقر ، مصدر أملق الرجل إملاقا إذا احتاج وافتقر .
أى : لا تقتلوا أولادكم الصغار من أجل الفقر فنحن قد تكفنا برزقكم ورزقهم .

وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها . .
ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم . فن الظالم البين

الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفاً من الفقر ، مع أن الله - تعالى - هو الرازق لكم ولهم .

والمجتمع الذى يبيع قتل الأولاد خوفاً من الفقر أو خوفاً من العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفى تسوده الاثمة والانانية ، ويكون فى الوقت نفسه مجتمعا أفراده يسودهم النشأوم ، وتغشاهم الأوهام ، لأنهم يظنون أن الله يخلق خلقاً لا يدبر لهم حقهم من الرزق ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة تخوف من جريمة متوهمة ، وذلك هو الضلال المبين .

- وقد روى النهى عن قتل الأولاد هنا هذه الصيغة ، وورد فى سورة الإسراء بصيغة أخرى هى قوله - تعالى - : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، وإيس إحداهما تكراراً للأخرى ، وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة .

- فهنا يقول - سبحانه - : من إملاق ، أى : لا تقتلوه بسبب الفقر الموجود فيكم أيها الآباء لذا قال : نحن نرزقكم وإياهم ، لجعل الرزق للآباء ابتداء ، لأن الفقر الذى يقتلون من أجله أولادهم حاصل لهم فعلاً .

- وفى سورة الإسراء يقول : خشية إملاق ، أى : خوفاً من فقر ليس حاصل ، ولكنه متوقع بسبب الأولاد ولذا قال : نحن نرزقهم وإياكم ، فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، ليكف الآباء عن هذا التوقع ، وليضمن الأولاد رزقهم ابتداء مستقلاً عن رزق الآباء .

ففى كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله ، والاعتماد عليه .

وجملة نحن نرزقكم وإياهم ، تعليلية لإبطال ما اتخذوه سبباً لمباشرة جريمتهم ، وضمان منه - سبحانه - لأرزاقهم أى : نحن نرزق الفريقين لأنهم وحدهم ، فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء وهى قتل الأولاد لأن الأولاد

قطعة من أبيهم ، والشأن حتى في الحيوان الأعجم أنه يضحى من أجل أولاده ، ويحميهم ويتحمل الصعاب في سبيلهم .

أما الوسمية الرابعة فتقول : «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن»
الفرا حش . جمع فاحشة وهي كما قال الراغب في مفرداته - ما عظم قبحه
من الأقوال والأفعال يقال: فحش فلان ، أى صار فاحشاً مرتكباً للقبايح ،
والمفحش هو الذى يأتى بالفحش من القول أو الفعل ، كالسرقة والزنا
والنميمة وشهادة الزور .

: وأنها كم عن أن تقربوا من الأقوال والأفعال القبيحة ما كان
منها ظاهراً وما كان منها خافياً .

وقد تعلّق التحريم والنهى بهذا الوصف الذى يشعر بالعلة - كما يقول
علماء الأصول - فكأنه قال . إن كل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة
يجب البعد عنها .

والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك فواحش، يجب أن يجتنب ، ودعاه حسن،
يجب أن تلمس هو المجتمع الفاضل الطهور .

أما المجتمع الذى يسوى بين القبيح والحسن ، ويقوم على الإباحية
التي لا تفرق بين ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ، فلا بد أن يكون
مصيره إلى التدهور والتعاسة والمهانة .

وجملة « ما ظهر منها وما بطن » بدل اشتغال من الفواحش .

وتعليق للنهى بقربانها للمبالغة في الزجر عنها لأن قربانها قد يؤدي إلى
مباشرتها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا لون حكيم من
ألوان الإصلاح ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشيء ، فلا أن ينهى
عن فعله من باب أولئك .

ثم جاءت الآية في ختامها بالوصية الخامسة فقالت : ولا تقتلوا النفس التي حرم الله بالحق . .

أى : لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها بأن عصمها بالإسلام إلا بالحق الذي يبيح قتلها شرعاً كردة أو قصاص أو زنا أو وجب الرجم .
قال ابن كثير : وهذا مما نص - تبارك وتعالى - على الشئ عنه تأكيذاً ، وإلا فهو داخل في النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة ، (١) .
وقوله : إلا بالحق ، فى محل نصب على الحال من فاعل « تقتلوا » ، أى : لا تقتلوا ما ملئت بسين بالحق ، ويجوز أن يكون وصفاً لمصدر محذوف أى : قتلاً ملتبساً بالحق ، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى : لا تقتلوا فى حال من الأحوال إلا حال ملائمتكم بالحق .

وذلك لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء الله فلا يحق لأحد أن يهدمه إلا بالحق ، وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة فكأنما قد اعتدى على الناس جميعاً : « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً . .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - « ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » .
أى : ذلكم الذى ذكرناه لكم من وصايا جليلة ، وتكاليف حكيمة ، وصاكم الله به ، وطلبه منكم . لعلكم تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح .

فاسم الإشارة ، ذلكم ، مشار به إلى الوصايا الخمس السابقة ، وهو مبتدأ وجمله وصاكم به خبر .

ولفظ وصاكم من اللطف والرافة وجعلهم أو صياء له - تعالى - ما يحمل النفوس على الطاعة والاستجابة .

هذه هي الوصايا الخمس التي تضمنتها الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث وكلها تشترك في معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة في نفسها ، ولم يكن ثبوتها إلا تجاربا مع الفطرة ، فالفطرة واحدة سواء آمن الناس بهذه الحقيقة عقيدا وعمليا أم لم يؤمنوا ، وشكر النعمة يقتضي الإحسان إلى الوالدين طبعاً ووضعا ، وللنسل حق الحياة والحفظ ، والفواحش فحش وفكر في ذاتها فيجب أن تجتنب ، والنفوس معصومة فليس لأحد أن يهدمها إلا بحق ، ولا تفارقها كلها في هذا المعنى جاءت في آية واحدة ، وختمت بعبارة تفيد أن هذا مرجعه إلى حكم العقول ، لعلمكم تعقلون ، .

والوصية السادسة تأتي في مطلع الآية الثانية فنقول : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هي أحسن حتى يبلغ أشده ، .

أى : لا تقربوا مال اليتيم الذى فقد الأب الحانى ، ولا تنعرضوا لما هو من حقه بوجه من الوجوه إلا بالوجه الذى ينفعه فى الحال أو المآل ، كتهنيته وتعليمه ، وحفظ ماله واستثماره .

ولإذن ، فكل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لا يقع فى تلك الدائرة - دأره - الأنفع والأحسن - محظور ، ومنهى عنه .

قال بعض العلماء : وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشيء ، وضابطه بالاستقراء : أن كل منهى عنه كان من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء النهى فيه عن القربان ، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانه اتصالها إلى اقتراف المحرم ، وكان من ذلك فى

الوصايا السابقة للنهي عن الفواحش ، ومن هذا الباب « ولا تقربا هذه الشجرة » ، « ولا تقربوا الزنا » ، « ولا تقربوهن حتى يظهن » ، إلخ ، أما المحرمات التي لم يؤلف ميل النفوس إليها ولا اقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهي عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه . ومن ذلك في الوصايا السابقة الشرك بالله ، وقتل الأولاد ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها ، فإنها وإن كان الفعل المنهى عنه فيها أشد قبحا وأعظم جرما عند الله من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته ، وإنما هي في نظر العقل على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان في نفسه مرارة من ارتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها لو في حكم الكاره (١) .

وقوله : « حتى يبلغ أشده » ، ليس غاية للنهي ، إذ ليس المعنى فإذا بلغ أشده فاقربوه لأن هذا يقتضي إباحة أكل الولي له بعد بلوغ الصبي ، بل هو غاية لما يفهم من النهي كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً حينئذ سلوا إليه ماله .

والخطاب للأولياء والأوصياء . أي : احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه .

والأشد : قوة الإنسان واشتعال حرارته : من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار إذا ارتفع . وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . ولا واحده .

الوصية السابعة : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف أنفسكم وإلا وسمها » .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٤٤١ لفضية المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

أى : أنموال الكيل إذا كلتم للناس أو اكلتم عليهم لأنفسكم ، وأوفوا
الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو اغيركم فيما تبيعون .

فالجلة الكريمة أمر من الله — تعالى — لعباده بإقامة العدل فى التعامل :
بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولا بخس ، وبأخذ صاحب
الحق حقه من غير طلب الزيادة .

والكيل والوزن : مصدران أريد بهما ما يكان وما يوزن ، كالعيش بمعنى
ما يعاش به . وبالتوسط حال من فاعل أوفوا أى : أوفوها مقسطين أى :
متلبسين بالتوسط . ويجوز أن يكون حالا من المفعول أى : أوفوا الكيل
والميزان بالتوسط أى : قامين .

وهذه الوصية هى مبدأ العدل والتبادل ، وكل مجتمع محتاج إليها ، فالناس
لا بد لهم من التعامل ، ولا بد لهم من التبادل ، والكيل والوزن هما وسيلة ذلك ،
فلا بد من أن يكونا منضبطين بالتوسط .

والمجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها أحدا يغبن عن جمل أو غفلة ،
وهى أيضاً المجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها من يحال أن يأخذ أكثر من
حقه . أو يعطى أقل مما يجب عليه .

وقوله لا تكلف نفسا إلا وسعها ، أى : لا تكلف نفسا إلا ما يسعها
ولا يعسر عليها . والجلة مستأنفة جىء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان
بالعدل ، للترخيص فيما خرج عن الطاقة ، وليبيان قاعدة من قواعد الإسلام
الرافعة للخرج وذلك لأن التبادل التجارى لا يمكن أن يتحقق على وجه كامل
من المساواة أو التعادل ، فلا بد من تقبل اليسر من الغبن فى هذا الجانب أو ذاك .

والوصية الثامنة تقول : د وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، .

أى : وإذا قلتم قولاً فاعدلوا فيه ولو كان المقول له أو عليه صاحب
قربة منكم .

إذ العدل هو أساس الحكم السليم : العدل في القول ، والعدل في الحكم ، والعدل في كل فعل .

ولما خصصت الآية العدل في القول مع أن العدل مطلوب في الأقوال والأفعال وفي كل شيء ، لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم ، ثم الأقوال هي التي تراود النفوس في كل حال . فالإنسان حين تصادفه قضية من القضايا القولية أو العملية يحدث نفسه في شأنها ، ويرأوده معنى العدل ، وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده ، فيقول في نفسه سأفعل كذا لأنه العدل ، فإذا لم يكن صادقا في هذا القول فقد جافى العدل وقال زورا وكذبا .

أما قوله : ولو كان ذا قربى ، فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عادته من النائر بصلات القربى في المحاباة للأقرباء . والظلم لغيرهم .

فالقرآن يرتفع بالضمير البشري إلى مستوى سام رفيع ، على هدى من العقيدة في الله ، بأن يكلفه يتحرى العدل في كل أحواله ولو إزاء أقرب المقربين إليه .

أما الوصية التاسعة والأخيرة في هذه الآية فهي قوله - تعالى - «وبعهد الله أوفوا ، أى : كونوا أوفياء . مع الله في كل ما عهد إليكم به من العبادات والمعاملات وغيرها .

إذ الوفا أصل من الأصول التي يتحقق بها الخير والصلاح ، وتستقر عليها أمور الناس .

وقوله : «وبعهد الله أوفوا ، يفيد الحصر لتقديم المعمول ، وفي هذا إشعار بأن هناك عهدا غير جدية بأن تنسب إلى الله ، وهي العهد القائمة على الظلم أو الباطل ، أو الفساد ، فمثل هذه العهد غير جدية بالاحترام ، ويجب العمل على التخلص منها .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - « فاعلموا أنكم به لعلكم تذكرون » .

أى : ذلکم المتلو علیکم فی هذه الآية من الأوامر والنواهی وصاکم الله به فی کتابه رجاء أن تنذکروا وتعتبروا وتعملوا بما أمرتم به وتجتنبوا ما نهیتم عنه أو رجاء أن یفکر بعضکم بعضا فإن التناصح واجب بین المسلمین .
أما الوصية العاشرة فمن قوله - تعالى - فی الآية الثالثة من هذه الآيات : « وأن هذا صراطی مستقیما فانبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بکم عن سبیلہ » .

قرأ الجمهور بفتح همزة « أن » ، وتشديد النون . وعملها مع ما فی حیزها الجر بحذف لام العلة . أى : ولأن هذا الذى وصیتکم به من الأوامر والنواهی طریقى ودينى الذى لا أعوجاج فيه ، فمن الواجب علیکم أن تتبعوه وتعملوا به .

ويحتمل أن يكون عملها مع ما فی حیزها النصب على « ما حرم » ، أى : وأتولوا علیکم أن هذا صراطی مستقیما .
وقرأ حمزة وللكسائی « إن » ، بكسر الهمزة على الاستئناف .

وقوله « ولا تتبعوا السبل » ، يعنى الأديان الباطلة ، والبدع والضلالات للفاسدة . فتفرق بکم عن سبیلہ ، أى . فتفرق بکم عن صراط الله المستقیم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لکم .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : خط لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطاً ثم قال : هذا سبیل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبیل منها شیطان يدعو إلیه ثم قرأ : « وأن هذا صراطی مستقیما » . .

وقد أفرد - سبحانه - الصراط المستقیم وهو سبیل الله ، وجمع السبل المخالفة له لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة ، والبدع الفاسدة ، والشبهات الزائفة ، والفرق الضالة وغيرها .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - « ذلکم وصاکم به لعلکم تتقون » ، أى :

ذلكم المذكور من اتباع سيده - تعالى - وترك اتباع السبل وصاكم الله به
لعلمكم فتقون اتباع سبل الكفر والضلالة ، وتعملون بما جاءكم به هذا الدين .
قال أبو حيان : ولما كانت الخسة المذكورة في الآية الأولى من الأمور
الظاهرة الجلية مما يجب تعلقها وتفهمها ختمت الآية بقوله : لعلمكم تعقلون ،
ولما كانت الأربعة المذكورة في الآية الثانية خافية غامضة ولا بد فيها من
الاجتهاد والتفكير حتى يقف الإنسان فيها على موضع الاعتدال ختمت بقوله :
لعلمكم تذكرون ، ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وأمر
- سبحانه - باتباعه ونهى عن اتباع السبل المختلفة ختم ذلك بالتقوى التى هى
اتقاء النار ، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة
السرمدية ، (١) .

وبعد : فهذه هى الوصايا العشر التى جاءت بها هذه الآيات الكريمة ،
والمناهل فيها يراها قد وضعت أساس العقيدة السليمة فى توحيد الله - تعالى -
وبنت الأسرة الفاضلة على أساس الإحسان بالوالدين والرحمة بالآبناء ،
وحفظت المجتمع من التصدع عن طريق تحريمها لانتهاك الأنفس والأموال
والأعراض ، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله التى هى منبع كل خير وسبيل
كل فلاح .

فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا ؟ إنهم لو عملوا بها لعزوا فى دنياهم
ولسعدوا فى أخراهم ، فهل تراهم فاعلون ؟

اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك وجنبنا ما لا يرضيك ،

ولما كان هذا الصراط قديماً ، والديانات قبله كانت فى اتجاهه ، أشار
- سبحانه - إلى موسى وكتابه ، وبين منزلة هذا القرآن ، وأمر الناس
باتباعه فقال :

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
 أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
 يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا
 وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْ عَلَيْنَا
 الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى
 وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي
 الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قال الألوسي : قوله : ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . الخ ، كلام مستأنف
 مسوق من جهة - تعالى - تقريراً للوصية وتحقيقاً لها ، وتمهيداً لما تعقبه من
 ذكر إنزال القرآن المجيد كما ينبغي عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم
 معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله : ذاكم
 وصاكم به ، بطريق الاستئناف تصديقاً له وتقريراً لمضمونه ، فعلنا ذلك
 و ثُمَّ آتَيْنَا . . . وقيل عطف على ذاكم وصاكم به ، . . . وعند الزجاج أنه
 عطف على معنى التلاوة ، كأنه قيل : قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ،
 ثم أنل عليهم ما آناه الله موسى ، (١) .

وكلمة ثم لا تفيد الترتيب الزمني هنا ، وإنما تفيد عطف معنى على معنى ، فكأنه - سبحانه - يقول : لقد بينت لكم في هذه الوصايا ما فيه صلاحكم ثم أخبركم بأننا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة ليكون هدى ونوراً . وقوله : « تماماً على الذى أحسن » ، قرأ الجمهور أحسن بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله ضمير الذى ، أى : آتينا موسى الكتاب تماماً للكرامة والنعمة على من أحسن القيام به كائناً من كان . فالذى لجئنا إليه المحسنين . وتدل عليه قراءة عبد الله ، تماماً على الذين أحسنوا ، وقراءة الحسن ، على المحسنين .

ويحوز أن يكون فاعل أحسن ضمير موسى - عليه السلام - ومفعوله محذوف أى : آتينا موسى الكتاب تنمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل أمر وهو موسى - عليه السلام - و « تماماً » مفعول لأجله أى : آتيناها لأجل تمام نعمتنا ، أو حال من الكتاب ، أى : حال كونه أى الكتاب تاماً . أو مصدر لقوله « آتينا » من معناه . لأن إتياء الكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً . فهو « كنياناً » فى قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » ، أى إنباتاً .

وقراء يحيى بن يعمر « على الذى أحسن » بضم النون على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، و « الذى » وصف للذين أى : تماماً على الذين الذى هو أحسن دين وأرضاه .

قال ابن جرير : وهذه قراءة لا أستجير القراءة بها وإن كان لها فى العربية وجه صحيح ، لخلافها ما عليه الحجة بجمعة من قراء الأمصار (١) . وقوله : « وتفصيلاً لكل شيء » ، معطوف على ما قبله ، أى : وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه قومه فى أمور دينهم ودنياهم .

وقوله : « وهدى رحمة لهم بلقاء ربهم يؤمنون » ، أى : هذا الكتاب

هداية لهم إلى طريق الحق ، ورحمة لمن عمل به لهم ، أى قوم موسى وسائر أهل الكتاب يصدقون بيوم الجزاء ، ويقدمون للعمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم الشديد .

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن فقال : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » أى : وهذا القرآن الذى قرأ عليكم أوامره ونواهيه رسولنا صلى الله عليه وسلم كتاب عظيم الشأن أنزلناه بواسطة الروح الأمين ، وهو جامع لكل أسباب الهداية الدائمة ، والسعادة الثابتة .

« فاتبعوه ، أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام .

« واتقوا ، مخالفته واتباع غيره .

« لعلمكم ترحمون ، أى : لفرحموا بواسطة اتباعه والعمل بما فيه .

ثم قطع - سبحانه - عذر كل من يعرض عن هذا الكتاب فقال : « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين » .

أى : أنزلنا هذا الكتاب لهدايتكم كراهة أن تقولوا يوم القيامة ، أولئنا تقولوا لو لم نزله : إنما أنزل الكتاب الناطق بالحجة على جماعتين كانتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى ، وإنما كنا عن تلاوة كتابهم لغافلين لا علم لنا بشئ . منها لأنها ليست بلغتنا .

فقوله : « أن تقولوا ، مفعول لأجله والعامل فيه أنزلناه مقدرآمدلوا عليه بنفس أنزلناه المفعول به فى الآية السابقة أى : أنزلناه كراهية أن تقولوا . وقيل لأنه مفعول به والعامل فيه قوله فى الآية السابقة - أيضاً - « واتقوا . . . » أى . واتقوا قولكم كيت وكيت . وقوله لعلمكم ترحمون » .

معرض جار مجرى التعليل .

والمراد بالكتاب : القرآن ، فالتدريج فى الانجيل والزبور .

ونخصيص الإنزال بـكتابينهما لأنهما اللذان اشتهرا من بين الكتب السماوية بالاشتغال على الأحكام .

والخطاب لكل من أرسل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم ساق — سبحانه — آية أخرى لقطع أعذارهم فقال . . . أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم .

أى : وأنزلنا الكتاب — أيضاً — خشية أن تقولوا معتذرين يوم القيامة لو أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الذين من قبلنا ، لكنا أهدى منهم إلى الحق وأسرع منهم استجابة لله ولرسوله لمزيد ذكائنا ، وتوقد أذهاننا ، وتفتح قلوبنا .

وقوله : فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، جواب قاطع لأعذارهم وتعلاتهم أى : فقد جاءكم من ربكم عن طريق نبيكم محمد — ﷺ — هذا الكتاب الواضح المبين ، والذي هو هداية لكم إلى طريق الحق ، ورحمة لمن يعمل بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات .

وقوله : فقد جاءكم . . . متعلق بمحذوف تنبيه عنه الفاء الفصيحة إما معال به أى : لا تعتذروا فقد جاءكم . . . وإما شرط له أى : إن صدقتم فيما كنتم تعدون به . . . فقد حصل ما فرضتم وجاءكم بينة من ربكم . . . والاستفهام فى قوله : فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ، للإنكار والنفي . أى : لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءته بيناتها الكاملة ، وهداياتها الشاملة .

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبام . فإن مجيء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى : وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ؟ . ومعنى : وصدف عنها أى : أعرض عنها غير متفكر فيها ، أو صرف الناس عنها وصدفهم عن سبيلها . فجمع بين الضلال والإضلال .

ثم ختم - سبحانه - الآية بتهديد أولئك المعرضين عن آياته بقوله :
 « سيجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ، أى :
 سنجزئهم أمراً العذاب وأشدّه بسبب تكذيبهم لآياتنا وإعراضهم عنها .
 فالآيتان الكريمتان تقطعان كل عذر قد يتعلل به يوم القيامة المكذبون
 لرسول الله (ﷺ) وللقرآن الكريم ، وتوعدهم بأشد ألوان العذاب .
 ثم يمضى القرآن فى تهديدهم خطوة أخرى . رداً على ما كانوا يطلبون
 من الآيات الخارقة ، وتحذيراً من إعراضهم وتقاعسهم عن طريق الحق مع
 أن الزمن لا يتوقف ، والفرص لا تعود فيقول :

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ
 آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا
 لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضَرُوا
 إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي
 شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ
 جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا
 مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

أى : ما ينتظر مشركو مكة وغيرهم من المكذبين بعد إعراضهم عن
 آيات الله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم من أجسادهم .
 والجملة المكررة - انتظروا - لأن لا تأتوا من الإيمان بإزال ما ذكره
 من البينات والهدى .
 (سورة الانعام - ٢٠)

قال البيضاوى : وهم ما كانوا منتظرين لذلك ، ولكن لما كان يلحقهم
الحق انتظر شبهوا بالمنتظرين .

وقوله : « أو يأتى ربك » أى : إيماناً يناسب ذاته الكريمة بدون كيف
أو تشبيه للقضاء بين الخلق يوم القيامة ، وقيل المراد بإتيان الرب ، إتيان
ما وعد به من النصر للمؤمنين والعذاب للكافرين .

وقوله : « أو يأتى بعض آيات ربك » أى : بعض علامات قيام الساعة ،
وذلك قبل يوم القيامة ، وفسر فى الحديث بطول الشمس من مغربها .

فقد روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن
من عذابها . فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . .

وفى رواية لمسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) قال : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل
أو كسبت فى إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض .

ثم بين - سبحانه - أنه عند مجيء علامات الساعة لا ينفع الإيمان فقال :
« يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل
أو كسبت فى إيمانها خيراً » .

أى : عند مجيء بعض أشراط الساعة ، يذهب التكليف ، فلا ينفع
الإيمان حينئذ نفساً كافرة لم تكن آمنت قبل ظهورها ، ولا ينفع العمل
لصالح نفساً مؤمنة تعمله عند ظهور هذه الأشراف ، لأن العمل أو الإيمان
عند ظهور هذه العلامات لا قيمة له لبطلان التكليف فى هذا الوقت .

قال الطبري : معنى الآية لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل الطلوع -
أى طلوع الشمس من مغربها - إيمان بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن

عمل صالحاً قبل الطلوع ، بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ . حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة ، وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال - تعالى - فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، وكما ثبت في الحديث للصحيح : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ ، (١) .

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث ، وعليه يحمل قوله - تعالى - : د أو كسبت في إيمانها خيراً ، أى : لا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك ، (٢) .

وقوله : د قل انتظروا إنا منتظرون ، تهديد لهم . أى : قل يا محمداً لهؤلاء الكافرين : انتظروا ما تنتظرونه من إيمان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شيء تنتظرون ، فإننا منتظرون معكم لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة . ثم بين - سبحانه - أحوال الفرق الضالة بوجه عام فقال : د إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء .

أى : إن الذين فرقوا دينهم بأن اختلفوا فيه مع وحدته في نفسة فجعلوه أهواء متفرقة ، ومذاهب متباينة : د وكانوا شيعاً ، أى فرقاً ونحلاً تتبع كل فرقة إماماً لها على حسب أهوائها ومتعها ومنافعها بدون نظر إلى الحق .

وقوله : د لست منهم في شيء ، أى : أنت برىء منهم محمى الجانب عن مذاهبهم الباطلة ، وفرقهم الضالة . أو لست من هدايتهم إلى التوحيد في شيء إذ هم قد انطلمست قلوبهم فأصبحوا لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى الهدى .

وقوله : « إنما أمرهم إلى الله ، تعليل للنفى المذكور قبله أى : هو يتولى وحده أمرهم جميعاً ، ويدبره حسب ما تقتضيه حكمته ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون » .

وقوله : « ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » ، أى : ثم يخبرهم يوم القيامة بما كانوا يفعلونه فى الدنيا من آثام وسيئات ، وبعاقبهم على ذلك بما يستحقونه من عقوبات .

والآية المكرمة عامة فى كل من فارق تعاليم الإسلام سواء أكان مشركاً أم كتابياً ، ويندرج فيها أصحاب الفرق الباطلة والمذاهب الفاسدة فى كل زمان ومكان ، كالقاديانية ، والباطنية ، والبهائية ، وغير ذلك من أصحاب الأهواء والبدع والضلالات .

قال ابن كثير : « والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه ، وكانوا شيعاً ، أى : فرقا كأهل الأهواء والملل والنحل والضلالات ، فإن الله قد برأ رسوله منهم . وهذه الآية كقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك . . . الآية » .

وفى الحديث : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات . ديننا واحد ، فهذا هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده والتمسك بشرعية الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجمالات وآراء وأهواء ، والرسل براءة منها كما قال - تعالى - « لست منهم فى شيء » (١) . ثم بين - سبحانه - لطفه فى حكمه ، وفضله على عباده ، بمناسبة

الحدث عن الجزاء فقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

أى : من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة . فله عشر حسنات أمثالها
فى الحسن ، فضلا من الله — تعالى — وكرماً .

قال بعضهم : وذلك — والله المنزل الأعلى — كمن أهدى إلى ساطعان
عنقود عنب يعطيه بما يلبق بسلطنته لاقيمة العنقود . والعشر أقل ما وعد
من الأصناف ، وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمئة وبغير حساب ، ولذلك
قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص .

(ومن جاء بالسيئة) أى : بالأعمال السيئة (فلا يجزى إلا مثلها) أى :
فلا يجزى بحكم الوعد إلا بمثلها فى العقوبة واحدة بواحدة (وهم لا يظلمون)
بنقص الثواب وزيادة العقاب . فإن ربك لا يظلم أحدا .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى معنى الآية منها ما رواه الشيخان عن
أبي هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : يقول الله
— إلهى — : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها
فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجل فاكتبوها له حسنة ، وإذا
أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له
بعشر أمثالها إلى سبعمئة) .

ثم ختمت السورة الكريمة بخمس آيات جامعة لوجوه الخير ، من
تأملها تجلى له أنها ختام حكيم يناسب هذه السورة التى هى سورة التبذخ
والإعلان ، والمبادئ العليا لدعوة الإيمان .

أما الآيات الخمس فهى قوله — تعالى — :

قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ
 صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ
 لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا
 وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ
 وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ
 مُخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ
 فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِكُمْ إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ
 الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ولغيرهم ممن
 أرسلت إليهم ، قل لهم جميعاً : لقد هداني خالقى ومربيى إلى دين الإسلام
 الذى ارتضاه لعباده (ديناً قيمياً) أى : ثابتاً أبداً لا تغيره الملل والنحل
 ولا تفسخه الشرائع والكتب .

وقوله (ديناً) نصب على البدل من محل (إلى صراط) لأن معناه هدانى
 صراطاً ، أو مفعول لمضمر يدل عليه المذكور . أى : عرفنى ديناً .
 وقواه (قيماً) صفة (لديننا) والقيم والقيم لغتان بمعنى واحد وقرى بهما
 وقوله (ملة إبراهيم) منصوب بتقدير أعنى أو عطف بيان لـ (ديننا) (ديننا)
 و (حنيفاً) حال من إبراهيم . أى : هدانى ربى ووفقنى إلى دين الإسلام

الذى هو الصراط المستقيم والدين القيم المتفق مع ملة إبراهيم الذى كان
مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق ، والذى ما كان أبدا (من المشركين)
مع الله آلهة أخرى في شأن من شره . لا كما يزعم المشركون وأهل الكتاب
أن إبراهيم كان على دينهم .

ثم قل لهم للمرة الثانية : إن صلاتى التى أنوجه بها إلى ربى (ونسكى)
أى عبادتى وتقربى إليه - وهو من عطف العام على الخاص - وقيل المراد
به ذبائح الحج والعمرة . (ومجىاى ومماق) أى : ما أعمله فى حياتى من أعمال
وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح .

كل ذلك (لله رب العالمين) فأما مجرد تجرداً كاملاً الخالقى ورازقى بكل
خايجة فى القلب ، وبكل حركة فى هذه الحياة .

فهو - سبحانه - رب كل شىء . ولا شريك له فى ملكه ، بذلك القول
الطيب ، وبذلك العمل الخالص أمرت وأما أول المسلمين الممثلين لأوامر
الله والمنتهين عن نواحيه من هذه الأمة .

ثم قل لهم للمرة الثالثة على سبيل التعجب من حالهم ، والاستنكار
لواقعهم : (أغير الله أبغى رباً) أى : أغير الله - تعالى - تريدوننى أن
أطلب رباً فأشركه فى عبادته ، والجمال والشأن أنه - سبحانه - هو رب
كل شىء ومليكه ، وهو الخالق لكل شىء .

بجملة (وهو رب كل شىء) حال فى موضع العلة لإنكار ما هم عليه
من ضلال ..

ثم بين - سبحانه - أن كل إنسان مجازى بعمله فقال : (ولا تكسب
كل نفس إلا عليها) أى : لا تجفرح نفس إنمأ إلا عليها من حيث عقابه .
فلا يؤاخذ سواها به ، وكل مرتكب لإثم فهو وحده المعاقب به .
(ولا تزر وازر) Made searchable using ScribeTools.com

مذنب ذنب نفس أخرى ، وإنما تتحمل الأثمة وحدها عقوبة إثمها الذي ارتكبته بالمباشرة أو بالتسبب .

قال الفرطبي : وأصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك) وهو هو الذنب كما في قوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) (١) .

ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال : (ثم إلى ربكم مرجعكم ، أي : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة) فينبئكم بما كنتم مختلفون) بتمييز الحق من الباطل ، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب عمله .

ثم ختمت السورة بهذه الآية (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) أي : خلائف من القرون الماضية ، فأورثكم أرضهم لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم .

وخلائف : جمع خليفة ، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة له لأنه يخلفه .

وقوله : (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي : فأتى بينكم في الأرزاق والأخلاق والمخامن والمساوى والمناظر والأشكال والألوان وغير ذلك .

ثم بين - سبحانه - العلة في ذلك فقال : (لئيلوكم فيما آتاكم) أي : لئليختبركم في الذي أنعم به عليكم ، ليختبر الغنى في غناه ويسأله عن شكره . ويختبر الفقر في فقره ويسأله عن صبره .

وفي الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله

مستخلفكم فيما فتنناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) .

ثم رهب — سبحانه — من معصيته ، ورغب في طاعته فقال . (إن ربك سريع العقاب) لمن عصاه وخالف رسله . (وإله لغفور رحيم) لمن أطاعه واتبع سبيل المؤمنين الصادقين .

أما بعد : فهذه هي سورة الأنعام التي طالبت من مبدئها إلى نهايتها قضية العقيدة بكل مقوماتها علاجاً قوياً حكيماً يهدي إلى الرشدين عنده الاستعداد لذلك ، والتي طوفت بالنفس البشرية في الكون كله لترشدنا إلى خلق هذا الكون ، وتجعلها تستجيب له وتنتفع بما منحها من نعم ، والتي أكتشفت عن مواطن الشرك ومظاهره في كل مظانه ومكانه . لتقدمه وتدحضه وتخلص النفس البشرية والحياة الإنسانية من أمراضه وأدوائه .

تلك هي سورة الأنعام التي نزلت مشيئة بالملأ العظيم من الملائكة وذلك تفسير تحليل لها ، لا تزعم أننا استقصينا فيه كل ما يتعاق بهذه السورة الكريمة ، من توجيهات وهدايات ، وإنما هو قبسات من نور القرآن الكريم ، نرجو الله أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

• ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس تفسير سورة «الانعام»

رقم الآية	الآية المفسرة	ص
٢١	ومن اظلم ممن افترى	٧٧
٢٢	ويوم نحشرهم جميعا	٧٨
٢٣	ثم لم تكن فتنتهم الا	٧٩
٢٤	انظر كيف كذبوا	٨٠
٢٥	ومنهم من يستمع اليك	٨١
٢٦	وهم ينهون عنه	٨٢
٢٧	ولو ترى اذ وقفوا على النار	٨٥
٢٨	بل بداهم ما كانوا	٨٦
٢٩	وقالوا ان هي	٨٧
٣٠	ولو ترى اذ وقفوا	٨٨
٣١	قد خسر الذين	٨٩
٣٢	وما الحياة الدنيا الا لعب	٩٠
٣٣	قد نعلم انه ليحزنك	٩١
٣٤	ولقد كذبت رسل	٩٣
٣٥	وان كان كبر عليك	٩٥
٣٦	انما يستجيب الذين	٩٦
٣٧	وقالوا لولا نزل	٩٧
٣٨	وما من دابة في الارض	٩٨
٣٩	والذين كذبوا باياتنا	٩٩
٤٠	قل ارايتكم ان اتاكم	١٠٠
٤١	بل لاياء تدعون	١٠١
٤٢	ولقد ارسلنا الى اعم	١٠٢
رقم الآية	الآية المفسرة	ص
	المقدمة	٣
	تمهيد بين بدى السورة	٤
١	الحمد لله الذى خلق	٣٨
٢	هو الذى خلقكم من طين	٤٥
٣	وهو الله فى السموات وفى الارض	٤٩
٤	وما نأتيتهم من آية من آيات	٥٠
٥	فقد كذبوا بالحق لما جاءهم	٥٢
٦	الم يروا كم املكننا	٥٣
٧	ولو نزلنا عليك كتابا	٥٦
٨	وقالوا لولا انزل عليه	٥٩
٩	ولو جعلناه ملكا	٦٠
١٠	ولقد استمضى برسل	٦١
١١	قل سيروا فى الارض	٦٢
١٢	قل لمن ما فى السموات والارض	٦٤
١٣	وله ما سكن فى الليل	٦٦
١٤	قل اغير الله اخذ وليا	٦٧
١٥	قل لى اخاف ان عصيت	٦٨
١٦	من يصرف عنه	٦٩
١٧	وان يمسك الله بضر	٧٠
١٨	وهو القاهر فوق عباده	٧١
١٩	قل أى شىء اكبر شهادة	٧٣
٢٠	الذين آتيناهم الكتاب	٧٥

رقم الآية	الآية المفسرة	ص	رقم الآية	الآية المفسرة	ص
٩٣١	٦٥ قل هو القادر		٤٣	فلولا إذ جاءهم	١٠٣
١٣٢	٦٦ وكذب به قومك		٤٤	فلما نسوا ما ذكروا به	١٠٣
١٣٣	٦٧ لكل نبأ مستقر		٤٥	فقطع دابر القوم	١٠٤
١٣٤	٦٨ وإذا رأيت الذين		٤٦	قل أرايتم إن أخذ	١٠٥
١٣٥	٦٩ وما على الذين يتقون		٤٧	قل أرايتكم إن آتاكم	١٠٦
١٣٠	٧٠ وذر الذين يخفون		٤٨	وما فرسل المرسلين	١٠٧
١٤١	٧١ قل أندعو من دون الله		٤٩	والذين كذبوا بآياتنا	١٠٧
١٤٤	٧٢ وأن أقيموا الصلاة		٥٠	قل لا أقول لكم	١٠٨
١٤٥	٧٣ وهو الذي خلق		٥١	وأند ربّه الذين	١٠٩
١٤٦	٧٤ وإذا قال إبراهيم		٥٢	ولا تطرد الذين	١١٠
١٤٧	٧٥ وكذلك فرى		٥٣	وكذلك فتنا	١١٢
١٤٨	٧٦ فلما جن عليه الليل		٥٤	وإذا جاء الذين	١١٣
١٥٠	٧٧ فلما رأى القمر		٥٥	وكذلك فصل	١١٤
١٥١	٧٨ فلما رأى الشمس		٥٦	قل إني نهيته	١١٤
١٥٢	٧٩ إني وجهت وجهي		٥٧	قل إني على بينة	١١٦
١٥٣	٨٠ وحاجه قومه		٥٨	قل لو أن عندي	١١٨
١٥٦	٨١ وكيف أخاف		٥٩	وعنده مفاتيح الغيب	١٢٠
١٥٧	٨٢ الذين آمنوا ولم		٦٠	وهو الذي يتوفاكم	١٢٤
١٥٩	٨٣ وتلك حجتنا		٦١	وهو القاهر فوق عباده	١٢٥
١٦٢	٨٤ ووهبنا له إسحاق		٦٢	ثم ردوا إلى الله	١٢٨
١٦٣	٨٥ وزكريا ويحيى		٦٣	قل من ينجيكم من	١٢٩
١٦٤	٨٦ وإسماعيل وإلياس		٦٤	قل الله ينجيكم	١٣٠

رقم الآية الآية المفسرة ص

١٠٩ وأقسموا بالله ٢٠٩

١١٠ ونقلب أفئدتهم ٢١٠

١١١ ولو أننا نزلنا ٢١٢

١١٢ وكذلك جعلنا لكل نبي ٢١٤

١١٣ ولنصفي إليه أفئدة ١١٦

١١٤ أفغير الله أتبعي ٢١٧

١١٥ وتمت كلمة ربك ٢١٧

١١٦ وإن تطع أكثر ٢٢٠

١١٧ إن ربك هو أعلم ٢٢١

١١٨ فكلوا مما ذكر اسم الله ٢٢٢

١١٩ ومما لكم ألا تأكلوا ٢٢٤

١٢٠ وذروا ظاهر الإثم ٢٢٥

١٢١ ولا تأكلوا مما لم يذكر ٢٢٦

٢٢٢ أو من كان ميتاً ٢٢٨

١٢٣ وكذلك جعلنا ٢٣٠

١٢٤ وإذا جاءتهم آية ٢٣١

١٢٥ فمن يرد الله أن يهديه ١٣٢

١٢٦ وهذا صراط ربك ٢٢٣

١٢٧ لهم دار السلام ٢٣٤

١٢٨ ويوم يحشرهم جميعاً ٢٣٥

١٢٩ وكذلك نولي ٢٣٧

١٣٠ يامعشر الجن والإنس ٢٣٩

رقم الآية الآية المفسرة ص

٨٧ ومن آباءهم وذرياتهم ١٦٥

٨٨ ذلك هدى الله ١٦٦

٨٩ أولئك الذين آتيناهم ١٦٧

٩٠ أولئك الذين هدى الله ١٦٨

٩١ وما قدروا الله ١٧٠

٩٢ وهذا كتاب ١٧٣

٩٣ ومن أظلم ممن افترى ١٧٦

٩٤ ولقد جئتمونا فرادى ١٨٧

٩٥ إن الله فائق الحب ١٨٢

٩٦ فائق الإصباح ١٨٦

٩٨ وهو الذي جعل لكم ١٨٨

٩٨ وهو الذي أنشأكم ١٩٠

٩٩ وهو الذي أنزل من ١٩١

١٠٠ وجئوا الله شركاء الجن ١٩٦

١٠١ بديع السموات والأرض ١٩٧

١٠٢ ذلكم الله ربكم ١٩٨

١٠٣ لا تدركه الأبصار ٢٠٠

١٠٤ قد جاءكم بصائر ٢٠١

١٠٥ وكذلك نصرف ٢٠٣

١٠٦ اتبع ما أوحى إليك ٢٠٤

١٠٧ ولو شاء الله ما أشركوا ٢٠٤

١٠٨ ولا نسبوا الذين ٢٠٥

رقم الآية	الآية المفسرة	ص	رقم الآية	الآية المفسرة	ص
١٤٩	قل فآله الحجة البالغة	٢٧٦	١٣١	ذلك أن لم يكن ربك	٢٤٠
١٥٠	قل هلم شهداءكم	٢٨٠	١٣٢	ولكل درجات	٢٤٣
١٥١	قل تعالوا أتت	٢٨٥	١٣٣	وربك الغنى ذو الرحمة	٣٤٥
١٥٢	ولا تقربوا مال اليتيم	٢٨٩	١٣٤	إن ما توعدون لآت	٢٤٩
١٥٣	وان هذا صراطى	٣٠٠	١٣٥	قل يا قوم اعملوا	٢٥١
١٥٤	ثم آتينا موسى الكتاب	٣٠١	١٣٦	وجعلوا لله ما ذرأ	٢٥٣
١٥٥	وهذا كتاب أنزلناه	٣٠٢	١٣٧	وكذلك زين الكثير	٢٥٥
١٥٦	أن تقولوا آمنا	٣٠٣	١٣٨	وقالوا هذه أنعام	٢٥٦
١٥٧	أو تقولوا لو أنا	٣٠٤	١٣٩	وقالوا ما فى بطون هذه	٢٥٧
١٥٨	هل ينظرون إلا	٣٠٥	١٤٠	قد خسر الذين	٢٥٩
١٥٩	إن الذين فرقوا	٣٠٧	١٤١	وهو الذى أنشأ	٢٦٠
١٦٠	من جاء بالحسنة	٣٠٩	١٤٢	ومن الأنعام حمولة	٢٦١
١٦١	قل إننى هدانى ربى	٣١٠	١٤٣	ثمانية أزواج	٢٦٥
١٦٢	قل إن صلاتى	٣١١	١٤٤	ومن الإبل اثنين	٢٦٩
١٦٣	لا شريك له وبذلك	٣١١	١٤٥	قل لا أجد فيما	٢٦٩
١٦٤	قل أغير الله أبغى	٣١٢	١٤٦	وعلى الذين هادوا	٢٧٠
١٦٥	وهو الذى جعلكم	٣١٢	١٤٧	فإن كذبوك فقل	٢٧٢
			١٤٨	سيقول الذين أشركوا	٢٧٤

رقم الإيداع ٥٠٢٠ / ١٩٨٣



٧٠ ش: الباب الأخضر المشهد الحسيني
القاهرة ت ٩٣٦٠٠٨